

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والخطابية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث عشر

دمشق
١٩٩٥ ١٤١٦ هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

-- من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
-- الفتح القسي في الفتح القدسي -- للعماد الاصفهاني

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلف لنا التعرف الى بعض المؤرخين المسلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبار الصراع مع هؤلاء الغزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صاحب النيل على تاريخه ، وكان العماد الاصفهاني - وفيما بعد ابن شداد - قد شارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فائق الأهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الأهمية بددتها صنعة الكلام التي ابتلي بها العماد أكثر من سواءه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني ، ولد في اصفهان سنة ٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١ م ، وهو بعمره المئيد كان شاهد القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من اسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منها بالادارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العماد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الاولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الادارية ، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفاجئة آنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعده شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيا له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثّر هذا بامد وجيز استخدمه صلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشارات مفصلة للعماد وللادوار التي تولّاها ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العماد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم - بحكم كونه اتقن نظم الشعر - بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » ونيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ - كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسلطين السلاجقة ووزرائهم وأعيان دولهم ورجالاتهم ، وبنى أصل هذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بن خالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصدور زمان الافتور » ، ونظرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قام الفتح البنداري في العصر الايوبي بتهنيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبوع في ايدي الناس ، هذب البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ - كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي التي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه ان العماد استهدف من تصنيفه التاريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او آخر في كتابه .

٣ - « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعل هذا الكتاب في سبعة اجزاء ، أرخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٦٢ هـ / ١١٦٧ حتى وفاة صلاح الدين ، اي أرخ فيه للدولتين الذورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابو شامة في كتابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بأكمله ، بل وصل إلينا من أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جل المتبقي من الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسها والمكان نفسه ، وذلك اعتمادا على المخطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في أكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العامة بالرباط ، وهي مصورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السوسي ، ولانعرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغته ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقة جدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة مدفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص أكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة للصفحات : ١٧٠ - ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمان فوجدت فيها / ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابن واصل هذه المصاعب فاقترضوا بالذقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهدب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجديد المهدب « سنا البرق الشامي » وسلف الباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة من هذا الكتاب فنشر الجزء الأول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احق فوائد تذكر في تحقيق الوجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارئ لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتدائه بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء - ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها وادعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ما كتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نفقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب النيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقارئ العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان - ١٩٩٥ .

من

كتاب البرق الشامي

للعلماء الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت به في بحار الانعام بالاخلاص والحمد القلوب والألسنة ، والزمان التي تقضت على انتظار احسانه الأزمنة ، والعصر الذي أحسننت به الأمة المؤمنة ، وظهر فيه المكان المقدس الذي سالمت لسلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة . وتمكنت من رقاب أعداء الله به السنة بأيدي أوليائه المتملكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الدبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السنة نزل نص النصر ، وكفت كف الكفر ، وعلت اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهم ايدي الايد بالفتك ، وضائق بهم رحاب الملك ، وطمت للدين بالسواحل بحار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخسدت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الأسرة تحت الرق ، وطالت ألوية الأولياء ، وسالت أودية الاوداء ، ونال الاحماء فضل رب السماء ، وتجلت مـنـاـهـب النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب من الخبيث ، وانتقم التوحيد من التثليث ، وبنيت للدين اعانة العين ، واغاثتة المغيث ، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الاحايث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثروه في البلاء من التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التي فجأتهم فعمتهم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلي وتليت الانكار ، واعترف من عادته الجحود وأقر من دأبه

الانكار ، وملكك من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ
الأوكار ، واعتري ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات المذوحات في هذا العام عشي ايامه
والابكار ، وكانوا كما قال الله تعالى : « وتري الناس سكارى
وماهم بسكارى » فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد
وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال ، ووسعت
ووشعت الأقوال ، وحليت الفتوح ، وأملت الشروح ، وأهديت
المنوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام بأحياء ذكرها الروح

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته
الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمته الغالية ، وفضيلته
الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله
متداركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب
بالرغائب وقرب جنحية الأقارب والأقاصي . . . مظهرات
مكرماته والجوهرم على عادات علاء عداته (١) . . . وسمات
حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى
المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الأسعاف ، وأمد
نيار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من
الأطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في
القضم من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول
محرم في العسكر العرمم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب
الى العدو والبأس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل
جهنم ، فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها مذبح نحو الهيجاء
ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلها مطلع فلق فيالقته ، ومحيط مضارب
سراذقة ، ومجال رواده على بوارقه ، ومجر سوابغه مجرى
سوابقه ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقايقه ، ومحشر
معاشره ، ومريض أساده وقساوره ، ومخيم جيوشه ومجثم
عساكره ، وأمر ولده الملك الأفضل نور الدين عليا بالاقامة هناك
ليستدني اليه الأمراء الواصلين والاملاك ، ويجمع الأعراب
والاعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣) فرط الاستدراك ولايفارق لما
يلزمه الاحاطة بعمله الادراك ، ويضم لمجمع الاجناد
الاشقات ، ويجم لموسم الجهاد الأوقات ، وسار السلطان الى
بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وقد استقبل من الله
الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه للهدنة • واعتماده
من قطع الطريق واخافة السبيل كل ما في المكنة • وهو على طريق
العسكر المصري والحاج • شديد الالتجاء • وفي بحر
اللاج • وكان في الحج حسام الدين محمد بن عمر بن
لاجين • ووالدته اخت السلطان مع جملة من الخواص
المقربين ، وأقام الى تلقي الحجيج • واستقبل محيا لقائهم
البهيج • ورأواهم الأريج • وخلا من منعلم سره • وتجلي
لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صفر • ووجه صباحته
لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فرغ باله • جم الى الكرك
استقلاله • وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها
نزول الحاص الحاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبرق • ونوقد
ونحرق • ونرمق ونومق • ونهرق ونزممق • ونفرب
ونشرق • ونضايق ونضيق • ونجمع البلاء على تلك البلاد
ونمزق ، حتى اجتثت أصولها وفروعها ، واستأصل كرومها

وزروعها ، وقطع ما وجدته من لينة ، وأذهب مآراقه من زينة ، وفري
وقري وفصم العري ، وابسط الذرى ، وهجم على ظهر
الثرى ، وحلب حر النجح هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد بإشارة
رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر
المصري متصل المدد ، محتفل العدد والعدد متضخ الجدد
والجدد ، ومضطرم اللهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهج
الجمع ، أخذه بوارقه ورواعده ، بالبصر والسمع ، فقوي
الاستظهار واستظهرت القوى ، وسأقت وراقت مزاينه المجلوبة
ومحاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة
الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودها
بالنصر الأكمل والغنم الأجل .

أما الملك الأفضل فإنه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه
من كل فج عميق وضاق بوفودهم القضاء ، وفاض بوفورهم
القضاء ، واجتمع من دجى عتيرهم ومشى بذورهم الظلام
والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحاب
من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحافل
من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم
انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاهم على
حينه ، فرأى الملك الأفضل أن يشغلهم بغزوة يعبدون منها
بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس
والشدة والمراس ، ورتب علي خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق
وبيار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى
عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرد بن ياروق . وهو الذي
بحماسة يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق . وعلى عسكر دمشق
وبلادها صارم الدين قايماز . وهو يفوق غضاء مضاربه الصارم

الهرماز والعضب الجراز • فأسرجوا الخيل • وأدلبوا
الليل • وجروا من السابريات النيل • وأجروا من الأعوجيات
السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخر
صدفر • وصباح النصر قد افتخر • فخرج اليهم الفرنج في حشود
جهنم وريوييلهم • وجنود ابليس واسود تحمي العريس
وسراحين على سراحيب • وأهـاضيب تتحللـل
أهـاضيب • وتعتقل اناييب وتشتمل شاييب • في الداوية
بأدواتها • والاسـبتار بأسوائها • والبـارونية
بـالأوائها • والتـركبولية وأربائـها • والفـرنجية
بـضرائها • ووثبوا في وثبات الأساد • وحملوا في ثبات
الأجواد • فلولوا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهدى أهل
هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسلام لا يعتز بالأجر • لكن
أمـرائه الكرام اسـتطابوا الحمـام • فـلاقوهم بـقلوب
الصخور • وحبور الصقور • وباشروا بـصدورهم صدور
الأسنة • وغامروا بنحورهم نحور الأعنة ، فأتاهم الله النصر
المني ، والظفر السني ، وسقوا منهم حنين الحنايا • وأدركوا
فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحازوا وانتصروا • وقتلوا
وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فرسانهم في
قبضة الأسار • وعادوا سالمين ساليين • غانمين غالبين • وقد
كبسوا وكسبوا • وسحبوا نيول الاختيال بصدق ما حسبوا • وكانت
تلك الذوبية الحلوة • والخـطوة الصـفوة • بـأكوره
البركات • ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات • واندرج ان الله
يعلي لأوليائه الدرجات • ويسـوق زمـر اعدائه الى
الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك ندور
ونجول • ونجور ونثور وعلى الأعداء منا الدحور والثبور • فلما
قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللبث وعقدنا عزم
الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعات .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بالعساكر ، وانتظم عملنا الأول والأخير ، وخيمنا على عشترا ، والقدر يقول للسلطان تعيش وتري ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشتمل المعسكر على فراسخ عرضا وطولا ، وملأ بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا خيل صفون رحض كأنها حصون ، وزحف موضون ، وعضب مسنون ، وفيض مكنون ، وحركة وسكون ، وركوب وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحر من العسكر في البر مشحون ، وضائق الأيام عن عرضها ، وتقاضت الليالي بقرضها ، ونزلت جنود سمائها الى جنود ارضها ، فللمقانب مناقب ، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكائب من الشجعان مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصائب ، وللريح سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللسلاهب جنائب . وللحقائق حقائق ، وللمواهب مزاheb ، وفي كل يوم انفاق وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتلاء واعتلاق ، واعتناء واعتناق ، واجتماع لا افتراق ، وانطلاق واندلاق ، وامتناء وامتناق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفاق من ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمير وعناق ، وسمر ودقاق ، وبيض رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجوددهاق ، وعرض العسكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشتمل على عدة جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بها الرياح ، ورماح شيلها المراح ، ورواسي سوارى ، وأعلام جوارى ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمام ، وضارب بضرام وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحاسم بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأسد فارس ، ولروع ممار ممارس ، والصبح بما يثيره حابس ، وباشر بالكريهة غير عابس ، قاذح لسنا السنايك قابس ، مناف لعدة الاسلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله
مظاهر ، ولعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، والفتخ
الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجدد
حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للاقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء
الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع . والتهب الجمر .
واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت
الضمر . وبرقت البيض والسمر . وردت بالردى العداة الزرق المنايا
الحرمر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنصرة
ثمر النصر أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغرا الأيام
الغبير . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر .
واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله
في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحديده وحدته . وبيضه
ومجره ولجه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب
ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها .
والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن
النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال . وعين الجاليشية
من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير
موضعه . ولكل منير مطلعه . ولكل اسل مركزه ولكل سحر
منهزه . ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم
مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم
مؤكبه . وقرر مخطانهم في الركوب والنزول والثبوت
والحلول . ومعارض الصفوف . ومدارج الزخوف . ومناهج
الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الألوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر . والأسد
القساور . والفتخ الكواسر . والقضب البواقر . والفلك
المواخر . والسحب المواطر . والسحح الدياجر . والحمس
الزوائر . والغر السواقر . والبيض الزواهر . والسمر
الشواجر . والبيض المغافر . والقوم المعاشر . والبلاد
والحاضر . والخف والحافر . والصلب والمساجر . والأكارم
والأكابر . والساعي والسائر . والعالي
والفاخر في عايات سفره . رعن الرعن لعايات كفره . حزن الحزن
وهي . مفاوير هدى . دان لها التقدير الخماير عدى . دنا منها
القديم . وسارت على ترتيبها وتعبيتها وتنكيبها وتنقيبها محدشورة
عصائبها مذشورة ذوائبها . سائلة أوبيتها . جائلة أرضها . فهي
تخرق الخرق . وتغرق الغرق على الفرق . تملأ الوهاد
بهوائها . وتكلا من العوادي بعوايها . وأناخت ليلة السبت على
خسفين والكفر مخسوف . والشرك مكسوف . وكل جبل بلجها
مذسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللاقدام في لج الاقدام
رسوب ورسوف . وللين في فضله وعدله والكفر عسوف . وباتت
تلك الليلة والرماح مركوزه والصفاح مهزوزة . وللمقربات
تصال . وللمضروبات صدقال . وللمسوجات اجراء . وللشريجات
اغراء . وللجوج رنان . وللأعوجيات رهان . وللقساطل
اقساط . وللصواهل أصوات . وللسلامة امراط . وللاستقامة
صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسنة
اقراط . ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط . ولإقيام
اشتراط . وللقناد اختراط . والعسكر بساط . والعثير
اضباط . واللهم اعباط . واللهم ارتباط . وللبهم
اختباط . وللأمم احتياط . وللعزم نشاط . وللحزم
يشاط . وللغماغم اختلاط . وللصوارم اشتطاط . وللنجم
مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في
الارتجاج والجو في الارتجاج . والدو في الامتجاج . وقلب الكفر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج
لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو
الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس الترائك لامعة في
الأبراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سابحة في
غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفــة علي
الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة
للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيش
يخامر الدهر شاج . ونقود الرواحل من عقود الرواغب في
رواج . والشوارع نازعة للآجاء واسراء من الجمام
واسراج . ونزلوا بثغر الأقحوانة حروض راء . وعقد غير
واء . وعزم غير باء . وعز متباء ، وسعد متناء . وحكم أمر
ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء للفضاء
مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت
الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد
الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت
الأقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر
الانتقام . وحمي للتحزب الحمام . وشد للتخرم الحزام . وأقام
الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف اكفاء الكفاح مراح
الرماح . وتصافح الصفايح . وعرف كيف ركوب الجبال
للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة ايام الى يوم الخميس . في ذلك
الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قــــــــواعد
التأسيس . وأساة المضايق بالتنهيس . وحماة الحقائق في طوري
الايحاش والتأنيس . وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم
التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك
بدار الدربيس . واقتداح زناد الأفراج . وانهاض جناح
النجاح . الى ارداء اهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون
اللقاء . وهل يفترق الاحباب . وقد اجتمع الأعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للأقدام . وسلب لبس السلامة من
ملابس عادة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد
العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين
حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التفاير
والتنافس الى التضافر والتوانس . وقالوا : نحن انصار
النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب
العصبية . وعمدة المعموية . وداروا بدرا فاويق الوفاق . ونزعوا
الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا
على مرانه مطلع امانيه بالخلص . ثم تزاوروا وتوازرُوا . وتضافروا
وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا
واشلاموا . وتذمروا وتذمموا . وتخطوا وتورطوا . واخترموا
واختلطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا
وخطبوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطنطوا وفي
ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا هليلج
الصليبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار
بالجب الجرار . وار يفلح الأوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع
اسرار . غمر من الأغمار . وكل مغوم مغوار . وباد بادبار . وناز
بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس . وفارس
للأساد فراس . وداوي داء خبيته عضال . واسبثاري له دون تباريه
نضال . وباروني يبارى البوار . وتركبولي لا يترك الفوار . وينزع
النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز
أفعوانا . وكل شيطان يجر لهتخ ماء الأرواح أشطانا . وكل متميز
في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكهوب
القنا متوقع . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يفض

الجمع الجم كأنه حمر الفضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ
لظى . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي
جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري
بصرامة . وناري يافح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف
للشر ممازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم
جار . عاس على العجم جاس في الهجوم . خاس في الرجم . قاف
اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على الذشر والطي . حاف في
الزعف راد بالزحف . ساق بالحثف . ناصب بالفعل جازم
بالحثف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم
مجترح محترف للموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ملثم
القطوب ملتفع مصطلم لثلم الخطوب مصططح ، وكل ذي فضفاض
وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائف ، وعار في الدماء
والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل
لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثلعب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب
جارج ، وزرق تمتش بزرق الأسنة ، وشقر تعبى الشقر بصرف
الاعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر
غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشارك
عظائم رذائل ، وأمعط مغتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر
العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام
الوغى ، وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج
المنايا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى
سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا
لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء
عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبيح فوقى النقع
بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة
الوقع ، واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق .
واسمعوا الصواعق . وقربوا السوابق . وأبعدوا الخوانق .
وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا
المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالأبر ، وطال الشر
وطار الشرار ، وشق الأمر ، وسقت المرار ، وأخضرت الغبراء من
الحديد ، واغبرت الخضراء من الصبيد ، وساحت
السيول ، وسالت الشهاب ، وتفايشت البحار ، وتضايقت
الرحاب ، وتموج بضراغمة الغاب ، وأرعبت أيماض البروق
واصعاد الرعود ، فللكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختام
القتام بالفضاء في فض ، وغدران القران في فيض ، والنجوم في
انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاع ، والعوامل
في ارتعاض ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب
والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب
ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران
المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

وما زال السلطان له مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه
مستشيرا ، فأشار الأمراء ذؤوا الآراء بالصمود عن اللقاء
والمحافظة على نضار الاسلام بصون الذماء وحققن الدماء
وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاqqة المزم في
الرقم ، وما بلغ الأملاك قبلك الا ما بلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد
ما أرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تفركم
تنقل المعركة ، ولا تلحق بأيديهم الى التهلكة ، وهذه بلادهم قد خلت
منهم ، ونأت بقربهم ضياعهم ، فنشتغل بالآغارة على بلادهم
الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، ونرجع بالفنائم
والسبايا والمرباع والصفايا ، وما نزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد
البلايا ، ونخلص من انسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقال السلطان : ان الأيام غير مأمونة ، والأعمال غير مضمونة ، والجهاد فـرض فـرضه رسول الله في أرضه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضة ، ولا بد من هذا اللقاء أما وإمسا وإن الله اصدق القائلين : « ولينصرن الله من ينصره » فقالوا : خضك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فاننا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سار الخميس • وزحف بأسده العريس، وطابت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السوابق على الأردن أربيان الوبيان في الاجراء، واعتضدت أملاك الأرض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العبدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقداء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيالق • وتقيد عنان الجو من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الأحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسذور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر، وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسمر • ووقف مع المثير المعشر • وحال المغيث وهال المحضر • وهاب المنظر والمخير • وظهر الحق وحق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول : « الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا وماذبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخذوا الى الأرض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مـرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتوا ونبتوا ، وسكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الفرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر .

فلما عرف السلطان أنهم لا يبرحون • ومن قرب صـفورية لا ينزحون وأنهم لا يهيجون الى الهياج • ولا يخوضون معه بحر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذموا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العيسية على مدينة طبرية • وعلم
أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن
من قتالهم • ويجهد في استئصالهم • فحضر طبرية
وحصرها • وابتدأ بها وابتدأ بها وجمع الرجال على أحد أبراجها
وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاها • فوق ذلك البرج • وانتزع
عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالمة الاسلام • وبخلوها في جنح
الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدوبة من
الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان وأهراء غلال • فاحترقت
أمتعة بأموال • وكيسوا رباعا وكسبوا متاعا • وأرهبوا
وأوهجوا مرضا وضرما • وأحرجوا وأخرجوا نعمما
ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع الى ازدراد
ماتحويها فارغة • وتحصنت القومصية ست طبرية في
قلعتها • ومعها بنوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع
الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم
سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجابوا بخيلهم
ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصالبوا وصلبوا • وتعصبوا
وتصعبوا • وثاروا وفاروا • ورازوا وزأروا • وجاءوا
واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل الاقتام مدجين • وفي بحر
اللام ملججين مدجين • والى حزب التوحيد بحزب التثليث
مخرجين • ومن كل جبل تحرقه الريح • ومشيع شهاده
المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيع ، ونصب الى الموت
يستريح • ومشتاق الى ملاقة المذون قد حثه التبريح • ومخرج
الى التورط في الردى من هول ماهوله يصيح • ومرتجج يؤذسه
المارق اللجج • ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطل
مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند
للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد
لله الذي أنجـز وعده • وأيد جنده وأبنا منــ منــ رابنا
القطاف • وأصغى من مرامنا النطاف • وأسنى لنا الاطاف
ونهب بجماله الى جبالهم • وبرزاله الى رجالهم • وسار
لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • وأخذ عليهم بذوي الاقدام
قدامهم • ووقف بصفوفه امامهم • وصد طـرقهم • وسد
فلقهم • ورد عن الزحف فيلقهم • وأغرى غرامهم • وأضرى
ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما
الغيظ منهم غيظ وقد قد الحر ، واستشرى الشر • ووقع الكر
والفر • وللأوار تأجج • وللارام توهج ، وللعدى شعل • وللردى
شغل • والسعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شايـط
غرار • وماآل الشيطان قرار • والسراب طافح • والظمأ
لاقح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولأولئك الكلاب من الـهب
لهث • وبالعـث عبث ، وفي ظنهم أنهم يردون الماء • ويردون
الذماء • ، فحالاتهم الحالة الحـالية • وغالتهم الغلة
الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة
بنظارها • وذلك يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة • ووراء
عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قطعت على
الفرنج طـريق الورد • وبلوا من العطش بالنار » ذات
الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين ، فكلبوا
على ضراوتهم • وشربوا ما في ادواتهم • وشفهوا ماحولهم من
موارد المصانع • واستنزفوا حتى ماء المدامع • وأشرفوا على
المصير الى المصارع • وبخل الليل وسكن السيل • وباتوا على
شغف البحيرة بحيرة • وحيقـت ظنونهم • ولم يبق بهم غير
غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برج • وقووا أنفسهم على
الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا
من ماء الفرند • واكتفوا بماء جداول الأغـماد من الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى
القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد
التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء
الأرواح نجاح النجاح، وشدوا حزم الانتقاء • وأعدوا حرم
الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في
العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجترات • ومن كل مايعوقها
برئت • وهذا لسنانه شاحذ • وهذا شههم موفق • وهذا لحده
ممه • وهذا لحده منه • وهذا لسهمه موفق • وهذا شههم
موفق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر للتبكير • وهذا مجر
ضامر • ومعر بائر • ومفر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز
المناجز • والمحاجز الحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج
للسعادة • فياله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحرة انعامها
الطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية
أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديق • ومن
ظلام ممله بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مفاقره
مغفور • ومن يجور مابعده لاشراق سنا النصر ليجور • ومن
ألوية أولياء الله عقدتها بخمرها الحور • وقد قابل بها فيها ظلمة
الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف
شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر
يفروح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة
الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم : « فأتاهم الله ثواب الدنيا
وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والسنة مفروضة
والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسيل واضحة
سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين
متقاضي بالشفاء علية • راع رياض الرضا رعيه • والله ناصر
الاسلام ومديله .

ذكر الذشاب ووصفه .

وسهر السلطان تلك الليلة • حتى عين الجاليشية من كل طلب
بأسماء رجالها • وملا جعابها وكنائنها عريات نبالها • ومريشات
نصالها • وكان ما فرقه من الذشاب أربع مائة حمل • فتزل نص
النصر منها على كل نصل • ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقي
يأخذ منها من خلت جعابة • وفرغ ذشاب من تغالوق تفتح من باب
الجنة المغالوق • وتواضيع تخرق المضاعف الذسيج • وناوكات ذوات
نكايات • وزيارات وزنبوركات • ونبل عنده نبال لكل تبل • وذشاب
في الأحداق ذي انشاب • وجروح الجروح • وخروج الروح • وسهام
الأشهر سهام الحمام وتذفير أقرانها الثغام . ونصل وصالها
تقطع أوصال نافق بكل حمس صال . ومطالوق نطالوق بها سراح
الأرواح . ومعابل تكثر منها صعب الجراح . ومهرقات موفقات
مسدات ... الحصارق ... (٥) المبريدات وصائبات إلى المقبل
صايبات . ونواجز تعيد السباع قنافذ . وتجعل للنجيع
مناجع . والمذون منافذ . وبوارق تمزق أهب المارق . وتطقم
وتنتقم من المارد المارق . ومريشات أوكارها الحدوق . وأوكائها
الحلق . وفاصلات ناضحات أربية الردى . وناحلات فاضحات
أوردة العدى . وقاضيات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات
خروق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات
راشقات شفاء المقاتل . وقاضيات قاضيات مذمار
المناسل . وماضيات حاضيات بالأصابة . وساعيات داعيات
للإجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات
الذكاة . ومضميات مصمات الافتك . ومدميات مدميات
البتك . وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على
الأسرار . هاتكات للذماء . سافكات للذماء . مثيريات
للثرى . مفريات للفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب
الجراد . واريات وري الزناد . طائرات مكن الأكناد إلى
الأكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهيف . خارجات من

طلوع الحنايا الى احناء الضلوع. مـارجات لدى الروع الراد
الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القلاع . بالغات
الشعور . عالقات بالتامور . محالقات للدور . غاربات الغروب في
النحور . ورايات الصدور الى الصدور . قـاطعات
للحجاب . واقعات بالعذاب . مدمجات على الالتهاب. مغنيات
بالدماء على الطعان والضراب . ومـراسيل تـروى امام
العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدي
به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضه من العين في السواد
ومعتدل تحذو له العـوج . وبـرق خاطف تحمس وراءهـا
المهوج . ومنزع لنزع المهـج وقطع الود . اخـطف مـن
الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى من
الحريض . واشبى من الطرف الفضـيـض . وأعمل من السمر
والبيض . والسـلطان يأمر . والحنايا تـوتـر . والمنايا
تـؤثر . والأعنة تصرف . والأسنة تـرهف . والحقائب
تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشمر . والجاووشسية
تنصر . والسـوابق تضمر . والسـوابغ تذشر. والصلادم
تنضى . والصوارم تنتضى . والسـلاهب تجمـع . والجنائب
تمرح . وأيم الضراء تنساب . وغيم الغماء تنجاب . والنفوس
مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن
اللعـب . والعزم غالب بالغـب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حطين وهو يوم السبت الخامس
والعشرون من شهر ربيع الآخر .

وأصبح الجيش على تعبـيته . والنصر على تلبـيته . ووقف
العسكر في قلبه وجناحيه وميمنته وميسرته أطـلابا متقاربة
متباعدة . وأنجادا متعايدة متساعدة و آلافا متضافرة . وأضعافا
متضاعفة متظاهرة . وبرز رجال الجاليش . وارتجـز دعاء

التحريض والتحرّيش . وصفا لباس الناس على الكمي
الكميش . وشرعت ثعالب الشرع في رعي الحشاشات رعي
الحشيش . وتطير في الجو على سنابك الهمام جراد النصل
المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجب الأرواح
للتقيش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرت
اعنة عتاقها . وشرعت أسنة دقاقها . وأطالت رقاب
رقاقها . وأبانت غايات سيقاقها . وأعلت رياحات
احتفالقها . وأحلت مذاق مذاقها . وأغلت أوساق
أوساقها . وأغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت
ظلال رواقها . ودارت كؤوس اصطباقها للاعتباط
باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فرق
مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفرنج راكبة الجرد . متراكبة
المدد . متكاثفة العدد . أخذت طريق البحيرة . بطوارق الحيرة . قد
احاط رجلها بخيلها . جارية الى القرار بسيلها . أمواجها
ملتظمة . وأفواجها مزحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبة
ملتهمة . ونفعها مديد . ووقعها شديد . وحدها حديد . وجدها
جديد . يأمدون المذنون . ويجذون الجذون . ويجرون الشومول
والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهم صدنا . وردت سيولهم
بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبالنا . وشوتهم
بنيراننا نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا سلوك نهج
الموت . وأنه لا مطمع في البقاء الا باستحلاء مطعم
الفوت . والسلطان قد رفق قلبه . ووقف الى الوثوق بنصر الله
قلبه . وهو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضهم على حظهم من
الفتوح او الحتوف . ويعددهم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين
يالألوف . وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون . ويصدون العدو
ويردون . وكان له مملوك اسمه مذكورس من اقممار الفلك . ومن
شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قد
علاقته الدور العين لحسنه . واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القبول
في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواكب الأتراب يشدقنه في
جهات عدة . وكان الله برأي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والحدور الحسان . وكان ظريفا طريفا . نظيفا
عفيفا . طاهر النبل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله
له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق . وركب عنقه
في الرق . وألهمه نصرة الحق . وهو راكب امام العسكر . شائم
غمام العثير . نامق عرف الكوثر . مستعفر تحت المغفر . مستنير في
سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق
في الأقدام . فوثب بحصانه وثوب الضرغام . معتقلا الى الردى
ربينيا . ومشتملا لتصرف مشرفيا . وممتطيا للاستقامة
اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها
ميدانه . وشكر لها احسانه . وذلك عنها اقارانه . ونفذ
طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجذبه لقوة رأسه
حصانه . وخلا خلانه . وخانه اخوانه . فلما راه الفرنج
وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفوا عليه . وزحفوا
اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مكانه . فأثبت في
مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسه
فلذوا انه احد اولاد السلطان . وزعموا ظهور الكفر على
الايمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جوار الرحمن في غرفات
الغفران . وأما عساكرنا فإنها لما شاهدت استشهاده وجلاله
وجلاله حميت حميتها . وأبت غير الفيرة ابيتها . وخلصت له في
ارداء اعدائه بنيته . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي
اهل النار بنار ضرامها وتلفحهم بلوافحها . وتقذحهم
بقوايحها . وتسقيهم بجداول مناصلها . وتزرميهم بجنادل
صواهلها . وتربيهم بأربية رداها . وتغريهم بما يغرون من المذون
عن مناهها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمور
من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرج بالفرنج
السطش . وأبست عثرتها تنتعش . ولانت تتشور
وتتشوش . وتتحرى وتتحرش . وتتوشح بالضراء والضراب
وتتوحش . وتنشط على أنها تبطش . فتجد الطررق
مصدودة . والسبل مسدودة . والمسالك محدودة والمهاالك
مورودة . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فرمى

بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش . فتأجج استعارها . وتوهج أوارها . قبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بالثلاثة الأقسام : في الاصطلاء والاصطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصوا من ورطة الاحتواء والاجترام . وضايقت ذمائم دماء الضراغم . وعارضت صدقور بأستهم القشاعم . ولقيت العظائم العظائم . ودارت بمساعير الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بها وأزعجوا . وهاجوا وأوهجوا . وماجوا ومـوجوا وأجـوا وأججوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسينا الرواسخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . وراه غيه انه متورط في غيائته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واهت اصلابها صلبانهم . فافكر القومص كيف ينجو ويتخلص . فقال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصلهم من الجملة . فاجتمع هو وموازروه . وجملة من المقدمين هم مضافروه . وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتوامروا على انهم يحملون ويلغون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بذفوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفوا ان القومص اخذ بالعزيمة وذفذ في الهزيمة . وهذوا وهانوا ثم اشتدوا وما لانوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرنمة هم شرنمة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واستقبلوا واستقتلوا . واستلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجا . ولا اصابوا لمن جاء لمصابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماع الحرب . وخاضوا فيها غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغدر . بل طاعة القدر . واستعزنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء . وصيبنا ماء الحديد

للإطفاء . فزاد في الإنكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار
عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في
الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فحطوا خيامهم على
غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام
بضرب الهام . وازلنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا
ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست
انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلاً الكلا . واكتست
عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق
المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . فالهب عليهم
يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيض . ومنايع الكفر
تفيض . وملاحم الاسلام تغيط . والذفوس تقع . والرؤوس تطير .
والقضب تدير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك
تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجوو . ومراجل الراجل والفارس
تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست
شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورسست منا
الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى
بطون الذمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك
الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب
والذئب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك .
وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغابت غلبه .
وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كمامته
وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملاهم جهنم . ومالك عليهم الصليب
الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب سليباً .
ورقيب الردى قريباً . ايقنوا بالهلاك . واتخذوا بالضرب الدراك .
فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون والوثوب يخفون .
وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون .
ويردون وهم لا يدرون . ويعقلون وهم لا يعقلون . وقرم بقوى
القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاغناق وتارة يغلقها . واونه بالبري يعررها . ومرة بالسبي
يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهم
وابرذسهم . فتم اسر الملك . وابرذس الكرك . واخي الملك جفري .
واوك صاحب جبيل، وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة
وصاحب مرقية ، واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن
الاستبارية ومعظمها . ومن البارونية من اخطا به البال لما عز
الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقيرهم الكاس . وقوي بنا
الرجاء ومنهم اليأس . وعروا من ملابس العز . وضفا عليهم من
ملابس الصغار اللباس . وتعرضت للسوء في السوا في طاول
حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد
بهم حكم القضاء لم يجدهم الاحتراز والاحتراس . ورسفت
وارسفت الانفس والانفاس . وانعقد الاجماع بتحليل تركيب
جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسلام بكسرهم .
وقتلوا واسروا باسرههم . فمن شاهد القتل قال : ما هناك اسير .
ومن عاين الاسرى قال : ما هناك قتيل . ومذاستولى الفرنج
بساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل . قاله عز وجل
سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهواه من التوفيق
لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسالوك . ونظم له في حتوف
اعدائه والفتوح لوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر
الاير . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا
اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو
والسوم . غير ان هذه الذوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة .
ولعاقده النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الواقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم ما
دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى
قدمه كأنه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمى اليه غير مفيد . لكن
فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يخن من خيلهم ودوابهم - وكانت
الوفا - ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه
كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولا مورد الروح سائبة

ولالنار الروح شابة . وغذمتنا ما لا يحصى من بيض مكذون وزغف
موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الافتح
كل اقليم مصون . وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون .
واستخرج من كنز مدفون . و حاصلة . و ... (٦) تحقق اهله .
ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من
عدة ورجال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجاءنا هذا
الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال :
لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفروا بجناح غادروه
محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من
العمارة ليتوصلوا الخارجيين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال
التي احضرتها . وقد حرمت على المفسدين الحركة وحظرتها .
فتاملتها واذا جمالي بأعيانها . فشكرت همته الكريمة على
احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التي
حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تزل الثغور بسداده مسدودة
والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممدودة . والرعايا
بسياسته محروسة . والبلاد بحراسته مسدوسة . ورايات الكفر
بذكايته منكوسة . وايات الدين بهدايته مانوسة . والمواضع
معمورة . والمنافع موفورة . والصنائع مشكورة . والشرائع
مشهورة .

وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم وعرفتهم وعرقتهم تنكرت
معرفتهم . وتكررت صفوتهم بعد الايام السلطانية . وانقلب
سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صادقوني لصدق الحاجة .
وصادفوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائضا لاستخراج
جواهر مقاصدهم لجج الحاجة . فلما استغذوا عني جهلوا معرفتي
وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخلاء الدنيا في بين الاخلال . وملة
الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فمما
ابعدوا غريبا وما ابعدوا قريبا . ولا اعجبوا بابيا . ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

للعماد الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن
الارشاد ما يكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم .
ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانه إلينا بأنهما حادث
وقديم . ونستزيده ونستلهمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا
مستزيد ومستلهم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذي
بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم) (فصلت : ٣٤) . والحمد
لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله
الموقور . وقبل منا عفو خاطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق
الطاقة . ولا يطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه .
وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . قرب غافل منا عن
الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدونا ينتاب منتابه راجيا
وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل
حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضامير
ذكرنا . وباتت سارية إلينا لطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن
الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا . ومتجرعنا
ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمما . وتارة يحيط به قولا
مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات
ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات
مسموعة . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه
مسارحه . وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن
يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإننا لانرضى بعفو
استحقاقه من الوصف جهدا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه
ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره
على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به .
فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترا به .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولا صدق المراد . وأين من أخبر
عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمن كان في
روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح .
ونصلي على آله وأصحابه ولالة الحق . وقضاة الخلق . ورتقة
الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفرق . وفتحة الغرب والشرق .
منهم من ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل
العجم عن أسرتها وتيجانها عن هامها . وأخمد عبدة نيرانه أن
يطعموها حطباً ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن
يقعوا لها سجداً ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أذفق في سبيل
الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على
الكفار . ومنهم الأشداء إذا زاغت الابصار . ومنهم الساجدون
الراكعون . ومنهم السابِقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل
الزمن الآخر . وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر .
وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلاقنا . فنحن الآن إنما نرد عليه
تحيته والباديء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بالودعة التي قدمها
والفضل للأقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الفرر
المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية .
يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر
أن يسمع واللايب أن يقول . فإن فيه من الالفاظ ما صار معدنا من
معادن الجواهر التي نولها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا
من ألسنة العجائب التي نوردها . وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال
سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون
مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقب من
الدول الأخرى . فلا أمة من الأمم ذوات الملل . وذوات الدول . إلا
ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . ينقله خلفها عن سلفها
وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصب به معالم
الأعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام
الأخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس أنهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الأصلاب طويلة السرى . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد
الذي تقادم . لآدم . وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم .
ذرياتهم . لما أرادهم من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره .
وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر . وتقبل في
واحدة من الأطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار
دهرا بعد دهر . وثوى وأنشر في الف قبر . وإنما كان من الظهور في
ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت
مساعي أهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المدام
هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها . وجهل
ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها .
فأرخ بذو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع
مقام سومه . ثم أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها .
ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ
لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ، ومعني هذا الاسم ملك
الطين . فإليه ترجع الفرس بأندسابها . وعليه ينسق عقد حسابها .
وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزى الاسلام تاج
إيوانه . واطفا نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي
الاسكندر والى قلوب طره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم
الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره .
وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي
خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم
وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل
أوائلهم وأبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ
كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقليل .
وكانت غسان تؤرخ بعام الاسد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت
العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ،
وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق وأخرجهم عن الحرم ، ثم أرخوا
بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار
فنقلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

- ٥٨١٧ -

وهي حرب البسوس ، ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابني بغيض
وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين سنة . ثم
أرخوا بعام الخناب قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتیان في عام الخناب

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخالق و عام
الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربع حروب ذكرها
المؤرخون . وأسندها الراون ، وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام
بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين
وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ
الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام .
وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ
متقدم . فأمن وقوع الخلاف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلها جب الأنوار للظلم . ودفع الله الناس
بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهياتة يوم خلق الله السموات
والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس
ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي
أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي ما ولدت الليالي مثله من
بنيتها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام
الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمدها
بالقيامة معذوق . وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع
والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت
المقدس وقائمتها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب
وعلى عامها يحسن أن يبني التاريخ وينسق . وتسفر عن أهلتها
دادىء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاسلام إلى القدس

ثانية . فقد كان انثني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نثر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن نثر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد . والوحي ما كان يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسلسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها . ورسول عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردمة . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفرس يومئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تذوعت أشكاله الرائعة . ولا طبع سيوفه هذه القاطعة . ولا نسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لا تعرف إلا مشيدة لا مجلدة . والمنجنيقات لا يتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لا تتراجع بالنيران المذكاه . والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة عزلا . وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء . وكان شوقهم إلى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستثنى أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهي للملك المعتز . وكثرت معاذره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجديان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب . ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست ورائت الفتى على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع
هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه .
والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في
الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية
الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية
الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا
ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما
كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكاليفات فلا
ينزع الحديد لوضوء ولا مسح . واستشعروا لبوس البوس فلم
يلبسوا وجها إلا مزور الشفاه على القطوب بلا بشر ولا مزج .
شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالدون . زرقا كأنما
عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من
قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم .
واشتعلت نار جهلهم في فحم نذوبهم . تستعيز المرءة من مردتهم .
ويدعى النار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ .
جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لا يفقهون بها
ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام
بل هم أضل أولئك هم الفافلون) (الأعراف : ١٧٩) . خلق الله
الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين
قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والافالحجارة
لا تستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجمود في
الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم
تخلع الاظلام . وزابت أيامهم الأيام خبالا فتنازع الناس طرائف
الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين
كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما
نسميهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨)
(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل
ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام
تمخض وتمطل بالزبدة . والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عدة . والعذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفى بلفظة الذبوة لوما صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها . وأظهر الآية التي لا اخت لها فذقول هي أكبر من اختها . أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها . وجاءت بواحدتها الذي تضاف إليه الأعداد . ومالكها الذي له السماء خيمة والحبك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد . والشمس بينار . والقطر دراهم . والأفلاك خدم . والنجوم أولاد . صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهو سبحانه أكرم بالذوال . منا بالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا أحسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) (الكهف : ٣٠) وأن قلنا جزاء الله بالاحسان فقد قال : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وإن قلنا هداه الله سبيله فقد قال : (والذين جااهدوا فينا لنهـيـنهم سـبـلنا) (العنكبوت : ٦٩) وأن قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أني لا اضيع عمل عامل) (آل عمران : ١٩٥) وإن قلنا لا جعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قال : (ما على المحسنين من سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل

في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل

سبق الجود ما سأل

وليصح تأملا

يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجاد إلى أن لم يبق مال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قل . فلا كفتح على يديه فتح وما هو فتح واحد ما هو إلا فتحة فتح والدم ذائب وفتح والذهب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جيذا وزاد لأنه ضرب بالسيف التي كسرها ثم ضربها . واستوعب جوده ما ولدت المعادن ذهباً وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع تم نهبها فوهبها . فكل معاد معادي إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسود إلا هذا المداد . (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجود من قبل المدايح .

الناس أكيس من أن يمدحوا ملكا .
ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لندرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين أمذوا أن يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لانا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بانه فروقه . ولنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقول للقلم إذا فاخره السيف (إن شائئك هو الأبتى) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الأدب لذكره أعلاه الله فيذكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولست ببعيد في تقييد هذه المفاخر . وتشبيد هذه الآثار . من رجال الطعن والضرب الذين

فتحدوا بين يديه . وواجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه
وأوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم أخطى
وأخطب . ومن سهامهم انجي وأنجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب .
ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من نفعهم أغلى وأغلب .
وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت
منه مالا يغمد ولا يعمد . وأثار السيف من الجراح قد رقا دمها
وأثاري من الذكر لا تخمل ولا تخدم .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته ويذقطع صيت الأثر
بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهر وإذا أقلت
الأيام سحباً . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً .
فهو قول يذكر ويذسى كل فعل وفاعله . لا قول يؤثر مهما عاش اليوم
عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية .
وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى
أيوان كسرى وسينية البحتري في وصفه تجدوا الأيوان قد خرت
شعقاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم
كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح
بين الأوصاف الغاية . وتناوب بين السمات السامية . للإشارة إلى
من يذبه على مسماه . ويذوه بسيماه . فأما من يقول الله لا سمه أنت
من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما
يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضله وصفه
الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام
سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس
أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام
المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن
الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر
بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي
الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر
ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله
أبي جعفر هرون بن الامام المهدي بالله أبي عبد الله محمد بن الامام
المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي
الأيام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاريها للقضاء مضاه . فما
أجلها فضلا وأفضلها جلالا . وأقبلها جدا وأجدها قبالا وأقربها
ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى
جني رفدها . وأفهم ريا رياض فضائلها . وأفهم حيا حياض
قواضلها . واسح سماء سماحها أمطارا . وأصح جناح نجاحها
مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب
ناصر دعوته . وداعي نصرته . وولي الطائع . وسيفه القاطع
والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . قرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر
على الآباد بغرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد
معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ
والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبها على
جلالة قدره . وتنويعها بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل
الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال
لي سمي (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه
بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو
القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث
وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وأنشأت رياضي بسحبها . وما
شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي
عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على
أس ما تبينته فبينته، وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا
ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط .
وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة؛ وكتب الملك الناصر صلاح
الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد .
واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت
مستهل المحرم قبل استنجد الجنود . واستدشاد الحشود .
واصغار الأسود . واحضار البيض والسود . مضي العزم ماضي
العزم . صائب السهم ثائب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود .
وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج
اليد القصرى . وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج . وقد رتب
الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج . لاسيما ابرنس
الكرك . فانه كان حريصا على الدرك . ناصبا شر الشرك نصب
الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار
خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقد قضوا
حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخرجوا عن فرضهم . ودخلوا إلى
أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتظر
السلطان وصول العسكر المصري المستدعى . ورعى منه حصول
العدد المسترعى . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده .
فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليا . ولم يزل مكانه عنده
عليا . أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء . وتجتمع العساكر
الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى
الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحرب . ويحرق .
ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجد بالمعدوم . وأتي
بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع .
واستأصل الأصول والفروع . حتي أقوت من الأقوات . واستعرت
الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت أجال الأرزاق . وانحلت عرا
الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وسار إلي
الشوبك فأسار به شوبا . وألحقه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع
ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع .
وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال . وداس الغلال . وقشر
الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون
مسكونها . وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها . فقد عدم ليلها
المصباح . وصباحها الاصباح . ووصل عسكر مصر فتلقاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعمرم العرم . والهام الملتهم . والجيش الجأش . والترك والأكادش . والجذود والبذود . والاسود السود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الأمر استمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهاز الفرصة واحرز الحصه . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالفارة على الفرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهام الهام . والاسد الاسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق قايمان النجمي ، وعلى عسكر حلب دلدريم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصباحوا صفورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . ولداوى دوي وللاسبتاري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايمان النجمي في صدورهم . وأشرع الأسنة الى نحورهم . وروى الهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكثرث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدريم بالوجه الأبيض . والعزم الأنهض . والجذ

الأجد . والحد الأحد . وانجلي الفبار . وقد عم الفرنج القتل
والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله
حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلك محاص . واخلفت
رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه الذوبة بلا ذبوة . والهبة بلا
هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت الذفوس إلى هذه
البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك
من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة
بالنصر . وأحسنت الألسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم
يفدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من الزكاية في العدو
يجدون ويجيدون . وجاعتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال
بالنجاح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل
السير بالسرى وخيم بعشتر . ففصت بسيول البخيول الوهاد
والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما
رأيت عسكرياً أبرك منه ولا أكبر . ولا أكثر للكفر ولا أكثر . وكان
يوم عرضه مذكراً بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (وله جنود
السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور
الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم
كالليل عجا . وليل كالיום ابتلاجا . ومناصل بالمني صلت .
وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في
صدور الاغماد تعلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار
المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب
راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض .
وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث .
وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم .
وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب
لأحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن
حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلول . وأن جندهم
مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز
إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حينئذ خلف مذبح . وحلف منتكث .
ووقع نفار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استدنوا

حين حينهم . سـعـوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأذنة . فاصطحبها بعدما اصطالحا . وأصحابا بعد ما جمحا . وتزاور الفرنج وتوازروا . وتأمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا بين متى لنا منه الوها هوى . وعود إذا عاد الأذى نوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمـدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لوائنا اللاواء . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وبيارقنا البوائق . وسيف الاستبار بثار . ولقرن الباروني من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاهد والمعازل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسلموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القـطائع ويقاطعوننا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجريا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسرهم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغة والمفاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالقه ونقبل شرائطه . فقال له الملك : أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت للخور رخو . وللخشية حشو . وأنا لا بد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأرادده حتي أرده . وأقيم صليب الصلבות فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالدشد والشدش والطي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فاك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما. وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفذوا في ضرمة • وتسمنوا بورمه • وصحوا بسقمه وورقوا في سلامه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • وأقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجنا (١) ملكهم هذا ولا يكرثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حماه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطريرك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفيه مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لا يستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جذسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من رأسها فوضعتة على رأسه • وعاش رجاءه بعد رأسه • ورأى غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليس بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

مرتضى • واكل نام منتمى • واكل سام مسمى • واكل اسـم
مسمى • وعين اكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه •
ولا يغيب جمعه ولا يبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكمامة
من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا
بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة موارينا ومصادرنا •
ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع
اعنتنا • وميايين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا •
ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالي مجالنا • وقوى
الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح
المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد
واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر
الخزائن • ونثر الكنائن • وانفق النخائر • واستنفذ كرائمها
والاخاير وقسم احمال الذشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء
الجعب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد
الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب •
وقوى القـواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا
محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت •
وقتب وكتب وثبت وذب • قد بر عمله وابرامله • وفاح ذشره •
ولاح بشره • وتآرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر
باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية للتأمين • وتيمن باوضح
عرايه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء بين الدين • واذن
ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه
السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح
للاسراء • وأجم العرب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مساييره •
والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد
مكائره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره •
والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيئة التي
قدمنا ذكرها من المقانب المقتبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

مرتضى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه • ولا يغيب جمعه ولا يبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماسة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جريدنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالي مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثر الكنائن • وانفق النخائر • واستنفذ كرائمها والاخير وقسم احوال الذئاب • ففترق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القى واطم • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امه • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية للتأمين • وتيمن باوضح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء بين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراح للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مساييره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكائره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيئة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهدية • والسلاهب المجنبية • والصوائب
المجعية • والقواضب المقرية • والثعالب المذبذبة • واللهازم
الهزيمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على
خسفين • وقد اننى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر
وكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة •
والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة •
والقلوب بالاخلاص عامرة • والانفس للانس مسامرة • والاقدام
بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبحت سائرا ونزل على الاربن بثغر الاقحوانة • بعزم
الصيال وعز الصيانة • واحاط ببخيرة طبرية بحره المحيط •
وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب
اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن
المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجها على امواج •
وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج •
واعاد الاقحوانة رياضاً نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد
وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات
كأشجار البساتين • ورايات صفراء تخفق بعذابات الياسمين •
والوية حمراء كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران •
ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج
كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقدوان • وجبب ترائك على بحور
الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين •
والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود
الضوامر الزواجر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام
التائر سروج السرجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات
اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا
بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاباش • ورتبوا الجيش •
وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل •
ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب
الصلابوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نوادي اقاليم اهل الاقانيم • وصلبوا
الصليب الاعظم بالتعظيم ، وما عصاهم من له عصا • وخرجوا عن
العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين
الفا ويزيدون • ويكيدون ما يكيدون • قد توافوا على صعيد •
ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لا يرومون حركة
ولا يريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم
ويشرف عليهم • ويراميه • ويذكي فيهم • ويتعرض لهم
ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله •
فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم
القتل في مضاجعهم • وعانوا مقام صارعهم • في سوقهم الى
مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبذوا عما له تشجعوا •
فراى السلطان ان يطيب ربه • من طبرية ويشرف على خطتها
بالخطية والمشرقية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجر على
الاردن اردان الربينيات • واطلع الذق المثار من البحر بحوافر
الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات •
فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابرهم • ان يقيموا قبالة الفرنج •
ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى
الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب • وثبوا
بهم واثوب الاسود بالارانب • وان قصدوا طبرية لصدونها وان يكونوا
في عونها • عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام •

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خواصه ، وذوي اسـتـخلاصه . واحضر
الجندارية والنقابين . والخراسانية . والحجاريين . واطـاف
بسورها • وشرع في هدم معمرورها . وصدقها القتال . وما صدف
عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ
النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه . وتساقوا فيه وتسالموه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العدو معتكر .
وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيتها . ولما
سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد
جلده . وسمح للفرننج بسببه ولبده . وقال لهم لا تعود بعد اليوم .
ولا بد لنا من وقم القوم . واذا اخذت طبرية اخذت البلاد . وذهبت
الطراف والتلاد . وما بقي لي من صبر . وما بعد هذا الكسر لي جبر
وكان الملاك قد حالفه . فما خالفه . ووافق . فما نافقه . وما حاضه فما
ماذقه ووادده فما رادده . وواعدده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره
وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحيه . واتباع غيه .
واشياع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبرته .
ووصل الخبر بان الفرننج ركبوا . وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا .
وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشبوا النار . ولبوا الثأر .
وقدموا للنزل بالدار البدار . وذلك يوم الجمعة رابع عشري ربيع
الاخر . فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه .
وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل
المخطوب . وجاءنا مانريد . ولنا بحمد الله الجد الجديد . والحد
الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صحت كسرتهم .
وقذلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع .
ولا عن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم
الجمعة رابع عشري شهر ربيع الاخر والفرننج سائرون الى طبرية
بقضهم وقضيضهم . وكانهم على الدفاع في حضيضهم . وقد حاجت
خضارهم . وهاجت خراغمهم . وطارت قشاعهم . وثارت غماغمهم
وسدت الافاق غمائهم . وشاقت ضاربها جماجمهم . وهم كالجبال
السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزحمة .
وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطامة . وقد جوى الجو . وضوى
الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء مذقض . والثرى قد
استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحوافز
للارض حوافر . والفوارس اللوابس في البيض سوافر . وذئاب
النياذ واجلاد الجلاد قد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فرتب
السلطان في مقابلتهم اطر اطلابه . وقصر على مقاتلتهم ارايه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع ذمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . واللقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام للكفر مقابلا . والتوحيد للتثليث مقائلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . ونفر الظهر غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضواعم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار . وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنق القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلال . وبرزت البيض من ملائها في الملا عارية . ورتعت السمر لكلها من الكلى راعية . فرجا القرنج فرجا . وطلب طلبهم المخرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام واشدوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصممتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا . وناشبههم الذشاب فعادت اسودهم تنفذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الطبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقشرتهم البالايا . ورشقتهم الرزايا . وصاروا للردى درايا . وللقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطليه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق . واقلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ربة مردودة . وغاب حالة حضور الوعي . ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وماونى . ثم استجرت الحرب . واشتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حوالىهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وقلت حدود الرماة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشفلوا عن اصل الحياة وفرعها . وترجوا خيرا فتـرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها . واسر الشيطان وجنوده . وملاك الملاك وكنوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صاحب جبيل وهذفري . والابرذس ارناط صاحب الكرك . وهو اول من وقع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لاعجلن عند وجدانه عدمه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملاك بجذبه . وقرعه على غدره وذكره بنذبه وقال له:كم تحالف وتحذث . وتعهد وتنكث . وتبرم الميثاق وتنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال الترجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وما سلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من سكرة الرعب منتشيا . فأأنسه السلطان وحاوره . وفتأ سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثة وأزاح من العطش ماكرثه . وناوله الابرذس ليخدم ايضا لهبه . فأخذه من يده وشربه . فقال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أننا . فلا يوجب ذاك له مني أمنا . ثم ركب وخلاهما . وبنار الوهل اصلاهما . ولم ينزل الى ضرب سرادقه . وركزت أعلامه وبيارقه . وعادت عن الحومة الى الحمى فيالقه . فلما دخل سرادقه . استحضر الابرذس فقام اليه وتلاقاه بالسيف فحل عاتقه . وحين صرع . امر برأسه فقطع وجـر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه
وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته .
وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه ونبازند حياته ووردها
عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم
السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودا
فعادوا من النقد . فما اقلت من تلك الالاف الاحاد . وما نجا من
اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلا الملا بالاسرى والقتلى . وانجلى
الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة
القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت
حطين تلك الجيف عن متنها . وطاب نشر النصر بنتنها . وعبرت
بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه . بالعراء عراة . ممزقة
بالمازق . مفصلة المفاصل . مفرقة المرافق . مفلقة المفارق .
محذوفة الرقاب . مقصوفة الاصلاب . مقطعة الهام . موزعة
الاقدام . مجدوعة الأناف . منزوعة الاطراف . معضاة الأعضاء .
مجزاة الاجزاء . مفقوعة العيون مبعوجة البطون . مخصوبة
الضفائر . معضوبة المرائر ، مبرية البنان . مفرية اللبان مقصومة
الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة
النحور . منصفة الاجساد . مقصفة الأعضاء . مقلصة الشفاه .
مخلصة الجباه . قانية الذوائب . دامية الترائب . مشكوكة الاضلع
مفكوكة الاذرع . مكسورة العظام . محسورة اللثام . بسائدة
الوجوه . باية المكروه . مبشورة الابشار . معشورة الاعشار .
منشورة الشعور . مقشورة الظهور . مهدومة البنيان . مهتومة
الاسنان . مهركة الدماء . مرهقة الذماء . هاروية الذرى . واهية
العرى . سائلة الاحداق . مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة
الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبسات . عديمة الارواح .
هشيمة الاشباح . كالحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار .
وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء . وعادت الغيرة حمراء . وجرت
انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر .
فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث . وما الهب عذابات العذاب
في تلك الجثث . وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث . وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذا وحساب من قتل فقد
حصرت السنة الأمم عن حصره وعده • وأما من أسر فلم تكف
اطناب الخيم لقيده وشده • ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين
يقودهم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس •
وهناك العتاة عناة • والعداة عراة • وذو الاسرة أسرى • وأولو
الآثره عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي
الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس • والرؤوس تحت
الاخامص • ومطالع الاجسام زوات المقاطع والمخالص • فكم اصيد
صيد • وقائد وقيد • ومشرك مكشر • وكافر مفكر • ومثلث
منصف • ومكيف مكثف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • ومالك
مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب
في الكبول • ومقتال في الغلول • وحر في الرق • ومبطل في يد الحق •

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صليب الصابوت • واهلك دونه اهل
الطاغوت • وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع • سجد له كل نصراني
وركع • وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها
معبودهم ومسجودهم • وقد غافوه بالذهب الاحمر • وكالوه بالدر
والجواهر • واعدوه ليوم الروح المشهود • ولموسم عيدهم الموعود •
فاذا اخرجته القسوس • وحملته الرؤوس • تبادروا اليه • وانثالوا
عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في
نفسه التصرف • واخذ اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب
لهم في ذلك المعترك • فان الصليب السليب ماله عوض • ولا لهم في
سواه غرض والتأله له عليهم مفترض • فهو إلههم • وتعفر له
جباههم • وتسبح له افواههم • يتغاشون عند احضاره • يتعاشون
لابصاره • ويتلاشون لآظهاره • ويتفاضون اذا شاهده •
ويتواجدون اذا وجدوه • ويبذلون دونه المهج • ويطلبون به الفرج بل
صاغوا على مثاله صلابنا يعبدونها • ويخشعون لها في بيوتهم

ويشهدونها . فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم . ووهت
اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما .
فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم
العصيب . فهاكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان
على صحراء طبرية كالأسد المصحر . والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

ونذب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا .
وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . ونقلت اليه كل ما ملكته
وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بذسائها ورجالها
ورجالها . وسارت الي طرابلس بلد زوجها القومص بمالها
وحالها . وغادرت طبرية أهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها
صارم الدين قايمان النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا والملك
الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتيارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الآخر بعد الفتح
بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتيارية ، وقال : أنا أظهر
الأرض من الجندسين النجسين . وجهل لكل من يحضر منهما اسيرا
خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وأمر بضرب اعناقهم .
واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم
والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل
واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجه
باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى ويرى وشكر . ومنهم من ابى ونبا وعذر .
ومنهم من يضحك منه . ويندوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحك
القتال . ورأيت منه القول الفعال . فكلم وعد انجزه . وحمد احرزه .
واجر استدامه بدم اجراه . وبر اعنق اليه بعنق براه . ونصل
خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه
لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للواء طواها . وكفر أماته لاسلام أحياء . وشرك
هدمه لتوحيد بناء . وعزما مضاه . لأمة ارضاه . وعدو قصمه .
لولي عصمة . وسير ملك الفرنج وأخاه وهذفري وصاحب جبيل
ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا
السجون . وتستبدل حركاتهم السكون . وتفرقت العساكر بما حوته
أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا .

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مديلا
الطيب . مزيلا الخبث . وسار عسكريه . وثار عشيره . وظهرت
راياته . وبهرت آياته . ونعرت كوساته . وصاحت بوقاته . وجالت
خيوله . وسالت سيوله . وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصاته
وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه . وحفرت متوافر الصلاد م
أصلاب الصلاد الصلاب . وفصحت باعراب الحماحم صواهل
الجياد العرب . والاسنة مشرعة . والأعنة مسرعة . وبحور السوابح
متموجة وغدران السوابغ مترجرجة . وبوارق البيارق متبرجة .
وأوضح الجرد وغررها كأوضح النصر وغرره متبلجة . ونزل عشية
بأرض لوبية لداعي الفتح ملييا . ولجيش النصر معبيا . ولولود
الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا . وبات بها معرسا بانيا
على عروس الظفر البكر . جانبا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر • وأصبح وقد أصبح جماح الدهر • وصح نجاح الأمر •
وحص جناح الكفر • وأسفر فجر الفرج • وسفر وجه البهج • وسار
سارا سره بارا بأرباب الدين بره • زائرة أسوده • طائرة بذوده •
ظاهرة جذوده زاهرة جدوده • سامية أضواؤه • هامية أنواؤه • رائعة
مواكبه • رائقة مراكبه • مجنبة عتاقه • فكأن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثري به • وهذا الأمير عز
الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان
عود الحاج • وهو ذو شيبة تقد كالسراج • وما برح مع الملك الناصر •
مأثور المأثر • ميمون الصحبة • مأمون المحبة • مبارك الطلعة •
مشارك في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره • ولا أشرق
مطلع من النصر الا بذوره • فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسائرا •
ورأيت السلطان له مشاورا محاورا • وأنا أسير معهما • وقد بذوت
منهما ليسمعاني وأسمعهما • ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج
المركوزة عليها السنة من الخوف تتشكى • وكأن عذبات النيران
تصاعدت لعذاب أهلها • وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من
وعرها وسهلها • فلما قرب منها خيم وراء تلها • وأننت عروش
معاشر الشرك بثلها • وعقود معاقدي الكفر بجلها • وأصبح يوم
الخميس وركب في خميسه • ووقف كالأسد في عريسه • فخرج أهل
البلد يطلبون الامان • ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام
والانتقال • وهب لهم عصمة الانفس والاموال • وكان في ظنهم أنه
يستبيح دماءهم • ويسبي ذريتهم ونسائهم • وأمهلهم أياما حتى
ينتقل من يختار النقلة • واغتنموا تلك المهلة • وفتح الباب
للخاصة • واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة •
فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج • والفرج المخرج • كيف
يتركون دورهم بما فيها ويسلمون • وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم
انهم يغنمون • فترك معظمهم المدينة • وعندهم انه ما كسب السكينة •
الا من ركب السفينة • وذلك ان الجند لما دخلوها • استولوا على
الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار • وقال صاحبها كيف
يصح المقام مع الأسد في غابه ولا مقام على زار • وكان السلطان
جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالدأوية من منازل وضياع •

ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتاع . ووهب عكا
لولده الملك الأفضل • فأجراها من نظره على الأحسن الاجمل •
ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعة •
ووصلنا فريضتها المنقطعة • وأعدنا الكنيسة العظمى مسجدا
جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القاضي
الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام
بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبد اللطيف
ابن الشيخ أبي النجيب السهروردي ، فإنه تولى بها القضاء
والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة السادة تلك
الغابة ، وخلق سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومنخورهم وتركوها
لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها مانبذها ، وافتقر من الفرنج
أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخرت تلك الحواصل
وحصلت تلك الذخائر ، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع
الوافر ، وكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في
خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لاستحليها
ومستحليها الأمتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل
مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ، ولما لكتها
متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر
وهو بمصر ، بما أتاه الله من النصر ، وقبضه له من افتضااض
الفتح المبكر ، فوصلت البشرى بوصوله باشرا ، ولإواء الحمد
ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مباشرا ، وأنه فتح
حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتمها غزوة ، وتسلمها
حظوة ، فقصد من عساكرنا القصاد ، ووفد اليه من عندنا
الوفاد ، فحباهم بالحباء من السبايا ، وأتاهم المرباع
والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالنقود ، ووعدهم مما سيحصل
بالنسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويستضيف حسنى
وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويستزيل من الكفر
يدا ، ويستميل الى الهدى هدى ، والدين بسيف سيفه
منصور ، والاسلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العادل ممالك
بعدله ، سالك نهج النجاح بفضله ، فائز العزيمة حائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتيبة ، ميمون النقيبة مأمول
الرجبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغذمه ظاهرا بكرمه ، شاكرا
عرام عرمرمه ، ملها ضرام مخذمه ، مرويا أوار لهذمه ، وأمر
أمرائه بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة
المغاورة .

فتح الناصرة وصدفورية

فسار مظفر الدين كوكبـوري الى الناصرة فاستباح
حماها ، واستبي دماها ، وحلها واستحلها ، وأزالها
وأزلها ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشفها ، وشافها
بشفار البواتر ، فشفه منها مـوارد النخائر ، واجتلى
عرائسها ، واجتني مفارسها ، وجمع نفادسها ونزع
ملابسها ، واستدر طبيها ، واسترد سبيها ، واستقل منها بما
استقل به من كل غانية عانية ° ورقيقة رقيقة ° ومصابة
مصيبة ، ومسببة مصيبة ، ومجلوة مجلوبة ، وسالبة
مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، واسيرة
من أسره ، وحاسرة عن حسره ، وثاكلة لواحدها ، وأكلة
لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خديها °
وناهدة متنهدة ، وفريضة متفردة ، وناعمة شقية ، وقينة
ذقية ، وعذراء مفترعة ، وحسناء منتزعة ، ومخطفة ، وقوية
مستضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصحيحة عليلة ، وساجية
عبرى ، وصاحبة سـكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

ظمياء ، وغضيضة غضة ، وفضة منفضة ، وخمارة
مخمورة ، وسحارة مسحورة ، ومخدرة مهتوكة ، ومـوقرة
منهوكة ، وجاءوا بالأسارى بين يديه مقرنين في الأصفار ، مقويين
في الأقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الأعناق والسوق
وصدفت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من
النخائر مبلغ وافر .

فتح قيسارية

وتوجه بدر الدين دلدزم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء
الى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس بها
حـاكـمـي الحـتـف والحيف ، وسـبـبـوا ، وحـبـبـوا
وسلبوا ، وجلبوا ° وجالوا ، ونالوا ووقدوا ، وأخذوا ، واحتوا
وارتوا ، وربطوا ، وضبطوا واستفادوا ، وفـرسوا
الفـوارس ، وكـنـسـوا الكنائس ، واسـتـبـوا الأبركار
العرائس ، والعون العوانس ، وتسـلـمت بعدها حيفا
وأرسوف ، واستولى على تلك الشـمـوس والأقمار الكسوف
والخسوف ..

فتح نابلس

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس
حاسما بحسامه داء الشرك ، مالنًا بسهام الفتك جعاب
الترك . تاليا أي الفتح . جاليا رأي النجح ، ووصل الى سمسطية
فدسـلـمـها ، وتعجل مغـنـمـها . ووجد مشـهـد زكريا عليه السلام قد
اتخذ القسوس كنيسة ، واعادوها بالصور والآلات النفيسة
أميسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد

والآلات . وأعادهم مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا ، وأصبح الدين به مثرى والكفر مقترا ، ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف حده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم ان أقاموا لا يأمزون المذون ، فان المسلمين بها وبأعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أماكنهم ، وخلوا دورهم وأخلوها ، وتسألوا منها وسألوها ، وتحول الأقوياء الى قلعتها ، وتحصنوا بتلعتها . ونازلها حسام الدين وحاصرها . وطال عليه حصرها وصابرها ، ولم يزل عليها مقيما . ولقاتلها مديما ، الى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا بأحسانه . وسلموا وسلموا . واستأمنوا وأمنوا ، وخلصت له نابلس وأعمالها . وحليت به أحوالها . ولكون معظم أهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مسلمين ، فانمحي بالسعود رسم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس . وقام جاه الأذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعدد واشحنها . وهي للداوية حصن حصين . ومكان مكين وركن ركين . وفيها مشتاهم ومصيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم . ومجر نيولهم . ومجرى سيولهم . ومجمع اخوانهم . ومشروع شيطانهم . وموضع صلابانهم . ومورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صدقو مشرعهم . فلما كسروا واسروا . وخسروا وتحسروا . خلت طلول الفولة . بحدود

اهلها المفلولة . وماء داويتها المفلولة . ولم يجتمع شمل غموودها
بالسيوف المسلولة . ولم يبق بها الا رعايا رعا . وغلمان
واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حماية المكان . ووجدوا
امنهم في الاسـتـئمان . فسـالـموا الحصـن بمـا فيه الى
السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . ونفائس الأعلاق . فوثقوا
بما احكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين . وبخلوا في الزمام
لاجين . وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من
البلاد مثل دبورية وجنين وزرعين والطور واللجون . وبيسان
والقيمون . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . والزيب ومعليا
والبعنة واسكندورنة ومنذوات .

فتح تبنين

ولما خلاصت تلك الممالك والأعمال ، وقلصت من الضلال تلك
الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابن
أخيه الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه تقي الدين بقصد حصن
تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين ، فالقى عليه جرار
بأسه ، ولقي بالتذليل جرار ناسه ، وأخذ في مضايقته
بأنفاسه ، ولمح مالمع من قبس فتحه فشفعت باقتباسه ، وسنح له
قنصه فاشرب باقتناصه وافتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على
الوصول اليه بهسكركه ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره . فضرب
الكوس ، وسمت النفوس ، والنهوض في ظلام القتام من الترك
والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع
تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل النقا ، واشتبك على
الأساد غيل القنا ، وسالت الاوبية بالسابحات العتاق ، وطالت على
السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر
رقاب الرقاق ، وجرت الفجاج ، وتموجت الأفواج ، وتفوجت
الأمواج وتحركت غدران السوابغ ، من رياح السوابق ، وتدركت
ضوا من الضوا من الأرفاد في ارداف الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل
وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث
مراحل ، فرمينا أهل التذليث فيها بثلاثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه
الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالنوازل ، وبسطنا من
المجانيق عليها أيدي الغوائل ، فقتلوا من الرعب ، وتجلدوا على
الحرب ، ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا ، ورغبوا
ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحو ، وعجزوا
فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب. وندبوا فدانوا
ودنوا ، وأنغذوا إنغذوا ، واعتذروا مما جنوا ، ورأسوا
السلطان ، وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم
فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من
بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق
الاسارى المسلمين ، فخرج الأسورون مسرورين ، وأصبح الصبح
المكسورين مجبورين ، محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين ، وسر
بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم
وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم ، وهذا دأبه في كل
بلد يفتحه وماك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد
بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها
بعدما أجال عليها ضيق الأسر أجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر
أكثر من عشرين ألف اسير للقيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار
مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من
العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه
سنقر الدوي ، فأرشد به ذلك الصقع الغوي ، فان أعمال جبل
عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا
لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنييس النافر ، وتعييس
الكافر ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين
ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخذقها كل مايمكن من التوثيق
والتعميق ، ورحل ومعه رفيق التوفيق ، وكان النزول على تبنين
يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وتسلمها يوم الأحد الثامن
عشر منه .

فتح صيدا

يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجـد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لناشق أهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونصر النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، وأوجهنا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواطرة ، وجلت بياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للممالك من الملائك أمداد النصر المتواترة المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيدا الى منهل فتحها صابين ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صابين ، ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ماتوعر ، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة الى صرفند ، وأسمننا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروثة المناهل ، ذات بساتين ، وأزهار ورياحين ، وأشجار النارج والأترنج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج ، فجنسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتبهنا من فواكهها تلك القرية ، ولم نخرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، وانهبنا ظلماتها من العزائم القر بمصاييحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بنوارها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت أرابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدق منبرها ، وصدق
مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة
والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاني
عشري جمادي الاول وتسلمها يوم الخميس
التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيذاء وتبنين ، وجمع لهما التحصين
والتحصين ، قال لعصمة الله شبيدي مابصيدا وتبنين
تبنين ، والدفههما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولايطرق
ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سنانه ، ورحل على سمت
بيروت ، مائلا بعسكره الآكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك
الجحافل ، يجر على البحر مائج ، ومجر مجر الى الهياج
هائج ، ونقد من عقد الجد رائج ، وعزم على صدق القصد
عائج ، ووصل اليها ونزل عليها ، وبنيت القباب ، وطفأ على
خضم المعسكر من الخيم الحباب ، وزحف الى الأعداء
الأخباب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد ، وأحاط الرجال
بأرجائه ، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في
سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتلاطم عباب ذلك
الجمع الجم بأفواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجل نحوه
الباس ، واصططفت التراس ، واشتد المراس ، واحتد
القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خروج
الجروح للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، ومدت
الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد
النصر المواني المواتسي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخنذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل
الذفت ، واشتغل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق
الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأتي الوادي فطم على
القرى ، ودبت الدبابة يليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث
الذبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجـزت مـواعـد
الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالذوازل
نوازي الأهـوال ، ورعدت بـوارق البـوار ، واسـعدت
الأقدار ، بالأقدار ، وشغلت الرقاب، قواضي القواضب ، وحملت
الذواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت
سـتـائر السـور فـهت أشراك الأشرار ، ودام
القتال أياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا
واضطرابا ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت
بشهب الذفـاطات شياطين الداوية المردة ، وتعدت الأسود
العابية ، على أولئك القرية ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق
الذقاب بالسور فـنـقب وعلق ، وكاد الذقب يتسع ، والبرج
يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض وترفض ، وسوار
السور ينكسر ، وقناع الذقع لا يندسر ، وخرج من البلد رجال ، الى
الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولما شر أصحابنا
بمعاطاة كؤوس المذون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام
الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا
بالقواطع ، وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا
وتجالدوا وتواقحوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض
يقـد ، والبيض تقـد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل
الصادي يصد بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام
يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللد ، وضافهم
الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا
وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين
دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدوا سـكـينـتهم ، ليركبوا
سفـينـتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يسـتـدعي
الأمان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وناما

يحرّمهم ، وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا في عقد الأمن
ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ، ومضض
أجفاني ولعيون العواد ابرزني ، وانقطعت عن الحضور عند
السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الأمان ، فطلب السلطان كل
كاتب في ديواني ، وكل من يمسك قلمًا من أفاضل الملوك
وأعيانه ، فلم يرضه ما كتبوه ، ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك
الحالة من استملاء مني ومرضت انهان الأصحاء ولم يمرض
ذهني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان
الناس قد انسوا بما أسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ما ذكره
وأحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، ولقوا السقم في غيره
فأذفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله
توثيق ، فما فتح الا بمفتاحه ، ولارتق فتق الا باصلاحه ، ولاجلي
ظلام الا باصباحه ، ولاوري زند الا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمرة
الحر متوهجة ، ووقدة القیظ متأججة ، وضرم مرضي
ملتهب ، وروح روحي منتها ، وبقيت مضطربا ، واقيت من ذلك
الوصب نصبا * وحصلت من الإقامة أو السفر على الخطر أو
الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن الآء شغلي بالآلام
وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصبي ، وعزت علي
مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت
على مضض وانصرفت بمضرة ومرض ، وحملت الى دمشق في
محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد
الثقل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبذل الكدر بالصفاء ، وعدت
الى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الودشة الى
الأذس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من
جمادى الاولى مطاع الأمر ، مذاع السر في تضوع الذشر * وتوضح
البشر ، مستفيض الزیانة ، ناجح الارادة ، راجح العبابة ، رابح
المتجر ، واضح المفخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العدى
واستجدى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد
ملكا ، واستزاد ملكا ، وبرر بيروت ان برت ، وحفلت له اخلاف

الفتوحات قدرت • واستمرى صوب من عزائمه وصرائمه
فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الاولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه
دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل أسر اليه
في أسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل
سلامت وسلمت . وابحتها لكم وتحرمت . واخرجتها من عصمتي
وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وأزِيلها من وثاقي
اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيد . واحضاره في
قيده . فأحضر في صفه وسامع ببلده . فخلص ناجيا وملص
راجيا . وملك مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن
يومئذ على بيروت حاضرون حاضرون . ولاعداء الله مصابرون
مكابرون . وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل
مسلمين . مساكن لمساكن الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد
الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصبحت
المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت
الآيات . وجلت الغيايات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس
وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط
الشيطان . ونطقت الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست
الذواقيس . وبطلت الذواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا
نفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . واندفشوا من شوكة
عارهم . وقروا في بيارهم . وقروا ابصاراً بأنصارهم . وكان كل
من استأمن من الكفار . يمضي الى صدور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجبا
شريدهم . ومأمن خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر
القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم كسرتهم .

ذكر هلاك القومص وبخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها . وأوى
الى طرابلس وتوافى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغى نجوة من هلاك فهلك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلاه فوقع في
البلاء . وظن ان صور خلت . وان مجانيها حلت . وان جماحها
اذعن . وان كفاحها امكن . وان فرصتها انتهزت . وان حصتها
احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعرضت
عن القومص بالمركيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس . فادرك
نماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروح بعدما اغفى . وضبط
صور بمن فيها . من مهزموي الفرنج وبمذفيها . وكان المركيس من
اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . وأضرى سراحينه . وأخذ
ذئابه . وانجس كلابه . وأنهش ضلاله . وافحش ضلاله . وأعوى
اعوانه . وأخون اخوانه . وأبغى بغاته . وأجفى جفاته . وأرعى
حماته . وأحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وأفجر
فجاره . وأروغ ثعالبه . وألسب عقاربه . وأحدث
معاهديه . وأذكت معاقبيه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له
لأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا
العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف
الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن
فيها من المسلمين زاهل . فعزم على ارساء الشيني بالمينا . ثم

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصه الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة. ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتراح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها . ولا معتقد في تعقدها . ولا متئد في توريدها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس يالساحل بلد منها أحسن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محصور محصور . فلما أرخى من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقل المعازل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشبيدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصهار . وتربصوا وتصبروا . وقترسوا وتستروا . وحاصروا وصاحوا . وحاذوا ونادوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصه الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعازل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة. ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد أوى فيهما باقتراح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها . ولا معتقد في تعدها . ولا متئد في توريدها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سؤمها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحسن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلىة . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محصور محصور . فلما أرخى من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاهد المعازل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشييدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاندوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

واستقذلوا . وتعقدوا على الافتح وماتحالوا . واحزنوا في الالباء وما
اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت
نيقها . وفرجت بالحجار طريقها . ورجت بالتفريق
فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق
وثوقها . وجمع شمل الحجارة ب (النار التي وقودها الناس
والحجارة) (البقرة ٢٤) ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد
الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة منالهم
الفسارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عبث بورهم
بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع
الحجاب . واشتد القتال . واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك
المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت
حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك
الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما
استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس
مالككم . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا
تخلصت خلصت . واذا استنفذت استنفذت . وخرج . مقدمون
وشاوروا الملك . ونهجو في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان
على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق
واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة . وتلألت
السعود في أوجها بالأوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان
من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح
بالشهادة . واختتم بالسعاية . وكان السلطان قد أخذ في طريقه
اليها: الرملة، ويبنى، وبيت لحم، والخليل . واقام بها حتى تسلم
حصون الداوية: غزة، والنطرون، وبيت جبريل . وكان قد استصحب
معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم اطلقه . فسلم
هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقته . واجتمع بالسلطان ولده
صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة
وبشارة . وراية وآية . وهياة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعده .
وجلة وجده . وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغة . وروعه . ونخوه .
وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساغير .

ومغاوير . ودهم . وذهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب
وانجاد . وجلب ولجب * وبيض ويلب . وبيض وسود واساود
وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعقاق .
وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف
وثقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وحدلا يكل .
وجد لا يمل . وجمر يتقى . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق
كماة الاتراك . وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقُرت عينه
بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد
استدعى الاساطيل المنصورة فوافقت كالفتخ الكواسر . بالفلك
المواخر . وجاءت كأنها امواج تلاطم امواج . وافواجا تزام
افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخشب كقطع الليل
سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزاحم مناكب الاطواد
مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها * وضرغام غابها
وهمامها * فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق
على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على
مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن
موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان القدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر
مصاحبا ولنيل العز ساحبا . قد اصحب ريش مناه . واخصب
روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الارحاء سيب العرف .
طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض
بالفضاء فضاء . وملا الملا فافاض الآلاء . وقد بسط عتير فيلقه
ملاءته على الفلق . وكأنما اعاد العجاج وأد الضحى جنح
الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل * والسماء حاضية
بأقساط القساطل * وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احايث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على
ماتذشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر
ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس
عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعي ليحمل عنها
بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية
لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع
زهر المصابيح في سمائها . واعادة الايمان الفريب منها الى
وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء النين اقصاهم الله
يلعنقه من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات
الناقوس منه بانطلا ق الاذان . وكف كف الكفر عنه بايمان
الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . واناس ابني
الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى
القدس قطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا
من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الاخبار انها
ما عاشت . وكان به من مقدمي الفرنج باليان بن بارزان والبطرك
الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل
بال باليان . واشتعل بالنيران . وخمدت نار بطر البطرك . وضاعت
بالقوم منازلهم فكان كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في
مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من
الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك الذفوس . ونسفك
الدماء . ونهلك الدهماء . ونصير على اقتراح القروح واجتراح
الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها
مقامتنا . ومنها قيامتنا . وتصيح هـامتنا . وتصيح

ندامتنا . وتسبح علامتنا . وتسبح عمامتنا . وبها غرامنا . وعليها
غرامتنا . وباكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها
استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وان تخلينا عنها لزمنا
لامتنا . ووجبنا ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح
والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي
والمرقب . والمشب والمعب . والمموه والمذهب . والمطلع
والمقطع . والمربى والمربع . والمرخم والمخرم . والمحل
والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد
والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام
والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في
احبارهم . والرهباين في صوامعهم . والاقساء في
مجامعهم . والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة
والسيد . والهيكل والمولد . والمائة والحوت . والمنعوت
والمندوت . والتلميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة
الكبش والحمار . والجنة والنار . والذواقيس . والذواميس . قالوا:
وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتأله
الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل الدور . وزال
الليجور . وازدوجت الطبيعة بالاقنوم . وامتزج الوجود
بالمعدوم . وعمدت معموية المعبود . ومخضت البتول
بالمولود . وأضافوا الى متعبدتهم من هذه الضلالات . ما ضلوا فيه
بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت . وعلى
خوف فوتها منا نفوت . وعننا ندافع . وعليها نقارع . وما لنا لا
نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا .
وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا
وتباهوا . وما انتهوا بل تنهوا . ونصبوا الجانيق امامت الأسواء
على الاسوار . وسـتـروا بـظلمات السـتـائر وجـوه
الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطففت
طواغيتهم . وأصلت مصاليتهم . ونشرت طواميرهم . وتسعرت
مساعيرهم . وهاج هائجهم . وماج مائجهم . ودعت
دواعيهم . وعدت عواييمهم . وسعت افاعيهم . وحضت

قسوسهم . وحرضتهم رؤوسهم . وحركتهم نفوسهم . وجاءتهم
بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية
منصورة الجنود . منصورة البنود . موصولة القواطع بالاشاجع
مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهورة الكتائب . مقوبة
الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة
العزائم . مجذونة الصلادم . مسالولة الخطبا . مطلولة
الربا . مجذوبة أجنة اغماها . مسذونة اسنة صعاها . مطلقة
اعنة جياها . محقة مظنة طرادها . قد سالت الوهاد
باكامها . وجالت الاعلام في اعلامها . وسدت الفجاج
امواجهها . وحجبت الفزالة عقبانها . والهبت الذبالة
خرسانها . وجرت بالجبال رياحها . وجرت كالحبال رماحها
واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بالعظائم قبيلها . ووافى كل
واف بعهد ربه . كاف لكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضاف بفيض
شربه . خاف في لبوسه . باسل بياسه . عاسل بأمراسه . ناسل
بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند
بسواعه . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده . جاد
بجده . وكل شاب لنار الحرب شاب . ورب بين ليين الرب
راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال نبي ذباب عن الهدى
ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة
عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مال . واقبل
السلطان باقبال سلطانه . وابطل شجعانه . واقبال اولاده
واخوانه . واشبال مماليكه وغلماه . وكرام امرائه . وعظام
أوليائه . في مقانب بالمناقب مقنبيه . وكتائب بالاكواب
مكتبة . وذوابل بالكواكب منصله . وجفافل بمضاء المضارب
مدفله . وألوية صفر للأواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق
العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصوافن
صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل من يبذل
للشع بدينه الذفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه
الابنى . وفريقه الاسنى . يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من
الاسنى .

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا . وأي يد له عندنا اذا ايننا . فانه مكث في يد الكفر احدي وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما ابخر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . وموقف الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملأئكة السماء . ومنه المحشر والمذشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جنة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لواردتها من الكوثر الحوض المورود . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى» . وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تدثر انباء الانبياء وآلاء الاولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالى القدم الذبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندها صلى نبينا
صلى الله عليه وسلم بالذبيين . وصحب الروح الامين . وصعد منها
الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله
فيه : « كلما دخل عليها زكريا » . ونهاره التعبـد واليله
المحيا . وهو الذي اسسه داود واوصى ببناؤه سليمان . ولأجل
اجلاله انزل الله « سبحان » . وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به
سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمه . واعلاه
واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن
حالاته واحلى محاسنه . وأزين مباهجه وابهج مزايينه . وقد اظهر
الله طوله وطوله . بقوله : « الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات
التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف
السلطان من خصائصه ومزاياه . ما وثق على استعادة آلائه
مواثيقه والاياء . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفع بأعلاه
علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم الذبوية قدمه . ويصفي الى
صرخة الصخرة . ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقا
بكمال النصره وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع الحسرة . ونزل
على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب . وقلب الكفر قد
وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب . والقدر قد
اظهر العجب . وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون الف
مقاتل . من سائف ونابل . وبطل للباطل . وعاس عاسل
بالعاسل . قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون . ويعاجزون
ويناجزون . ويرمون ويدمون . ويحمونه ويحمون . ويحتدون
ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشببون
ويسببون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتفوثون . ويلوذون
ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمون . ويتململون
ويألمون . ويتعاونون . ويتضاعفون ويحترقون بالبلايا . ويقترحون
المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضال . ونازلوا اجد
نزال . وطافوا بصحاف الصفا . لارواء الظبا الظماء من ماء
الأرواح . وجالوا بالأوجال . واجالوا قداح الآجال . وصالوا لقطع

الأوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبهوا ونشبهوا . واستهدفوا
للإسهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل
عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى
السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل
السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم
هناك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب
المجانيق . ومري من آفات الأفايق . وأصرخ الصخرة
بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا
يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم
العبوس . ويلقون على الردى النفوس . فلداوية دوي . ولبارونية
من البوار في الهاوية هوى . وللاستبار تبار . وما للفريرية من
الموت فرار . وما بين الحجار الحلاقة وبين المرمى اليهم
حجاب . وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه
لقبل النصال مكشوفة . والقلوب لاوجد بالقتال ملهوفة . والايدي
على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والنفوس لا استبطاء الهمم
في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجز شراريفه بالاحجار
الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكائن المجانيق مجانين
يرامون . ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال . ورجال
تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلك البلايا . لا
حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها
الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكم نجم
من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها
ينفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات ذكاياتها . وركات
ادراكاتها . ولفقات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تطلع
بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتج بأشطانها . وتمرح في
ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصعد . وتنهز
بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد
جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبيدها وتقوض القواعد
بضربها من اساهها . وتنقض المعاهد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت
الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق
الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الافتح والكفر الحذف . واخذ
الذقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل
المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى
الأرب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من
الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنا خندقه . وبرز ابن بارزان
ليأمن من السلطان بموثقته . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان
وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم
لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من
الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وابى في
تأمينهم الا الالباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة
التسرع وقالوا اذا آيسنا من أمانكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا
من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا
صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل
فذا قتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري
بالشر . ونقتحم اقتحام المستشري من الضر . ونلقي انفسنا على
النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا
حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك
منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا
السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من
عنينا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من
الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فانا نعطيها ولا
نعطيها . واما الذراري فانا نساير الى اعدامها ولا
نستبطيها . فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا
الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى
الصلح . ورب مدح اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد
السلطان محضرا للمشورة . وأحضر كبراء عساكره
المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاوهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستشكف خفايا
سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم
على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصلحة المربحة . وقال ان
الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وأن الحصة قد حصلت
ونستخير الله في احرازها . وأن فاقنا لا تستدرك . وأن افلتت لا
تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه
العبادة . ورأيك حاشد . وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع
الشريف مناشد . واستقر بعد مراودات ومعاودات . ومفاوضات
وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها
الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم وأموالهم
وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد
اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه
الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دينار
وكل امرأة خمسة وكل صفيروا وصغيرة ديناران . وبذل ابن
بارزان والبطرك ومقدا الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن
بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام ابالاداء ولم يذكل عن
الوفاء . فمن سلم خرج من بيتسه أمنا . ولم يعد اليه
ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على
هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الفصب لا الوبيعة . وكان فيه أكثر
من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم
الابواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الذواب . ووكل بكل
باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن
استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم
الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر
حظه . لكذا تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى .
وتذكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلي من السور
بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت
لبسته فخرج بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعاة مطاعة لم
تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهية . وفي التمسك بملتها
متعصبة . انفاسها متصاعدة الحزن . وعبراتها منحدره تحدر
القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياء ومتاع
واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . وانن في
اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت
من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك
اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول
والجواني . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن ادعى انه
ممن صاحبها وشيعها . وكذلك الابردناسة ابنة فليب ام هذفري
اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب
البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم
الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء
الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له
على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان
منها عدة من الذواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ
من أحد الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه
على من بالبواب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في
مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا
خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت
المال لا امناء . وخاذوه على ما حصل لكل من الفنى والنفع وبقي من
بقي تحت رق واسار . ينتظر به انقضاء المدة المضروبة . والعجز
عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرين رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه
المعراج . وتم بما وضع من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من
الاسنة بالدعاء والابتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء
الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيئة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه
الأبرار . ووجهه بذور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه
مفتوح ورفده ممزوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه
مقبول . ومحياه يالوح . ورياه يفرح . ومحبتة تروق ومهابته
تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضيوع . ويده لفيض امواء
السخاء . وفض أفواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة
الأمل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسسته به هالة
القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف
يشدون ويثشدون . والأعلام تبرز لتدشر . والاقلام تـزير
لتدشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة
تخشع . والالسنه بالالبتها بالاله تضرع . والكاتب يذشي ويوشي
ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبعت قلمي
الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي
الطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعي الرسائل . ويشيع
الفواضل . ويشبع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان
في حجمه قصر . ويصdol باللهجة وان كان في حجمه حصر . ويسمن
الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض
الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري
بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخاف والوفاق . والارفاق
والاعناق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق
والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع
العروش . ويوحش المستأذن المستوحش . وينعش العاثر ويعثر
المتنعش * يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء * . فبشرت
باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملاّت
البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت
ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنيد
والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت
فضيلتها وبينت . واديت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكننت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من الذوبة
فأقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدييري وادبر
علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت
خفة في النفس وأنست بابلالي بعض الانس وامنت لو ثوقي بالصحة
والاستقامة من الذكس ، فاولجته الى تلك الجهة وسرت بطاعة
النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المذكرة واخترت تعب السفر
على راحة الاقامة ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة
ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجاح
فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة
وسرى عنه سر وابر وبر وقال: اين كنت. ولم ابطأت. وحيث اصببت في
المجىء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك. والسؤال عن اخبارك. وهذا
اوان احسانك. فاين احسان اوانك. فاجر بنانك بجرأة بيانك. واجر في
ميدانك. وما للبشائر الا واصفها. والافرائد الا راصفها . وللصفحة
الا قسها . والحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها .
واقترضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان
العزیز. فقال لهذا من هو اقوم به وعناني. فلما رأني ناداني
واستناني . فصرفت الى امثال أمره عناني . وسلم إلى الكتب
التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :
غيرها . ولا تسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثنجها .
وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بايات الذكر .
فاستجديتها فمما استجديتها . واستجديتها فمما
استملحتها . وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا
قد تعاونا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في اقتضاها الابكار .
واقترضاء الافكار . واقترأح القريحة . واقترأح رحاب الكلام

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز
واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت
واشعبت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت .
واطريت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت
وجانست . ووافقت واندست وبينت فضل عصر الامام الناصر على
الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله
لزمانه ومكن منه لكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا
بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو
واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه .
وذكرت من هذا كل مارق وشاق . وذور الافاق . وان هذه الفتوح
تفوح بارح نشره . وتحى بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه .
وما اسعد اماننا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف .
ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي .
وحليت المعالي . وقرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت
شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر
المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلاوت :
(شرع لكم من الدين ما وصى) (الشورى ٤٢) وهنأت الحجر
الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر
سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم
بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام
اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر
الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا
اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق .
وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة .
وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى اكثر من عشرة . وجدوا في ضم ما وجدوا من امور لهم منتشرة . وكذبوا كنادسهم . واخذوا من نفاذسهم . ونقلوا منها الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحريريات والمذهبات . من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنادس الكنائس . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات المسجد ومصوغات اللجين . وجمع ما كان في قمامة من الجذسين والنسجين . فقلت للسسلطان بهذه اموال وافره . واحوال ظاهرة . تبلغ مائتي الف دينار . والامان على اموالهم لا اموال الكنادس والاديار . فلا تتركها في ايدي هؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولا نتركهم يرمون اهل الايمان بذلك الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز . وخف ونقضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور . وكثفوا بالديجور . وبقى منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فانهم افوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي ايدي سباً . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا . واحصيت النساء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسمة . واصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكة ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخيبة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت . وفارغة شغلت . وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحنت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة أصبحت . ورضية أصبحت . فكم تسرى منهن سرى . وتجراً عليهن جري . وقضى وطره عزب . ونفى نهمه سغب . وفثأ سورته شغب . وكم غانية استخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت . ووحشية صيدت . وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

- ٥٨٧٠ -

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولا يزعموا . وبذلوا خدما وخدموا ببذول . وقابلوا كل مالزموا به بالتزام وقبول . واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وشحت افواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصمة . وشغلوا بالخدمه . واستعملوا في المهنة . وعدوا المنحة في تلك المحنة .

ذكر ماظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحراب . وحتم به امر الايجاب . وكان الداوية قد بذوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بذوا من غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسة رفيعة . فاوعز برفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف ماحول له من الافنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصب المنبر واظهر المحراب المطهر * ونقض ماحدثوه بين السواري . وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقت القناديل . وتلى التنزيل . وحق الحق وبطلت الابطال . وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات . وصفت العبادات . واهيئت الصلوات . واهيئت الدعوات . وتجلت البركات . وانجلت الكربات * وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبدوس والبوس . وطابت الانفاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من مدنه . وورد القراء وقرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاولاد . وعبد الواحد .
ووجد العابد . وتوافق الراكع والساجد . والخاصع والواجد .
والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم
والقاعد * والمتعهد الساهد . والزائر والوافد . وصدق المنبر *
وصدع المذكر . وانبعث المعشر . وذكر البعث والمحشر . واملى
الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث
الرواة . وروى المحدثون . وتحذف الهداة وهدى المتحذفون .
واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المترخصون .
ولخص المفسرون * وفسر المخلصون . وانتدى الفضلاء وانتدب
الخطباء . وكثر المترشدون للخطابة . المتوشحون بالاصابة .
المعروفون بالفصاحة * الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب
الرتبة * ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقا .
وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا من البلاغة فائقا .
وفيه من عرض علي خطبته . وطلب مني نصيبته * وتمنى ان ترجع
فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهم طال
الى الالتها بها عنقه . وسال من الالتها عليها عرقه . وما منهم الا
من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعريض
ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه .
وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان
لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينصر . ومنهم من يقول ليتني
خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان .
اصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان * وامتلا
الجامع * واحتفلت الجامع * وتوجست الابصار والمسامع *
وفاضت لركة القلوب المدامع * وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك
البهجة الروائع * وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور
الشوائع * وغصت بالسابقين اليها المواضع * وتوسعت العيون *
وتقسمت الظنون * وقال الناس: هذا يوم كريم * وفضل عميم *
وموسم عظيم * هذا يوم تجاب فيه الدعوات * وتصاب البركات *
وتسال العبرات * وتقال العثرات * ويتيقظ الغافلون * ويتعظ
العاملون * وطوبى لمن عاش * حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وما افضل هذه الطائفة الحاضرة •
والعصبة الطاهرة • والامة الظاهرة • وما اكرم هذه النصرة
الناصرية • والاسرة الامامية • والدعوة العباسية • والمملكة
الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه
الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا
فيمن يخطب • ولن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفويض •
وتحدثوا بالتصريح والتعريض • والاعلام تعالى • والمنبر يكسى
ويجلى • والاصوات ترتفع • والجماعات تجتمع • والافواج
تزدحم • والامواج تلتطم • وللعارفين من الضجيج • ما في عرفات
الحجيج • حتى حان الزوال • وزال الاعتدال • وحيـل
الداعي (١) • واعجل الساعى • فنصب السلطان الخطيب
بنصه • وابان عن اختياره بعد فحسه • واوعز الى القاضي محيي
الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بان يرقى ذلك
المرقى • وترك جباه الباقيين بتقديمه عرقى • فأعرتة من عندي اهبة
سوداء من تشريف الخلافة • حتى تكتمل له شرف الافاضة
والاضافة • فرقى العود • ولقى السعود • واهتزت اعطاف المنبر •
واعتزت اطراف المعشر • وخطب وانصتوا • ونطق وسكتوا • وافصح
واعرب • وابدع واغرب • وابدع واغرب • واعجز واعجب •
واوجز واسهب • ووعز في خطيبته • وخطب بموعظتيه • وابان عن
فضل البيت المقدس وتقديسه • والمسجد الاقصى من اول تأسيسه •
وطهيره بعد تنجيسه • واخراس ناقوسه واخراج قسيسه • ودعا
للخليفة والسلطان • وختم بقوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل
والاحسان » (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب • وافتتح ببسم
الله من أم الكتاب • فائتم بتلك الامة • وثم نزول الرحمه • وكمل
وصول النعمة • ولما قضيت الصلاة انتشر الناس • واشهر
الايناس • وانهقد الاجتماع واطرد القياس • وكان قد نصب للوعظ
تجاه القبلة سرير • ليفرعه كبير • فجلس عليه زين الدين ابو الحسن
علي بن نجا • فذكر من خاف ومن رجا • ومن سعد ومن شقي • ومن
هلك ومن نجا • وخوف بالحجة ذوي الحجا • وجلا بذور عظامه من
ظلمات الشبهات مادجا • واتي بكل عظه للراقيين موقظة • وللظالمين

- ٥٨٧٣ -

محفظة . ولا ولياء الله مرققة ولا عداء الله مغلظة . وضج المتبهاكون .
وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت
النهيرات . وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون . وانااب المتحوبون .
وصاح التوابون . وناح الاوابون * وجرت حالات جلت . وجلوات
حلت . ودعوات علت * وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية
انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في
قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى
الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة .
والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد
الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصيبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم
يتركوا فيها للايدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا . وقد
زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط
الانجيل . وكملاوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها
لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبة . وقالوا
محل قدم المسيح . وهو مقام القديس والتسبيح . وكانت فيها صور
الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير.
والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة * فامر السلطان بكشف نقابها .
ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها
ونقض بنائها . وفض غطاءها . وابرزها للناظرين . وأظهرها
لِلناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من
الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراعة حسننها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجللاء
شرفها الصريح . وردھا الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من
شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب
السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازينهم
طلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم
بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والذشر . واغناه
واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى
اليه معروف دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد
الاقصى مصاحف وختمات . وربعات معظمت . ولاتزال بين ايدي
الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب
لهذه القبة خاصة والبيت المقدس عامه * قومة تشمل مصالحها
ضامه * فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة
الواقفون * فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع * وزهـرت
الشموع * وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين
الدموع * واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه
ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايوبه له لو اقسم على الله لابره *
وهناك كل من يحيي الليل ويقومه * ويسمو بالحق ويسومه *
وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن
عرفته لمعرفته الاسحار * ومن الفتته لتهجده الاوراد والاذكار .
وما اسعد نهارها * حين تستقبل الملائكة زوارها * وتلحف الشمس
انوارها انوارها * وتحمل القلوب اليها اسرارها * وتضع الجنة
عندها اوزارها * وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها *
وما اظهر من تولى اظهارها * واظهر من باشر اظهارها * وكان
الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية .
ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهباً . واتخذوا ذلك
مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بان
مقاطعها . فهي الان مبرزة للعيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهذا كله تم بعد انفصال السلطان . والشروع في العمران * وامر بتدعيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الاسنة . فما منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ما يمكن . وجلى وبين وحلى وزين . واشفق وانفق . واغنى واقتنى . واعتنى وابتنى . ووفى واوفى . واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمة . وفضيلة بها ترجع . ووسيلة بها نجح . واتى الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم به العرف وغمر . ونهى وامر . وبني وعمر . ومن جملة افعاله المشكورة * ومكرماته المشهورة * انه حضر يوما في قبة الصخرة . مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولأجل الصدقة والرغد مال . فانتهاز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها بالافتراض . وتولى بيده كدس تلك الساحات والعراض . ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت . وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتى بمجامر الطيب فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى * وأرغمت أناف العدى * ومازال مع قوته * في تطهير البقعة المباركة طول يومه * حتى تيقنت طهارتها * وبينت عمارتها * وراقب نضارتها * ووقفت عليها الاستحسان نظارتها * ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق * وافتخر بأن فاق الكرام بالانفاق * وجاء الملك الافضل نور الدين علي . بكل نور جلي * وكرم ملي * واحسان سني * وانعام هني وعرف زكي وعرف ذكي * وعطاء مبتدع * وانطلق بحمده الاسن * وبسط بها الصنيعة وفرش فيها البسط الرفيعة * وهدي واهدي * واعاد بعد ما ابدى * وانا واسبى * وافاض الندى * وفض الجدا * ونفض الاكياس * حتى خلنا به الانفاض والافلاس * وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه * واعجز بما اعجب من سوابق معروفة

ولواحقة • مالم يشق احد فيه غبارة • ولا ملك سابق فيه مضماره •
واما الملك العزيز عثمان • فانه اتى بالا حسان الذي استظهر به
الايمان • وذلك انه لما عاد الى مصر • وقد شاهد الفتح والنصر •
ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها • ولم ير بعد حصولها به نقلها •
وكانت احمالا باموال • واثقالا كجبال • ونخائر وافية • وعددا
واقية ودروعا سوابغ • ونصولا دوامغ • وخوذا وتراذك •
ورماحات ونيازك • وقنا وقنابل • وصواقل وذوابل • وجروخا
وقسيا • ويمانيا وهنديا • يزنيا • وردينيا ومشرفيا • وزيارات •
ونفطات وقطاعات • وعدد النقوب • وجميع ادوات الحروب •
فاستظهرت بها المدينة • وتوثقت بها عراها المتينة • وكان من جملة
ما شرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم • ويخرجوا قبل ان
يستوفي الباقيون في اداء القطيعة مدتهم • فتوفرت بذلك عدد البلد •
واستغني بذلك عما يصل من المدد •

ذكر محراب داود عليه السلام • وغيره من المشاهد
الكرام وتبديل الكنائس • وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن
عند باب المدينة منيع وموضع عال رفيع • وهو الحصن الذي يقيم به
الوالي • فاعتنى السلطان باحواله الحوالي ورتب له اماما •
ومؤننين وقواما • وهو بمثابة الصالحين • ومزار الغادين
والرائحين • فاحياه وجدده • ونهج لقاصديه جدده • وامر بعمارة
جميع المساجد • وصون المشاهد وانجاح المقاصد • واصفاء الموارد
للقاصد والوارد • وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما
السلام • وكان ينتابهما فيها الانام • وكان الملك العادل نازلا في
كنيسة صهيون • واجناده على بابها مخيمون • وفاوض السلطان
جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار في مدرسة للفقهاء
الشافعية • ورباط الصالحاء الصوفية • فعين للمدرسة الكنيسة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط * وعين دار البطريرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروف . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ما ولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة * وحرم على النصارى زيارتها ولا الالمامة * وتفاوض الناس عنده فيها *

فمنهم من اشار بهدم مبانيها . وتعفية اثارها . وتعمية نهج مزارها . وازالة تماثيلها . وازاحة اباطيلها . واطفاء قنابيلها . واعفاء اناجيلها . وازهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . والحققت باسافلها اعاليها . ونبدشت المقبرة وعفيت . واخمدت نيرانها واطفيت . ومحيت رسومها وذفيت . وحرثت ارضها . ودمر طولها وعرضها . انقطعت عنها امداد الزوار . وانحسرت عن قصدها مواد اطماع اهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال اكثر الناس لافائدة في هدمها ولا هدمها . ولا يؤنن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدتهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء . ولا ينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت ارضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام اقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبه الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الاعز الكريم . والشرف الذي نخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . واقتضاؤ عذرتة . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى به من سراره .
وزهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت
موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح
السرى ومناخ التعريس . وقد أقصي عن المسجد الأقصى الاقصون
من الله الابعدون . وتوافد إليه المصطفون الاقربون . والملائكة
المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسبحين . وخرج المفسدون
بدخول المصلحين . وقال الحراب لأهله مرحبا وأهلا . وشمل
جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ماجمع للاسلام فيه
شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى
نصيب . وتلت بالسنة عذبة : « نصر من الله وفتح قريب » .
(الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من بذس
المشركين . وبعد أهل الاحد من قريبا بقرب الموحدين . فذكر بها ما
كاد يذسى من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالاتها براهين الاعجاز
المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجدد لها من
البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثاني المسجدين . بل
ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من
الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر . وتطهير
مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أناس الارجاس . وتضوع
أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحاش
بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس .
وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على العصر
مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر النين
والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية
بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها
وأسرها . ولقد حل الكفر عروة عروة . وهدد ذروة ذروة وعادت
حباله رثا . وعقوده انكا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعد
أن شوهد أهل الزمة أحداثا . فالرتاج مستفتح . والرجاء
مستنجد . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي
مسترخصة . والعقائل مفتضة . والمعائل منفضة . ومناهل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف
أهل الايمان منقضه . والثفور مبتسمه . والأمور منتظمة .
والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر
يذقها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها
وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها
وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة
بحمد الله عظيمة . والموهبة وأن خصت هذا الاقليم فهي في جميع
أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة
ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل
لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي
ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف: ١٠٩) والفاضي ضياء الدين القاسم
الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء
البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه
عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفى بشرح الصدور
مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانتهاء ماتسنى
من فتحه . ويحدث وهو الضياء ياستفار صبحه .

عاد الحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون .
واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله
الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسه وجوده نائدا . ثم تبعه الملك
المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما
جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقته . وفرضه
بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن
السبيل . وحمل به عن الغارم . وأحیی به سنن المكارم . ووضع
في أهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي
الإضافة . والانفاق في أهل الفاقة . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل المجاهدين منه وظائف . وأبقاه بأفئته ذخرا للأخرة .
وكسبا للمحامد الفاخرة . فأكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما
فضه بفضله . فقال كيف أمتنع الحق مستحقه . وهذا الذي أنفقه هو
الذي أبقيه . وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فسانه
يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة
أحفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوعد إلا بوفر ودثر . والأفاضة
في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتقيأ كل
فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل .
والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوارد .
والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والساكنون للطرائق .
والمالكون للحقائق . فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح . وراويا
للكتاب الصحيح . ومتكلماً في مسألة . ومتفحصاً عن مشكلة وموردا
لحديث نبوي . وذاكراً لحكم مذهبي . وسائلاً عن لفظ لغوي .
ومعنى نحوي أو مقرضاً بقريض . أو معرضاً بتصريح أو مصرحاً
بتعريض أو جالباً لمدحه . أو طالباً لمنحه . أو مستضعفاً بفاقه . أو
مستسعفاً بفاقه . أو ناشداً بذممه . أو مسمعاً بتغريب وتغريد .
وما فيهم إلا من أحظي بسهم . أو أرضي بقسم . وأصيب وأجيب .
وأجيز بتقرير وتقرير . فليل له لو نخرت هذا المال للمال . لشفيت
به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنع من الاختلال .
فقال أمني قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الأسراء
المطلقين . وكاذوا ألوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم .
وواساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره .
ناجياً من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيماً . للنظر في
مصالحه مستقيماً . فليل ما قعودك عن ضرر . فأنهض إليها
عسكري المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظي منها بمرادك
وسؤالك ، فأنذو السير . وأخو الخير . وأحصر الخبر . واحظر
التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضنة . وفي بدار
الامام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بإبدارها . فأسر
بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الأعمال وأقطع . وأكثر من
كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

بالمشطوب . وكان من أكابر الامراء الكافين الخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وببيروت . وهما بقرب صدور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحضر . وحررض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها . وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صدور مشتغلا . وعلى الاستهتار بتحسينها مشتغلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق إليها مضيقا . واحكم اسباب الاحكام . وأخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس ودان ودان . وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايه لكرامية فراقه مقدار مرحلة . ثم اوصاه وشيعة واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظفرا بأخائه . ومستبشرا بالآله . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستفنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل . وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضه . والخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة . ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في اول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه . باهرا بتأخيرته وتقديمه . قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره . وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهل . وحررض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه ملبيا . ولجيش النصر معيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة .
بالجحافل المحذقة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها .
سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة
بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . مذكورة راياته منصورة آراؤه .
خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجح في الانحاء
ثرات صوب صوابه . قد كست خيامه عري العراء . وفشت أشعة
بيضه وسمره الفضة بالفضاء . واحتوت مضاربه المضيئة بالائه
وآرائه على مضارب المضاء . وباحت استباحه حمى المشركين
للموحدين بهر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المدد . وتكامل
العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصفار
والكبار . ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم
الخميس . في خميس يسير في الوشيح كالأسد في الخيس . ونزلت
الدوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس . فوقع في
الدرديس . والعذاب البيئس . فكانما نفخ في صور صور . فحشر
أهل جهنم وملأوا السور . واتصلت زيارة الزيارات للجروح
بالجروح . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت
الحجارات حاجرة جاجزه . والسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء
راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج من
القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا . وعاجوا
وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا . وشدوا من
كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا
من الشرافات الشرفات . بالشرور والافات . وسلب الحجار
حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت .
ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نذفت . وطود
نسفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صغيرة . وانهض بنات
الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتي . فصدف اتيها
الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر من المنجنيق
بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبط
رجالهم برجاله . وقابل الابراج بالابراج . وحاول بالردى علاج
العلاج . ووالاها حجارات وصخورا . حتى جعلت سور صور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك
الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين
غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي .
فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه
عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والسممر
والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب
واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته
وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام
المفصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب
ناجح ، لصم الصفاق مصافح ، وكل جاندار جان در الردي
للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على اهل النار بالنار ، وكل
منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال
بالهدى لأصماء اهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الأفق
فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدم قرنه
دام ، وكل ضرغام صريع في رغام . وكل قمقام ضارب
بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل زمر
مشيح ، لذار الكفر مبيع ، ولروح الجد مريح ، ولذماء المزاح
مزيح ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم
العداء سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد
ساع ، وللإسلام راع ، وللإشراك ناع ، وكل فارس للفوارس
فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير
ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر
الناس بشجاعته ناج ، وبباغت المذون لمن يلاقه شاج ، وكل عتال
عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين .
فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا .
وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الأقواس الى أوكار
الأحداق أفراخا . واستصرخوا الأقدار لأقدارهم فحبتهم حين
أحببتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الفلاظ بالرقاق . وأولوا
الشقاء لأولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا
ومافيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والآن الشريد . وأعان

السيد . وأفلح ففلح الحديد بالحديد . أوجد الحديد ومد الحديد
وصور مرتجة أبوابها . مرتجة أربابها . مفتحة جوانبها . ومرتصة
عصائبها . مشحونة أبراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابها .
محصورة ذئابها محدورة ثعالبها محدورة كتائبها . والمركيس بها
متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسخط لبلده .
وارتبط بجلده واختلط بكمده . وغلت مراجل غلوائه وعدت غوائل
عدوانه . وطاش وجاش وأوخش الأوباش والأوخاش (٢) .
وتوشح بالشر وتودش . وترشح الردى وتحرش . واشتعل بجمره .
وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجهه في مكر مكره . وكر في وكره
وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعر وتسر .
وتربص وتصبر . والاسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . ماض
عزمه . قاض حزمه بار حده . ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت
اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابه . فازتحم على بسابه
وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجار جار .
وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل
عاصف قاصف وكل أكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب .
وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب
مجرد . وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث .
وكل غيث غياث . وكل سفاك لدم الكفر سفاك . وكل جراد لسيف
الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتتم في نقعه . ملتئم بزغفه . مثلم
بحرفه . مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سايح في بحر الموت بسابحة .
سامع في الصباح صوت هائحه . فجمع اليه أمراءه . واستحضر
عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه من الارض
مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطريقه
الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانيه . وقد قطعوا
بخندق في عرضه . وعمقوا ونزلوا في أرضه . وكان من احكام
الحزم . واتمام العزم . تكميل الآلات وتتميمها . وتحصيل
المنجنقات وتقييمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها . وتقريب
الجفاتي وتصنيفها . وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها . وتنحية
أذقال العسكر وتخفيفها . وتنحية نخب الرجال

وتصريفها ، وتسنية الأسباب ، وتهئية الأخشاب ، واستحضار كل ما يراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الأنصار ، فإذا حضرت هذه الأشياء والأشياء ، وتيسرت وتوفرت الأصول والاتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، وإذا حالت الأحوال وضاعت الأوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وإزالة الخل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض . وحمل ما بتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصدفت من سور سور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكمأة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لمقلع ، ومدبر بايجاف . ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروح ، وأطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد ألف تيسر الفتوح ، وتسرع النجاح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألّف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله . والحصول على اكساب سهله ، وفتح ما يقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلمّا توقّف هذا الفتوح توقّفوا ، وملوا وضجروا وتأفّفوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شدة شدة ، وفي جده جده ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدتهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولا مصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكان السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا ما كان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان والردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل ، فاستشعر المركيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها مناكب ، وسفننا بالساحل عنينا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواربها ، وتجري سواربها وتسري جواربها ، وتطير للقنص بزاتها ، وتغير للفرس عزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتلاطم الأمواج بأمواجها ، وتزاحم الأثباج بأثباجها ، وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواه باقلاعها ، وتنقض على شياطين الكفر شهبها ، وترفض بشأبيب الذعر سحبها ، فكأنها الاساود والسود ، وركبتها الاسود ، من كل افعووان يحمله افعووان ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشقات العدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالها من اغبة دارت بعقبان . وأجنحة طارت بظلمان . ورواس سوار ، وغواز بغوار ، وقد ملئت برماة الحديق وحماة الحلق ، وزراقى النار وطراقى النار ، والخاطفين بالخطاطيف . والقاذفين بالمقانيف والكالين بالكلايب . والسالين بالأساليب والصاربين بالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فانشقت مراثر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصت جناة الجنوية ، وكثرت ادواء الداوية. وكثرت اسواء الاسبتارية . وزادت الام الألمانية، وعادت أسقام الافرنسية . وصارت مراكبهم في المينا لاتيين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت جبالا تسفن . وأنس اصحابنا بعلو الأمر ، وخلوا البحر. وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف. ودام

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظارهم مروعه . فتواقعوا الى
الماء . وخافوا على دمائهم في الدأماء (٥) . وخرجوا الى البر على
وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروهم . وفروا وفاروا . وطاروا
وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدحم دعاؤهم الى التجمع
الا تشتيتا . فظهر بهنه الذوبة الواقعة . والذوبة الرائعة . ان نواب
مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتب فيه على ما يرام
رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة .
ومستضعفة غير آلفة ولا مألوقة . فلا جرم لما شاهدوا الروع
ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا
قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري
والتجربة ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحة الدفاع . وطار بأجنحة
الشرع . وفاز بالسبق وفات . وهيئات ان يدرك هيئات . فنجا
النجباء . وأب بهم الالباء . فبقيت المراكب الباقية . وقد اخلاها
حماتها الواقية . فرفعناها الى البر . ورأينا الصحة منها في
الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحر . وهذا والمنجنيقات
ترميهم . والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميمهم . والققلال
قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار
تقلقل . والاسوار تحلل . والاطوار تضعضع . والابراج القيام
تسجد وتركع . والاصلاذ تقدح . والاجلاذ تقرح . والالواح
تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح
القوارع موسومة . والحنايا واترة موترة . والمنايا مأثورة
مؤثرة . وظعائن الضغائن تحدي بصليل البواتر . وصهيل
الضوامر . وحقوق الحقوق تقتضي بالأسنة الاسنة . وعنت الاعنة من
الغريم الكافر . والاوادج شاخبة كالعيون البواكي . والابشار
دامية من الزنبوركات والناوكات الذواكي . وهناك العقل معزول
بالتهور . والرأي مشغول عن التدبير . والعلم والحلم خالطهما
الجهل والسفاه والجرحي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بلا
اله الا الله . والزراق بالنار يطيب القاروره . ويحرق
الساورة . والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر
الباشورة .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظنوا فينا الفتور لأجل تلك
الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبها . وكتائبهم اختل
ترتيبها . وستجرب بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم
الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدها
عنهم . ولا وجه لتباعدها منهم . فلأخرجنا صدمناهم . وأقدمنا
عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوماً قبل العصر . في عدة كالليل
خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأموا وانضموا والتظموا
وتقدموا . وأقدموا للطوارق حاملين . والجمالات مطرقين . وعلى
الفرق مجتمعين . والجماعات مفرقين . وبالرهق جابين . وبالجد
مرهقين . والعقود حالين . ومن الغمود سالين . والمناصل
منتصيين . والطوائل مقتضيين . والسيوف مجربين . والسيول
مجربين . وبالزغف ملتئمين . وفي الحذف مقتحمين . وبالقنطاريات
طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مفوار وار . ومحضار
ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عنود . وكند
كذود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا
وتر . مصمم اذا اوتر . مصمم اذا نعر . مصر اذا زعر . هائج اذا
استعر . مائج اذا نخر . متهمر اذا زار . متذمر اذا
زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبدوا من متارس
المنجنقات . وجنوا من مغارس الجنويات . وبدوا امرهم على ان
الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون
قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجار الى
الأقدام . ملب للصوت . محب للموت . مشتهر باغناء . مشته
اللقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متقاض بالقواضب
القواضي . وكل ابيض بالبيض ضراب والبيض رضاض . واغلب
المغلب قضااض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد
مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعانة . متمن للمنون . متجن على الحنون . مضرم نار الحديد في
ماء الوريد . مفرم في تفريق العدى بجمع العبيد . مفرغ ماء الطبيب
على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثم
باللام . وتلفع باللاثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجوشن
بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب . وجال بالهضب . وطال
بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم
يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتار . من كنين
الأوتار . وهفيف السهام . لذفيف اللهام . وصاليل بنات
الغمود . من غليل ابناء الحقود . وهمهمة الابطال . وغمغمة
الأقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقـرع الطـبـا
بالظبا . ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من
الحديد . وعجة الشيد . وجعجة رحي الحرب . وقعقة اداة
الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهـبـل
حمام الحمام . وهـبـير قـروم الـايـدام . ووعوة ذئاب
الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدة صاع المصاع . وجلجلة
سباع القراع . وصلصلة الزبر . وولولة الزمر . وحييلة دعاة
النصر . وهيضلة رعاة الكفر . ورفرفة المريشات
الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة اعطاف
المران . وزهزمة اصوات الشجعان . ونعير الفالين . وصخب
السالين . ولجب الجالين . وزحير الطالين . ونهيت (٦)
الأسود . وقصيف الرعود . وهدة الأركان . وهدهدة
الرعان . وقهقهة الأقران . وقرقرة كوم البكاء . وصرصرة بزاة
الفزاة . وكشيش صلاص الضلال . ونشيش مـراجـل
الرجال . وهزيز ريح الياس . وهزيم رعد المراس . وارنان
المعاجس . وارزام القناعس . وهيعة الصارخ . وصيحة
النافخ . وزعقة المستفز . ونعقة المستفز . وشهشة
الخرسان . وزهزمة النيران . وهينمة الاجل . وجمجمة الزجل
وتـكـبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وهرير ابواب الجنان
للشهداء . وهريف انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى
اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعت الاصوات . واشتبهت

الاحياء والاموات . ووقع اصحابنا فيهم وقوع النار في
الخطب . واروهم في مرايا البيض وجوه العطب . وولوا
مدبرين . بعد ماتوا مدبرين وجذونا تشلهم . وجدونا
تفلهم . ولتوتنا ترضهم . وليوتنا تفضهم . وعادوا الى
البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهم نواب . وايدي الردي
بهم لواعب ومنهم لواغب . وبخل الليل . وعمهم الويل . واسرنا
منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، ومن اسر فخر قومص
عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشف عن حاله
بالنهار . وكان الملاك الظاهر غازي . لم يحضر فيما تقدم من
المغازي . فرأى ان يحقق اسمه بقتله . فضرب عنقه بحد
نصله . وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فظنوا انه هو
للشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثم عرف ان المركيس في
نفسه لم يذكأ ولم يذكب . ولما عطب اشياعه لم يعطب . وندم على
ماقدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر ما دبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتجج العدو ولج . ضجر
العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الافلات . ولا يكرهون
القوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومزاولة مالا يزول
تصعب . ومحاولة الامتنع محال . ومطال غريم هذا الافتح
مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان
جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لا يكثر بالكارت . ولا يدخل
سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمن ولي أو
ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا من
النصب ، وكل ما جرى الى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم
يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف السبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعافه . وبسم نتوسل
ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله
يحتوي الإقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومرب به ما
امروه ، وهمه ما به هموا . وآله ما به ألوا . فراسلهم بالهيات
وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل
ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا
في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا
بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه
المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه
شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا
الارب ما يخطر بخاطر الارب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين
اذا تركناه ، وكيف نقول فائقنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة
اذا فانت لا تدرك ، والبغية اذا وانت فحقها تملك ، ونواظر الناس
الى ما سيكون منا في صدور صدور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجاوها
الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا
يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى
تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا
الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق
ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج
قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته . وتوالت
منها في الكفر شقاته . والنصر قد أن أن تطيب ذشقاته . والمركيس
ابعد الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لا التناول
الى الرواح . وفي التثبيث على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج
المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . وانفقه في اهل باسه .
وواصل البذل وهجر العذل . وملا الايدي بالفنى . وروح للرجاء
نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر
فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعادة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . وينا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانت . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام الزكايه حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولا يشطون ، فاول ما قالوا امهلونا حتى نعلم ما يكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بذفانه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر الدين دلدردم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لنسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبى الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس ، واذا ابيتم التسليم عدتم سلامتكم ، واقمتهم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولقاتلة اهلها مستنيم . والى ما عند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرج بالقلوب برحها من عمل صيدا؛ قلعة ابي الحسن . وشقيف ارنون . ومن عمل طبرية والفور؛ صفد . وكوكب . وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين . من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . و اقام السلطان على صور محاصرا . والدين
الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح .
ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تستكين . وشدتها تلين وابيتها
تدين وسريها يبين . وكان قد دخل كاذون . وظهر من سر الشتاء
المكذون . ووقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي
النشاط . وعادت العزائم المتوهجة تبرد . والصرائم المتأججة
تخمد . والنخوات المتحركة تجمد . والحميات المتبقية ترقد .
والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخدّم ينبدو . والطباع تتكره .
والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل . ومعاقبة النزال تنحل .
فلحاهم السلطان على ملاح . وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم
بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفرا لا مع الصبر . وان
الظلم تنجلي عند تجلي الفجر . وكان في الأمراء جماعة منتجون
منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة
ولا كراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرون
بأنفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان . وعصيان الشيطان في
مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا رأي المشير
به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمّموا وتلوموا . وقالوا كيف
نترك ما حوينا . ونعوج ما سويناه . ونذر كفرناطونا ونهجر
خيرا ذوينا . ونداوي توحيدا شفينا . ونشفي اشراكا ادوينا .
وما للراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن امسى
وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصبح وهو مغلوب . وهذه
صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها سفهت . واذا تخلى عنها
وخاينها ترفهت واستفهرت . واذا حللنا عنها سفهت . وهبت من
غشية خشيتها وتنبت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بالثابرة
مثاب . فمنهم الامير طمان بن غازي ما اطمأن يوما في الفوز
ولا سكن . وعز الدين جريدك النوري كم جرد على اعناق المشركين
سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدامان . من عادتهما
الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولا يريمان . وجماعة اخر
بهما يتشبهون . وبالكريهة لا يتكروهون . واما الباقون فانهم احبوا
البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الاتقاء . وابوا الا الالباء . وقالوا قد

لغبنا . وما بلفنا . وجرحنا ، ومارجنا . فلورحنا استرحنا . ثم
عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر .
معتف للعقل . مستعف من الثقل . عامل بمحض الحزم . عالم بوقت
العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضرور الكروب . وثلّم ما برى من
غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مبانى البلد هدم اكثر منه مبانى
الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأساواقدا .
ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع
الذواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد
استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد .
وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر
فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحذف . وكلما ترجلت
طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت .
وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم .
واجترأ اصحابنا . وراض جماهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في
البحر خلف منهزميهم . واقدم من احجم منا لاحجام مقدميهم .
فحينئذ طارت للحين من السهام زنايبرها . واسعرت الحرب بضرام
الضراب مساعيرها . وامتلات السعير بقتلاهم وقالت هل من
مزيد . وفتحت الجنة لن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد .
وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت
قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض .
وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولججاج . فلو عاودنا البلد
بمثل ذلك اليوم اياما . لنلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحو على سأم.
والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقيلت عثرتنا لانجبرت
كسرتنا . وفيما الجريح والطيح . وحتى متى لانستريح . وقد توالى
الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات
كثيرة . والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد
الخلة وتسديد الخلال . ومازالوا يرسلون السلطان ويشيرون
بالرحيل . ويقولون لا تتعب على تحصيل المستحيل . ولا تذهب الايام
في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله
مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما له

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفق اموالا كثيرة على تلك
الالة والعنة . وما مكن نقلها . ولا مكن من نقلها ثقلها . ولو ابقاها
لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقضها . وفك
بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشئت بعد التجمع شملها .
وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب ما تكاد
تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتأخر
السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى ويد ايده على
جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف . وتزود للانفكاك
والانكفاف . واخذ الجمع في الاقتراق . وانتشر في الافاق . ونهب
من نهب على موانع في المعاودة . ومسارة في الرجوع الى
المساعدة . وودع الملك المظفر تقي الدين من هناك . واوعد بدوعد
عونه الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت
معه عساكر الموصل وسنجار وبيار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى
وكره . وما عرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعباً كثيراً . وان هذا
الهدو الذي مالوا اليه يصير لحديث حركتهم مثيراً . وبقي السلطان
يتلهف على ما تركه . ويتأسف على الافتيح الذي ما دركه . والذين
اشاروا بهذا الرأي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب . ويقولون
نمضي ونعود . وتساعدا السعود . وتنجدنا الجدود . وتتجدد
الجدود . ويورق العود . وتصديق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبل
الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسعاد وساعد
الامكان . وما زالوا بنا حتى رحلنا . وعلى الرأي الرائب منهم
احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره
محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولا مرد
لاراده . وقضى ولا محيد لما قضاه في عبادته . وان تبقى صور في تلك
الحالة للكفر وكرا . والمكر مكر . والشرك شركا . ولنا رجهنم
دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني
وعم البرد في القاصي والداني . وتوحدت السماء من حوامل
السحاب . وتوحدت الارض من سوائل المذانب . والنكب الرياح
عواصف عواصف . قواصف قواصف . والسحب الدلاح (٧)
هوامل هوامل رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بقات . وما مع مقامه وثباته مقام وثبات . وسرنا
عبايد في لبايد . وبين جليد وجماميد . على الناقورة وطريقها .
والاثقال قد ازحمت في مضيقها . والاحمال تتواقع . والاجمال
تتقاطع . والسبل تنسد . والسابلة ترتد . وسالكت الخيل الجبل .
وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل . وتأخر الثقل . الى ان
تخلص . وتقدم من سبق وتخلص . ووصلنا الى عكا في ثلاث
مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب
البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الامر وتدمير
الكفر . واذا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جاولي . وكان من جملة
الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي
صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السلطان لعلمه
ببيانته وأمانته . وبأسه وبسالته . وبقوته ونهضته وحزامته . وكله
بحصن كوكب الذي على الغور . وكانت فيها جمرة الاسبتارية
القريبة الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم . واشتدوا
بمنعتهم . وهو حصن لايرام . وركن لايضام . ومعقل لايسامى
ولايسام . وذروة لا تفرع . ومروة لا تفرع . وعقيلة لا تفرع . وبكر
لا تخطب . وقلعة لا تطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت
الحصون في سلك الحصول . وظفر الاسلام بالفتح المأمون
والمأمول . وافتتحت طبرية وأعمالها . وتملكت أغوار تلك البلاد
وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر
فتحهما . وتعسر منحهما . وقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهما .
فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة
والحمية . ومقدمهم مسعود الصلتي أصلت سعادته منه سيفها

إصليتا . لا يلافت عن لقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصر . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أذس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكوتهم . وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حذب . واستسهل ما صعب . وأخذ بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ما أمر وحلا . وكان ذا بين متين . ومكان من النسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . بارية مقشعرة . أنوارها بائنة . وأنوارها جائئة . وهزيع جناحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مشيب . لا يفرق فيها السماء من الأرض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسديف اسرار . أضمرتها الغمود . والعدم قد لنا منه الوجود . فما أحس محمود المحمود . وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدرُوا على الدفاع . فجاءتهم السعانة . وفجأتهم الشهانة . وبقي الأمير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع . فلما عرف السلطان ما أصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد إلى الجنة مآبهم . فندب إلى كوكب صارم الدين قايمز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المفوار . والأسد الأسد . والأحمى الأحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدّة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول إليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستقيما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل
للأمال فيها نجاحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح
النصر من مطلعته .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عودته من صور

استأنن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأنن له وودعه . بعدما
أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثل له واتبعه . وودع الملك
العادل وأوجه إلى مصر . مستقبلا الظفر والنصر . وأقام الملك
الافضل بعكا مستقلا بالأراء . ومستتهلا بالآلاء . مستبدا بتدبير
أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم
لخدمة السلطان ملازمين . ولإقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب
اننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من
عنينا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت
الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج
الودق . (٨) وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح
الاطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد . وتجللت بأبراد الجليد
من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام
تواصل البوارح والبوارق . وبخل السلطان الى المدينة . وسكن بها
في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما للحجة
المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وأبرام معاقد الحل
والعقد . واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح
والفضل . واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافانة الكرام والكرام
الوفود . واعانة ما بدأ به من افاضة الجود . واجازة الراجين .
واجارة اللاجين . واسعاف العافين . وابعاد العالين . وابناء أهل
العلم . واغناء ذوي العدم . وانجاح المقاصد . وانجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من: الروم، وخراسان، والعراق . عاكفين على بابه .
قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابيه . مستسعين لنعمائه .
مستعطفين لآبائه . متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه .
وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهواه الى سبيله وقد تعذر
بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون
الاولى . وتقاشرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي .
فما منهم إلا من يعترف بيمينه ويعترف من يمه . ويقر بحكم النزول له
وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة
لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء
والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلى ايناك بن
بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالكهمذان،
واذربيجان، واران . وهو عز الدين الطالب للعز . الراغب في
الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول .
ويتصل به رسول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشري
وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا
فرتبها . وفي أمورها فهدبها . وفي مضارها فأنهبا . وفي منافعها
فقربها . وولى عز الدين جرديك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده
الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين
منها قطوفا . وأسدى معروفها . وأعطى ألوفها . وأرغم من الأعداء
أنوفا . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا
للمتصوفة . والوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة
للمتفقه . والطلبة المتعفة المتزهة . فجمع بين العلم والعمل .
والنجاح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب
مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل ما يحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها . ولا اجرا
الا اجراه . ولا هدى الا اهداه . ولا امرا الا امره . ولا دارا الا
أدره . ولا فريضة الا اداها . ولا فضيلة الا اتاها . ولا فرصة
صواب الا انتهزها . ولا حصنة ثواب الا احرزها . ولا رمم فواضل الا
انشرها ونشرها . ولا امم فضائل الا حشدها وحشرها . وماترك
قارئاً الا قراه . ولا راوياً الا اشبعه وأرواه . ولا حافظ حديث الا
حفظه من الحدثان . ولا محسن صنعة الا اصطنعه بالاحسان .
ولا ناظم مدائح . الا نظم له المنائح . ولا موافياً بقريض إلا وفي
قروضه . وأعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي
بالتردد في الاعمال . وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال
وتعليل السقم وتسقيم المعتل . وتحليل العقد وتعقيد المنحل .
فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق
الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من
دار الخلافة إلى رسالة في العتب على أحداث ثقلت .
وأحاديث ثقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعائيات في
السلطان عثت . في الأحوال . وشعثت . وذلك في شوال .
ونحن على حصار صور ونزاع ونزال .
ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الأكبر . وخص وعم النجع الاظهر . وقطع دابر
المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين . أمرني
السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق . وتقديم البشرى به إلى
العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح من الله عظيم . وملاك عظيم .
وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما انزله الله
لنا من الرحمة والرافة . الا من هو عندنا أجل وأجلى . وأعلم

وأعلى . وأجمع لفنون الفضائل . وأعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه
بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولا ينيه لهذه المقامة الا القويم
النبيه . ولا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فان الشريف يتضع
شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بذكرت . وموهبة
ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما
ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادى من الاجناد . قد هاجر
للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله . ونبه بعد خموله . فسأل في
البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغذا . وشفع له جماعة
من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر . فقلت هذا لا يحصل له
وقع . ولا يصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير .
وفي هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول من يندب التفهيم
والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعظيم . ثم سار المندوب .
وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس
أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندي .
فلم تجل به على كفوؤ الجلالة من الهدى الهدى . وحقروه . وما
وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به
من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب
المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بكلام اخذ عليه .
وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة ذكره . ما
يعرض عن ذكره . فخيّل وموه . وتنكر وتنكره . وظن أن لكلامه
أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانتهت الى العرض الاشرف مقالاته .
وعلمت جهالاته . وتجنني على السلطان بارساله . وطرق الى هداه
ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله . ووجد الاعداء حينئذ الى
السعاية طريقا . وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقا .
واختلقوا اضاليل . ولفقوا اباطيل . وقالوا هذا يزعم انه يقلب
الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام
الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العزيز
على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي وانفائه .
وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفل لنا في كشف سر الامر
بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتظم في سلك

والدعي بها داع ، والهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما
أرحت من رق الشرك الساحل . أما ازحمت عن حق الملك
الباطل ، أما فتحت البيت المقدس والدققة بالبيت الحرام ، وأدقته
رداء الاكرام . وأعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب
بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا
بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الفريزة .
فأهلاً وسهلاً بالرسول . وبالسول وحباً ومرحباً بالاقبال
والقبول . ومأتى الا بالحب والحبور . ولامرار الامور . ولاظهار
سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصاادق يرام اذا
وعد ، وماأسرنا بالواصل وأوصلنا بالأسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا
بالبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وأبدى لمعي . وجمع
شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي واصبحت لقدمه
انتخي قأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقديم
لجلالة قدمه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة
بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار
الكفار ، ومواطن اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل
الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبي
الحب ، وسفر وجهه لوجهة السفير . وأحل محل التوقير
والتوفير ، وتبلغ له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأميل . ثم
حضر عنده . وقد اخلي مجالسه لي وله وحده : وأدى الأمانة في
مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت
المعرفة والتذكرة ، فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها . وألزمته حكمي
عمومها وخصوصها . ووقفته على ظواهرها ونصوصها . وكانت
في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلظة وخيلت سقطه ، وجلبت
سخطه ، وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ اللفاظ .
والاسجاع الفلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً
وارفق وأوفى منها فضلاً وارفق . ومعان الله ان يحبط
عملي ، ويهبط أمني . وامتعض وارتمض . ثم اعرض عما عرض
ورجع الى الاستعطاف . وانتجع بارق الاستسفاف . وقال اما
ماتمحله الاعداء وعدا به المتمحلون . وتنفق به المنقولون وتسوق

المبطلون ° فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة ° وماهزرت منذ
اعتزرت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بالنعمة
السالفة ، يوجب أنفي من هذه الآذنة ، وأما النعت الذي اذكر ونبيه
على موضع الخطاء فيه وذكر ° فهذا من عهد الامام المستضيء
رضوان الله عليه وجري لتحققه مني على الاسنة . ومتي عد سيئة
ماعد من الحسنه ، والآن كل ما يشرقني به امير المؤمنين من السمة
فانه اسمي الذي هو اسمي واشرف . واطراً وأطرف وأرفع
وأعرف . ومازاه ذلك العتب الاخلاص ولأه ، وخصوصاً اعتزاز
واعتزاء . ثم قال كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر اعداء امير
المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وما تعبت به سواه . فاني
افترض الطاعة الامامية للدين لا الدنيا ، وما اتقوى فيها الا
بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع
دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن
العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعد
الاباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجري
اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر زعر الخاشي . وجرب غش
الغاشي . وخرب عش العشي . وذوت هموم ذوي الهمم ، وأوليت
كرامة اولي الكرم ، وما زال السلطان مدة مقام أخي عنده ، يوري
في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تكدر ذات
البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة من
الأكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له : قد نسب حقك الى البطلان .
ورميت بالبهتان ولحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت
وما عفت والفتت ومما انفتت . ورغت ومما غرت .
وصبرت وما سبرت ° وأغضيت لما اغضبت ° وأعتبت لما عوتبت °
وراقبت وما راقبت وما روقبت

فقال تذالي للديوان العزيز تعزز به أبن . وتوسلي إلى مرضاته
توصل بالله فيه استعين . فتواضعي ترفع ، وتخشعي
تورع ، وحبل حبي متين ، ومكان قربي مكين . ومما قلت له
واضحت له سبله ، انا كنا بطاعة امير المؤمنين نطول ونصول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت .
ووسيلتنا التي نجحت وكتابها مسعوبين . وعليها محسوبين . وقد
شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشاعر
يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولا تثبت
لمن لا يثبتك ، واعرض عمن تعرض لذهب الخلاف ، وادوره اجتلي
واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر
بأن يقف به على مواقف الطهر التي ظهرت من أهل الرجز
والرجس ، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي الذفس وبالف في
ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى
الديوان كتباً معه وبعده ضمننتها كل ماحلا وجلا جنة وجده ، وكل
ما يبطل سوق المتنفذين ويعطل نفاق المتسوقين . ويهجن خالق
المختلفين . ويزيل تلافيق الساعين . ويزيح سعاية الملافقين . ويتعرف
الى العوارف الغر بالشكر ، ويسـتعطف العـبـواطف الغر
بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه
البشر ما عليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا
ومضى مامضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالوقوف في
عرفة لابداه رسماً ما عرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطاً ، وذلك ان أمير
الحاح طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به
بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت ذفره ، ولما نمي
الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الازعان وقال لاشك ان
طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان
العزیز هذا من ندوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد
سنتين .

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي ضاعف الله
علاءه ، وظاهر آلاءه وضافر نعمائه ، وأظفر ببالنجم
رجاءه ، وأضعف حساده ، وأعز أوليائه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه
بالإيمان مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد
مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معاليه بقهر
النقم مقفرة ، ودالة على البشرى بالفتح الأكبر ، والنجم
الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الأبهـر . والفضل الأكثر .
والافضل الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر
الأسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الأبلج
الأبلغ (٩) ، والعز الأسمق الأسمى . والذور الأنم الأنمى .
والظفر الأجل الأجل . والوطر الأحـل الأحلى ، والشرف الأسنم
الأسنى . والعزم الأغـم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى . والصيت
الأبدى الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهـاب الفتوح . وتبوح
بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتروح وتغدو غواـدي
النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي
لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر
المشروح ، وتذوح ناعية الكفر في كل ناحية ولكل نادبة للأسى على
قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس
الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سجنه
واستحكم وهنه ، وقوى ذكره وضعف ركنه ، وزاد حزنه وزال
حسنه ، وأجـدت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوفه
وفارقه امـنه ، واشتغل خاطر الاسلام أسبابه وساء ظنه ، وذكر فيه
الواحد الأحد ، الذي تعالى عن الولد ، وان المسيح ابنه وأربع فيه
التثـلث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهيـم مقتنه ودرج
الملوك الأقدمون على تمنى استنقائه فأبى الشيطان غير استيلائه
باسفار صبح امرنا وأشراق مطالع نـفـانه ، ونخر الله هذه الفضيلة

لنا ولهذا العصر . وأنزل على نصلنا نص النصر . وأطلع الليل
عزمنا فجر الفخر ، ووقفنا لوصول اسباب الاسلام وقطع دابر
الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع اهل
التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا
من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفر
والباس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصد الفرنج
فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بردهم عن
المراد وصددهم ، وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ،
وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا سلك امدادهم في ذلك
المسلك ، حتى وصل الحاج سالما . وذل الكفر عن قصده
راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا
الى الكرك في الامراء والمفرين الخواص . وشفعنا للجهد في سبيل
الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا استدعينا العساكر والجموع
للجهد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمرنا ولنا
الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ،
وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربنا عماراتها ، وأحرقنا
غلاتها ، وقطعنا ثمراتها ، وأزعجنا ساكنيها ، وأخفنا
أمينها ، وأجلينا عنها فلا حياء . وأقمنا الذوائج عليها في
نواحيها ، ووصل اليها ونحن بالقريتين العسكر المستدعي من الديار
المصرية ، فقويت به قلوب الأمة الحممية ، واجتمع بالمخيم الافضلي
برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية ، والجزرية
والموصلية والديار بكرية ، فسانتھز ولنا هناك فرصة
الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا
سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وسبوا وسلبوا فلم
يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، واخذت دون
خروجهم الى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال للرياح
العواصف ، وشرعوا الى عراني الكفر اسنة الرماح
القواصف ، وكان مقدم عسكرينا مظفر الدين بن زين الدين ومعه
مملوكنا قايمان النجمي صارم الدين ، فلقيا بصدريهما صدور
العوامل ، وحملوا في عسكرينا على الفارس والراجل ، وحصل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من
الفرنج القتل والأسرى ، وعاد المسلمون بالأسرة العظمى والبرية
الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشري ، وشكرنا الله
على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الأخرى ، ولما قضينا الوطر من
تلك البلاد ، ووفينا بأحراق اقوات أهل النار بالنار حق
الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا
دلائل الظهور وتظاهرت إمارات النصر . عدنا إلى الشام . وقد
تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج
الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام
الفتام وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشرا
(١٠) شهرا . وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها
جها . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها
مها . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم
فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك
الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب
الصلبوت . وقائد أهل الجبروت . فتهافت إلى شعله ناره
فراشهم . وتوافى إلى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامه رعبهم
قائمة . وسوايح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية
وسراياهم طالعه . ومقدمات رعيهم منا السائرة لجذوبهم وقلوبهم
مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجة وعجيجه على
الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم
العرض . ويدلو مشاهده لتتزل الملائكة (والله جذود السموات
والأرض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الأعداء . عالية
كهمم الأولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في
كتائبها نازل القضاء . وسحب نيل الأرض بمثار نقعها . على
السماء . وقطعنا الأرض . وتأيد الله مواهل . وقدره بأقدارنا
على الأعداء كافل . فمنا الممنا بسطرية حتى فتحناها
بالسيف . وبخلناها بخول المغير لا بخول الضيف . وتسلمنا
المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث
والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يؤم الخميس . وأسد

الوغي قد اتخذت من وشيجه العريس . هذا والملك العادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية . ان نلاقي الفرنج على صـفـورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغر بالأقحوانة (١١) . وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج في مجتمعهم . واشرفنا عليهم في موضعهم . فما برحوا من مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتدنا في صحراء لوبية موضعا المصاف واسـها . وفضاء لأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اسـباب الظهور ميسرة . وجـئنا في خـواصنا والجنادرية . ونزلنا في العدة المجربة على طبرية . واخذ النصابون ساعة النزول في النقب . فصرع قائم سورها للجنب . ودخل الناس اليها ليلا للنهب وكانت ليلة مدلهمة معتمه . وارجاء المدينة مظلمة . فأشعلوا وأوقدوا . وبخلوا الدور وتفقدوا ما لم يفقدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان عاقت بها النار . فاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصن اهلها بقلعتها . وتمنعوا بمنعها . فأصبحنا على حصرها . وسالكنا جدد الجدد في امرها . فجاءت رسل الأمراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهم الندم كيف تركت وما ادركت . وأنها قد عبت جنودها . وشبت وقودها . ولبت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغازت في غدران سوابقها السابرية . وفاضت ببحار سوابقها الأعوجية . وان جمرهم قد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهم قد اتوا في عيدهم وعييدهم . وحدهم وحبيدهم . وخيلهم ورجلهم . وطلهم ووابلهم . وفارسهم وراجلهم . وأحزاب ضلالهم وابطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخواتهم نار الحمية . وساقوا الى معترك الردى وملتقى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . والجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر
القاسي . ولعلت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت
قوانس قوامصه . وارتفعت فرائص فرافصه . وامكنت فرائس
فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بدوساوسه . وماجت بحار
سلاهبه . واشتعلت نيران قواضيه . وشدت الاجادل دون صوار
صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات
بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتتما الفرصة في
اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسرعت الاعنة . واشرعت
الاسنة . ونقع النقع . (١٢) اوام الجو . واجاب الصدى دوي
الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح
السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرمـرم
عارم . ومجر جارم . وعوامـل جـوازم . وصـواهل
صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت
اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسـوايح قد اقلت
بحورا . وصقور قد ركبت صدورا . ووقفناهم نهار يوم الجمعة
وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصـفهم لا ينفذ
وجدارهم لا ينفذ . وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران
محصوص . حتى نخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات
الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعي الموت بتلييتهما . واصبحنا
يوم السبت واهل الاحد على حالهم ولم يريموا مـوضع
قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣) تتواثب
وتتناوب . والسواعد بقرع الطلي سواع . والرواعف في زرع الطلي
رواع . والمنايا تن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور
لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في
اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجـوامع النيران
شواب . وضماثر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد
تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامرار امـراسنا
والهجير يتلظى وقد قد عليهم بناره . والا وام يتوقد ولايتوقى
احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة
للارتواء . فأخذنا عدامهم ووقفنا امامهم . وحـالناهم عن

الورد . والجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل حطين . وصرنا بهم محيطين . وتحسكت فيهم قواضي القواضب . ونشبت من الذشاب بهم نيوب النوائب . وكان جمعهم جمرا وقد وقد . فصب عليهم السيف نهرا فخمدا . وفضوا بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجاج بالقتلى والاسراء . واسر الملك واخوه . والابرذس الكركي ومؤازروه . ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص (١٤) . وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتياي . فاما القومص فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم اهل الجبروت . وحيز صليب الصلبوت . وبار وباد اولياء الطاغوت . وهلك عبدة الناسوت واللاهوت . وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت . وقدمنا الابرذس وضرينا رقبته وفاء بالندى . وعجلنا به الى النار مأوى اهل الغدر . وألحقنا به الداوية والاسبتارية . وادنا عليهم صبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبي من نجيعهم . وقربنا سيد الافلا من هريعهم . وعينا الى طبرية فتسلمنا قلعتها . وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثم سرنا الى عكا ففتحناها بالامان . واعلنا بها شعار الايمان . واستقربنا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير حدود فانها امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفر غير سورها . وانها وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتح اخواتها . وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدانا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعة ثلث عشر رجب * فـرجف بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصمون . وانهم من بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنقات هدت احجار السور بسورة احجارها . وائن ركوعها بسجود الابراج في اجبارها .

ووقت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القل لا قالة مادام
بها من العثرة . وكشف النقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل
جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبي الدار . وأيقنوا بالقتل
والاسار . فخرج مقدموهم متذالين بالاذعان . مبتهلين في طلب
الامان . فأبيننا كل الالباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي
الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم
البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا .
فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفي منهم
بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق .
وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من
التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر
قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها وبخلت قبة الصخرة
لفضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي
الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهدها . وشوهد مقام المعراج
وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . ودنا المسجد
الاقصى للراكن والساجد . وامتلا ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد .
وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجلت
هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر
رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح .
وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لاجلها من تبار
التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما
من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد
اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان
المجال . وهو الحرمين ثالث ولا تذليل في حرم توحيده . فتجدد جد
الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدبيره . وقضينا حق تقديسه
وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي
صور سدور الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شر ذمته .
وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا
عليها المنجنيقات فنكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من
مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها . وان اجمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤنن بأصحابها . واذا تسلمناها
تسلمنا بأنن الله كل بلد للفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقع
بهم واق . ثم رأينا ان حصار صور يطول . وان مسألة بيكار
(١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفوت . وله وقته الموعود
ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل
الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء ، وتواصلت
الانداء . ولا بد من استئناف جمع العساكر في ايام الربيع .
واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا
عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . من يديم شن
الفارات عليها . ويواظب على النهوض اليها ، وفسحنا لاجنادنا في
الاستراحة مدة شهرين الى النيروز . فان في تلك الايام تتوفر
العزائم على المبارزة والبروز . وقد جرت المواعدة على المعاوية .
والمعاودة للمعاودة . والمعاهدة للمساعدة . فليس في الفرنج من
يقاقل الان على الخيل . والنهار عليهم في اظلام الليل . والعز
متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حربنا
مثير للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعاقل
المبينة . وهي: طبرية . عكا . الزيب . معليا . اسكندرونة .
تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صفورية . الفولة . جينين .
زرعين . دبورية . عفرى . بيسان . حيفا . صرند . صيدا . قلعة
ابي الحسن . جبل جليل . بيروت . جبيل . مجدل يابا . مجدل
حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصافية . التل الاحمر .
الاطرون . بيت جبريل . جبل الخليل . بيت لحم . لد . الرملة .
قديتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشقيف . ولم
نذكر ماتخلها من القرى والضياح والابرار الحصينة الجارية
مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها
اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواقع . وقد جاس المسلمون
خلالها . واسترعوها ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصدنا البلاد .
وعرضنا للجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سيف الدين ان
يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه
الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون)
(المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل
الى السواد في سواده وبياضه . وبجار جيشه وبراضة . وورد من
مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش
بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل
من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها عنوه . ونال
العسكر منها بالنهب والسبأ حظوه . ثم حضر مجادل يابا
وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك
الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد
مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الي ان نفتح ما في
جانبنا من البلاد وننتسلمه . وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصده
ونفتدمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصافورية .
وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها
سلامته غنما . ورضي بالفرم رغما . وتسلمنا نحن تبينين وببيروت
بالامان . بعد ان قاتلنا اهلها قتالا شديدا الجاهم الى الازعان .
فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة
السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى
خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك
العادل على عسقلان . وهان لنا كل ما استصعب منها ودان . وظهر
لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لمارمينها بمصائب .
واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحيالها
وعصيتها . واقتدنا بخزائن الكرة انف الطاعة من عصيتها . وصافحنا
ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها . وباشرت سهام المجانيق
بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى
احجار البناء فهدهتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب . ولما ايقن
اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسلمين
مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم
وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر
منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعبنا اليها
العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعازل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة
بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب
والطافه المذفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناه الله
من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لملوكنا حسام الدين
سنقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها
بحق منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو
عروسها البكر في حسننها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله
التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم
النعمه . لازل المجلس مشكور الشئمة عالى الهمة . منصـور
العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بعكا وربيب الربيع رضيع . ووشي الروض
وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض
وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار
منيع . واريح الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيح . والدهر قد
ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . والمحاب مهاب . وفي الشعاب
اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون
النرجس مصفره . وشفاه المنابع مخضرة . واحداق الحدائق
الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت
متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنه .
وجفون النوار متوسنة . والافنان موروقة والورق متفنته . وخذ
الخبري مورد . وحد العراق مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه
الجلنار قد تخرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل .
وشارب الذبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سري
وسر . وطبيي الطيب قد حقل ودر . وتقاضي السلطان غريم عزمه

بدين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العرين . فأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقه . ونشر بيارقه . وحشر رواده وبوارقه . واذفق خزائنه . واذفد رفائنه . وبذل في صون الدين بيناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتال العدى فيه لهج المحب المفرم . ولعزمه وهيج اللهيب المضرم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتركب . فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السلطان ورازه . واستصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تطول . وان مسألته تعول . وان محاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرتة . واضاقته في مضايقته . وان مافي هذه الحال اقتضى تعذر افتضاخ عذرتة . ولا مطمع الآن في فرع ذروته . ولا قرع مروته . وكان في خواصه . واهل استخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللاشغال مدبرا . وبالاستظهار متأيدا . وبتأييد الله مستظهرا . حتى رتب على قلعة صدف خمسمائة فارس . من كل محرب للحرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لمرابطها بالليل والنهار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق والباطل خاذل . وكان سعد الدين كمشبه الاسدي بقلعة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك في الشرك . بمعتكريومه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعت اساسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها
مستديمة . وحصل ولدها هذفري بن هذفري في قبض الاسار وقيد
الخشار . وغمه الانكساف والاندكسار . فلما يسر الله فتح البيت
المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت
صاحبة الكرك متعرضة للخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت
مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة
عقيرتها بالابتهاال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا
من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة
خسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تزدند ولدها . والهة بخل
الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطالقة مأسورها . ثانية عطف
العطف لواحدتها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها . سائلة في
فلذة كبدها . جائلة بجذوة كمدتها . باسطة يدها . نائرة خرزات
دموعها . عائرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها .
ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بذوحها . عاجزة عن بوحها .
وخرجت معها زوجة ابنها ابنة المالك . كأنها من بنات الفلك . بايا
صبح وجهها اليق (١٦) في ليل شعرها الحالك . مشرقة من
اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به
شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة
عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة .
معتزة متذلة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة .
مستدعية مستعدية . عاطية مستعطية . ساكية عبراتها . راكية
عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملاكة في
زوجها المالك خاطبة واقرمها النذب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك
عانيها . وطلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم
السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر
زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم
من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرقيعة . وخصهن بمالاق بكرمه
من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملاكة فانه مكن
محلها . وجمع بالمالك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها
على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . ودخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هذفري من دمشق اليها واقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنهم وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها . وعددوا عليها الذنوب واحصوها . وأفدشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسببوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكالما لا ينتهم خاشنوها . وكالما قاربتهم بايذوها فوجدت ذبوة نوابها . وعدمت إصحاب أصحابها . وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوبتها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن ، ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر ، فانها لما الت بالشوبك الت من شوب كدرها واملت نفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فأبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال زعرها . وأعلمها بان ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرغد والرغد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا . الى صور . واستودعت السلطان ابنها الماسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لحاصرتها . ويفي بمصايرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عزاغوتها . فلما رتب

- ٥٩٢٠ -

السلطان هذه المراتب . ورب هذه المآرب . أقام حتى وثق
باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مآبره في عمارة عكا

اختلفت الآراء في أمر عكا فأنها كانت مدينة متخرقة . وبيوتها
متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بلا سور . ورأوا أن في
إبقائها خطرا . وأن في إخلائها ضررا فمن أصحابنا من أشار
بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قال إذا
صينت عكا ملك البحر . وهاك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية
قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قائل بإبقاء برج الداوية
لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أبنائها . ومن قائل نجدد
سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على
أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح إقفالها .
وأجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلها . ويحلي عواطلها . ويتوحد
بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها * ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان: ما أرى لكفاية الأمر المهم . وكف الخطب الملم . غير
الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمام المحرب . الذقاب
المجرب . المهذب اللوذعي . المرجب الالمعي . الراجح الرأي .
الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامع . وتعديل الجوانح .
وهو الثبوت الذي لا يتزلزل . والطود الذي لا يتحلحل . بهاء الدين
قراقوش الذي يكفل جاشه بما لا تكفل به الجيوش . وهو الذي أدار
الأسور على مصر والقاهرة وفات وفاق الفحول بأثار مساعية
الظاهرة . فنامره أن يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

ونؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بالحضور .
لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل . متحملا
للثقل مذشرح الصدر بالعمل . مذفسح السر والامل . مبتهجا بالامر .
ملتجعا بالشكر . وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب
العمارة والالاتها وأدواتها . وانفارها وأبقارها . ورجالها وعمالها
وعمارها . ومهندسيها ومؤسسيها . وحجارتها ومعماريها .
والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير للنفقة والذهب
الابريز والرقعة . ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب . وحضر
الموكب وشرف باسني الخلع وأعطى الملابس والمركب وفوض اليه
وقلده . واسعفه من عنده واسعده . وقوى جانبه . واعذب مشاربه
وأوضح مذاهبه . وانجح مآربه . وأجد جده . وكثر مدده . ووفر
عدده وعدده . وخصه بعطايا . واستخلصه لوصايا . فتوجه الى
عكا وشغله متوجه . وعزمه متنبه وسره مترفه . وفكره في رياض
الهدى متنزه . وامره ماض وحكمه قاض . والله عنه راض . وقام
بما أقيم له . ونهض بالعبء وحمله . ومشى بكفايته عمله . وشرع
في التعمير والتسوير . وتسوية الأمور بحسن التدبير . وسياتي
شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه . وما ظهر من حسن اياتيه
واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره
من الرسل .

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد . واستعلائه في
الجهاد . وتارجت الارجاء بعرف عرفه . وأرخت السير بمحاسن
وصفه . عنت الامصار لمصره . وأعنت الاملاك لملكه . وانقادت
الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح .
وشروح ايراده واصداره تحل في صدر الزمان المشروح فتهيبه
بالضراعة كل عظيم . وتأهب له بالطاعة كل اقليم . ورهبه ملوك
الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه أهل الاشراف . فكاتبوه

مستسعين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خالف الامتزاز . والاتشاح والاتحاف بخالف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . وليده وقدمه من تمكينه وتأييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوصل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولا يقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الانعان . وسأل الاحسان . وأدى في المودة الامانة . وأبدى للرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب الندب . وأنفذ أكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعند اهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولا تصرف له في ملك ولا مال الا بتصريفه . ولا تعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشديد المقاصد . وتجديد العهود . وتأكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقبل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالمدلول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتكذب فيه عن النهج المسلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب . وأعزه بنزوله في نراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقى تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وابتعد ببناء مأربه مارابه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأولاه لولائه . وعرفه بالتعريف الى الائه . ونصبت له خيمة مسرده . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مفدقة . فأقام أياما بيا من مقيم . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام .
ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين
سكمان بن محمد بن قرا أرسلان وافيا موافيا . باحسان الخطبة
وخطبة الاحسان . راغبا في تميم الوصلة . وتعميم الصلة . أخذا
لصاحبه ملك بيار بكر عهدا محكما . وعقدا من الميثاق مبرما .
وقد أحضر قضاة بلاده شهودا . واقتضى لصاحبهم بحضورهم
عهدا . وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل . ومت بكثرة
الشوافع والوسائل . وكان خائفا على آمد فانها من فتوح
السلطان . ووهبها لأبيه نور الدين بن قر أرسلان . فاشفق من
استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع
بلاذه من أكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة للمظاهرة . وان يفتح
بها باب المزاورة للموازرة . فأواه الملك العادل الى ظل هذه
المواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم
يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده
الامائل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد
مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك بيار
بكر بمكانه . وسار صاحبه بالاسار مسحوبا . وعاد نيله بالفخار
مسحوبا . وقال له : قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركك فالى
سواه لا تركن . وما من كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه .
لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب الى آخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم
رأينا انه يطول حصرها . ولا يقوت أمرها . وان الفتح يبطل . وان
كان السهم لا يخطى . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من
الحصون . بالمقام عليها وابتدال سرها المصون . ورحل السلطان
نحو دمشق طاهر الشيمة طاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء • ودخل اليها يوم الخميس
سادس شهر ربيع الاول • بالصدر الارحب والباع الاطول • وتلقاه
أهل البلد بوجوه لاقباله متهلة • وألسنة بالدعاء له مبتهلة • وعيون
لاذواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه • واسماع لامره مستمعه •
وأيد إلى الله في نصره مرتفعة • وصدر بآيامه مذرحة • وأمال في
انعامه مفسحة • ونفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة •
وأعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة • ودخل المدينة • وأدخل
اليها السكينة • فوجدت الروح بسطانها • وعادت الروح الى
جثمانها • وقرت به عيون أعيانها • واقرت له بحسنها واحسانها •
وابتدا بالجلوس في دار العدل • وبحضرة القضاة والعلماء من أهل
الفضل • واسترفع قصص المتظلمين • واستمع غصص المتألمين •
وكشف الظلمات المظلمة • وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل
قصة • وقراها بكل حصة • وحقق الحقوق • ورتق الفتوق • وأقام
للشرع السوق • وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق • وحل بانصافه
كل مشكلة • وطب ياسعافه كل معضلة • واصحت سماء السماح •
وأصبح جراح النجاح • وأعدى المستعدي • وأروى الصدي •
وحيا الحي وأورى الردي • ومجد المجدي • ومهد الحق حتى قيل
هو المهدي • فما انقضى ذلك اليوم • وانفض أولئك القوم • الا عن
مظلوم أجير بالحق • ومعلوم أجري من الرزق • وعالم أعين • وظالم
أهين • وهاد زين • وعاد شين • ومختل سدد • ومنحل عقد ومعتل
شفي • ومعتز كفي • وما حل جيد • وأمل زيد • وركن حق شد
وشيد • وخن باطل أبير وأبيد • وراح أدنى فوزه • ولاح أسني
عزه • وجلس يوما آخر للاكابر والامائل • والاكارم والافاضل •
فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهدى • وكر
الكرم • وفر العدم • وحفل الدر ودر الحفل • وشمل النظام وانتظم
الشمل • وصان العلماء بالبذل • واعان بافضاله أعيان أهل
الفضل • وفاز بالحمد وحاز الشاء • واجاز الشعراء واكرم
الكرماء • وروح الرجاء • وأولى النعماء • ونعم الاولياء وتقاضاه
عزمه بالحركة لاستفاضة البركة • واستضافة المملكة الى المملكة •
فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار • ولم يثبت في جفنيه غرار • ولم

يبت الاوبين جذبية لحب لقاء العدى اهل النار . وكان الصفي
ابن القابض قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة دارا .
وأذهب في نضارتها ذهباً ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مطلة
على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن
الغوطتين . صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهو . شهية
الزهور . مجدة لأهل الجد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد .
وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ستورها . وأعلى نورها .
وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأسمى
أنوار مشارقها . وتوصل الى حضور السلطان بها وجلوسه .
وذهبت تبشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقرظ
بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه
بنشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب . وكل
مطر مطرب . وظن ان السلطان تروقه تلك الحلية والحالة . وتلك
الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعة المقدسة .
وذلك المشرف العالي . وذلك المشرف الحالي . وانتظر نظـر
استدسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا .
ولا لمحة بطرف استطراف . ولا منحه حرف استعطاف . بل اعرض
بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضارة . وغض عن تلك
الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة . فالعاقل من
لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل النوازل منزلا . ولا
يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الفرور اريب . وكيف
يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغم .
وقال السعيد من يبني دار الآخرة . وينجو من امواج الدنيا
الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصفي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخزانة
على مكانه . وسمعه يقول في بعض محافله . وقد جرى له حديث
من يفرح بمنزله ؛ كان من ذنوب الصفي عندي انه بنى لي تلك
البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال مايعمل بالدار من
يتوقع المنية . وماخلقنا الا للعبادة . والسعي للسعادة . ومايخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومالنا والمقام في البلاد والبلد .
وما جئنا لنقيم . وما نروم (الا) ان لانريم . وما تحركنا الا
للسكون . وما سهلنا الا للعود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحة
الا من مغرس التعب . وما يجنى نصيب المغزم الا من مغرم النصب .
قأين الأين . الذي تقر به العين . وما يحصل السكون في المسكن .
ولا يكمل الوطر في الوطن . لا سيما والدين يطالبنا بدينه . والكفر
يستقرب منا حين حينه . والبلاد ساء به . والبلاء هائبه . فلا تفوح
الفتوح الا بهبوبنا . ولا ينزل النصر الا بركوبنا . وغدا للحزم
متمما . والعزم مصمما . ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق
بالغرب الماضي ، والحد القاضي . والجمع الوافر الوافد . والجمر
اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قد اقبل
بقبيله . ووصل برعيله . وقدم بجده . وا قدم بجده . وانه حل بحلب ثم
سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش للنجدة والجدة جامعا .
فأرهدف العزم السلطاني خبر وصوله . وحل بالشد للرحيل عقد
حلولة . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة
والذبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبرها . واستقام
مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثرها . والسلطان بنجح
سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطولة عالم وبقوله عامل .
وبعبارة قائل . ولا شارته قابل . فأراد السلطان ان يقدم بإلقائه
الاجتماع . وبرأيه الانتفاع . ويستتير بذوره . ويستشير في
اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه
ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني السعاده من مطالعه .
واجتنى جني الارادة من صنائعه . واقتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه .
وجاءه بالوجاهة في دينه وديناه باسعافه واسعاده . وكان قد خرج
الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى .
فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الاول على
الرحيل . فقصده لابرام ما وجدته في مملكته من الامر السحيل . واقام
عنده في الجوسق الى الظهر . مستظها به على الدهر . حتى كشف
مهمات مهماته ورشف شفاه مشافهاته . وانتجى معه في الاراء
والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل
الفاضل وشيعة . وبات تلك الليلة مخيما بالعراة . محتما بالسعادة
راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سلك في جبل يبوس الى عين
الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخالق ومتبعه
والخلق تابع امره المطاع . واتى بعلمك المحروسة . وخيم بمرج
عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادبرها . وقسم لها من عدله .
وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليها بحكمه .
وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من
المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية
امر الرعية . وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة
الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة . معصوم النبوه .
مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر
قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد
كحل عتير العسكر طرف الجو الامر ، (١٩) وقد آن لعين الشمس
الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع من الزراعة من
السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق
ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

به ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامع
من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قدس
(٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدومه
تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهر الشرك
ونصر الايمان ، فركبنا وابن زكاء في اسفاره ، والصبح قد زحف
على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهاره نهاره ، وسرنا
بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب
مقبلا ، ولما راه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملقاه ، ونزلا

فتعانقنا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقرب مخيمه ، وجثمنا
وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجندان ،
وسعد الجندان . وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظامان
واتحدت الكم ، وأتأتى الهم ، وسأل السلطان ان يوازره ويزوره ،
ويحضره بحضوره حُبوره ، فساق معه الى سرادقه وارتفع في
صدره . ورفع من قدره . وصار العسكران مختطلين . وجلسا
منبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين . وقرأ
القرء واورد الشعراء . وتجادب بينهم اطراف الطرف والاداب
الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن
الهائم . ومن عادته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم . فأشد
مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البساط . ومدت
الموائد . وعادت العوائد ونضد الخوان . وكونت الالوان . ولونت
الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهارة من كل حاجة وباجه .
وخروف ودجاجة . وحلوحامت (٢١) وحامز وحامض . وتفه
(٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصنوع ومقلي . مطاب
مذاق مذه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من
ناديه القري . وفرع بأيديه الذرى . قدم ما عده للهدايا . والتحف
السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعهد المعجبة .
والاسلحة المذرية . وكل ما يروق ويروع . ويضئ ويضوع . تم انفض
النادي عن ندي منفض . وسدي ليكر الشكر مفتض . وعين
السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده . وانه يستضيف فيه
خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمارقة . وضرب
بيت الخشب له لحسب بيته . واسميت الحسنى بحسن سمته
وسمته . واحتفل بحفله . واجل لاجله . وارجت ارجاء النادي
بالند . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على
البسط ما حضر من الياسمين والورد . وفاح النثر . ولاح البشر ،
وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . وشرعت القباب .
وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح الذوافج .
ووضحت مناهج المباهج . ووضعت المطارح والمساند . والاسرة
والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصحبه . فتلقاه

السلطان بـرحبه . وقرب له السرير وسر بـقربه . واجلسه الى جنبه .
وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس
رسمه . وسما في الرؤوس اسمه . ووقف الامراء والحجاب .
والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتزاز في
معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندى مجيبا . والذرا رحيبا .
والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل مورودا . والحفل حافلا .
والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والنشاط مقبلا . والمرئي عاليا .
والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخير جليلا جميلا .
والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمان
جليا . والربيع في انتهائه . والصنيع في اشتهائه . والمصيف في
ابتدائه . والمضيف في انتدائه والنعيم في نضرتة . والاريب في
اربه . والطروب في طربه . والضرب من الخلق الحسن في
ضربه . وكانت ايام المشمش وقد وصلت من دمشق
احمالها . وحلت في تلك الحالة حالها . وأقدم الجند
قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبر
مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية
حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى
من السكر . واعبق من العبير . واحسن هيئة من النارج
الأحمر . والليمون المركب المدور . وقد زفت عروسه في الثوب
المصفر . والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل . وخلط
بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربه مثل
الثل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر . وما
حظر ما حضر . ورئي هناك لقطوفه قطاف . ولطوافيره
طواف . ولعقوده مصارف . ولذقوده صيارف . فكأنها وجوه
العشاق اكتست اصفرارا . أو جمرات تشتعل نارا وتبدي
شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بل هي
احداق الحداق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه
البرق . وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت
من مهابة الجنات الجناه . وانتظمت من جواهر الحيا
للحياة . واضطربت لهاها شوقا الى فتح الالهة . ثم صرفت

الاطباق . ونظفت الآفاق وبسط المكان . وسمط الخوان . ونبهت
اجفان الجفان للقدور الرقود . وشبهت المراحل لغليانها بصدور
ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي الذشاشة . وتزينت مقار المقاري
بالبشاشة . ومادت اعطاف الموائد بالالطاف . وتهادت اكناف
السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخطوب
المطبـوخ . والمقلو المقلوب . والمحبو والمحـبـوب . والاغنية
والحمان . والاشوية والحملان . والالبان والالوان . والجوابي
والروابي . والصواني والاوني . وقد صفت البوارد . وصفت
الموارد . وتنوقت الطهارة . وتنوعت المشـهـاة . وحلت
الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط .
وعاش اخوان الخوانسلار الغابط . وتداولوا وتناولوا الذوات
والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحدوذا
مورودا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا
مسعودا . وصنعا محمـودا . ولما فرغت الموائد . وبلغت
الماقصـد . احضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من
تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصون . وعراب جياذ من
طوائف الطريفيات . وسـوابق سـوابح من العتاق
الأعوجيات . والمذاكي المنسويات . من كل مطهم مطهر
الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صافي الاليم . ومـعـرب
مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سلهب . وبحر
جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيطم . ويعبوب صلدم . واجرد
قؤود . وضامر قيدود . وأقب نهـد . وجواد ورد . ومسح رفل
طمر . واشق امـق غمـر . ومفرع طمـوح . وعتيق غير
جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختر منها كل طرف . قد
حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشهب قرطاسي . واشهل
سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم احوي . واشقر
مدمي . وابرش مدبر . وكمين مضمـر . واخضر وادبس . وسـمـند
اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحف اللائقة . والطرف
الرائقة . والعـدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات
والدروع والزريات . والرؤوس والرانات . والخـ

والتراثك . والبواتر البواتك . والدلاص الموضوعه . والنصال
المسذونه . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحم
والديقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تـونه
وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على
الذمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده
متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مقترنم مقترنح . وامره متحبر
متربح . ووده متـرح متـرجح . ودعاؤه صالح . وثناؤه
صاح . ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده
ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي
بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد
ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي
العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها
وعقرها . والنزول بعقرها . وانها اذا ملكت ملكت
طراباس . واسفر عن صبح فتحها الغلاس . واقام العسكر اياما
على قدس . وبقبس النصر قد تأنس . ولسناء الظفر قد
توجس . واتي العرب . وواتي الارب . واجتمعت الجيوش
وجاشت الجموع . وأن الليل العزم المدلج من صبح النجـح
الطلوع . ونبتت الفيوض من النعيم وقاض الينبوع . واينعت ثمار
المبار وطابت اليزوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة
تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى
الجهاد هـوادي الجياد . وادينا قطاف الطفاف الله لاجتناء
الاجناد . وكانت الاعشاب بالشعاب واصية . والشوائب من
المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار
الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر . وطاف الذعر . وقال
ذفر الشرك ذفر . ولانسقرر . وتشاوروا وتشاوروا . وحاوروا
وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من
الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على
التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر
عن الاثقال . وتجراً على اخذ اهبه القتال . وسار السلطان ومعه
عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك ويدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهو الذي حين يوارى صارمه
المشهور في نجيع العدى لزنذ الظفريوري . وصحبه من فرسان
العرب كل فارس معرب . ومن شجعان الاكراد كل فاتك
محررب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصنايد كل
كسروي كاسر . وكل كمي كميث . واكديش على اكديش . وقارح
على قارح . وخضم على سابح . وجري جار جارح . وبهمة
وبطل . وجبل على جبل . وفحل على فحل . وذمر نكل وورد على ورد
ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس
اليس . واحمي احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وباسل
ذي باس . وعاسل عاس . ورئباك على رئبال . ومشتمل على
شكال . وبحر على بحر . وصقر على صقر . وركبوا
سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا
بالذوايل نيولا . وطار ابليس طرابلس بخوافي الخوف . ودام
الجوى في رعب اهلها بدم الجوف . وما سار الا من خفف في
نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكدار . وصفت
على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقرت . وتعمرت
العريمة وتعقرت . ومزعت تلك الاعمال ومزقت . وارهقت
وازهقت . ونفرت انفارها . وبقرت ابقارها . وملئت بالدوائر
ديارها . وسيقت مواشيها . وحشيت بالنيران اوساطها
وحواشيها . ونزل السلطان على حصن يحمور فما قدروا
يحمونه . وابتذل مصونه واستخرج مكنونه . وفتحته
ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقام في تلك الديار عشرة ايام
يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها ونفوسها . ثم رحل
بمغنمه . وقفل الى مخيمه . وعاد العسكر مسرورا
منصورا . محبورا موفورا . قد اطلع من تلك البلاد على
العورات . واضطلع بالفنائم في تلك الغارات . ونكا منها في الاعمار
والعمارات . وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرح يموج بالعساكر
موج البحر الزاخر . وقد وصل قاضي جبلة يحث على
قصدها . ويحض على انجاز وعدها . ويحرض على اعذاب
وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقول

ان الاشتغال بطراباس مع احترازها واحتراسها . وكثرة
ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها للحصار . وتجذبها
عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما
وراءها من المعاقل . قنينة الحابل . وفرصة للمتناول . ولهنة
للآكل . ونغمة الناهل . وامنية العاقل . لم يفترع عذرة امنها
ذعر . ولم يفتأ سورة دفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان
سلكنا سبيلها . ملكنا سلسيلها . وان جزنا ساحتها . حزنا
راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها
حويها عتادها . وان افتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة
مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم مذكم بالنعيم .
فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه . واصفى السلطان
الى قوله . واصفى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له
العطاء واكملة . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . فوفر لهم
رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالماهوب
واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياعهم . واجمع
السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجحافل . ورحل يوم
الجمعة رابع جمادى الاول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي
المنصل . فسرنا في اجام مؤتثبه . واكمام معشبه وحزن
وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . ورواب
وهواجل . ومغايز وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا
الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك
النواحي المواحل . ومعنا احمال واوساق . واثقال
واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل
عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل
العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد
نشأ العجاج كعجاج الذشاص . فانحلت بدلولنا معاقد
المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه
سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحن في استباحة
واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياح وارتياح . وفتك
باعداء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور ، وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل
ويل ° فما نقطع الا وابيا يغيظ الكفار ، ولانحضر الا نابيا نزيدهم
به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى
وصلنا الى أنطربوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من
البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها
الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس ، وقابلتنا
ساعة ، فلم يجد اهلها للدفاع استطاعة ، وودخلت من جوانبها
وتخللت من مظاهرها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها وفل
غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها
وأطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما
هناك من أحكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم
مقدمهم الذي اطلق من الأسر ، وفي البرج الآخر المنهـزـمون
الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر
الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم
الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه ° ومكن كل
منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه
وهده ، وحل من احكامه ما الكفر شده ، وركب النقب على ركنه
العالي ، ونكبه في ذلك اليوم بما تكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب
الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية
بدائها الدوي ° واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم
الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطربوس
وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج
تركناه ، وما كانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح
برج عن البلاد ، ولافرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك
الجدد الاحب لا يعرج على بنيات الطرق ، ولا يستغني مدلج الليل
بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين
على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من اهلها
وتخلت ° وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على
الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسـبتارية عالي
المنكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلك تلك الطريق ، وقد صفت الفرنج في البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل والراكب ، وفوقوا الجرح الجرح ، وسددوا الزنبورك للقـرح والطرح ، فحسر العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الأعواز ، وذلك ان صاحب صدقية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العابية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغيط . قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله واسطوله ، وصوله وصوله ، فما أحلى ولا أمر . ولانفـع ولاضر ، ولا استقل ولا استقر ، ولانقض ولا أمر بل صار على الفرنج وبالا ، وحدث لهم بما يسومهم من مؤنثه امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفع ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتلد وأبلس ، وتفرقت جماعته ، وتجنبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولا يظهر له رأي ولا يرى له مظهرا ، فتقطعت اقطاعه . وتتابع في الفرار اتباعه ، حتى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسيرة ، وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جوانبه ، قد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتي الى هناك وتصفيها ، والسـتائر وتـأليفها ، والقـراس وترصيفها ، واقعد من ورائها على مقابلة سفن القـوم وازائها ، الكماة النخية . والرماة الجرخية ، حتى تباعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمت عليها المحن ، وأنحت الأحن ، ورحل العسكر فعبر أمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس ، وقد أجفل عنها الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجنابات الوادي مريضة ، والذسيم العليل بليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصبحنا على الرحيل مبكرين ، (فساء صباح المنذرين) ، (الصافات ١٧٧)
وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سرور وجمعنا في اجتماع ، وجدنا في ارتفاع ، ونهجننا في اتساع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهو مطرد من الجبل الى البحر ، فازبحم العسكر عند ذاك النهر ، وتواقعت الاحمال والاثقال عند العبور ، وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذاك الجسر ، وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده . وعانت الاثقال في تخلصها من الشدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل الى القرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطئ هذا النهر ، وساحل البحر ، حصينة البناء ، مصونة الفناء قد حصنها الاسبتار ، وحسنها الاسبتار وقطعوا عنها سالك الطريق ، بتعميق ذاك النهر المخترق ، وأفينا بلدة خاوية على العروش . حاوية للوحوش . خالية من الأذنس والأذنس ، (وكأن لم تغن بالأمس) (يونس ٢٤) ، وقد انزعج اهلها ، وتششت شملها ، وتخوف أمذوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكافر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضع في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعز الاسلام معتصمين ، وعلت على السور الرايات الناصرية
المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجت القلوب
المحبورة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في التحين الى
الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قال انه بحصانته
ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصن البلد وهو المعقل
الأكبر ، وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الأمان بعد قبض
الرهائن ، على ان يعيدوا من استرهبوه ، في انطاكية من
أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا اليها كل مالهم من سلاح
وعده ، وخيل ونخيرة وغلة ، وتسلمنا الحصنين يوم
الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بالكرام
جبلة جبلة ، ونفت عنها بالفتة المقبلة ، الفتة الشقية
المختلة ، وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة
بالرخاء ، وافضى اليأس بهم الى الرجاء ، وفاؤوا الى
الوفاء ، وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد
العصيان ، مصافحين بالمصافاة بالايمان أيمان أهل
الايمان ، وكان حصن بكسراييل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحه
الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضي
جبلة مذعنين بايمانه مؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقائه محيين .
ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجوا بالاستبصار
والاستغفار والاستنفار ، وأضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وذلك
الناحية على سكانها حانية ، وتلك المدينة لأهل الدين دانة
دانية ، وتلك الجنة العذبة الجني لورد دم الجنة من شوك القنا
جانية ، وتلك البنية لمعالم المعالي في هدم اساس الاساءة
بانية ، وتلك الهضبة راسية ، والتربة كاسية والرتبة
سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحالة حالية ، واقام
السلطان بها اياما حتى أزال شعثها . وأزاع خبثها ، ورأب
صدعها ورب ربعا ، وشاد ركنها ، وشد حصنها ، حتى أزال
كفرها ، وجبر كسرهما ، وجد بها جذبها ، وحض بها
خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبالرعاية ملأها

والرعية كلاًها ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملاكا نفيسا ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور الاولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الفوز يصممه ، وأمر لأمراء الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين يقفه ، وحد في تدمير الماردين يرهقه ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار يشعلها ، وجيش للوثبات يذشطه ، وجاش بالثبات يربطه ، وهيبة تروع الخواطر ، وهياة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مباسين ، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة منهم خافقة والاندية بهم متضايقة ، والمهيج في سوق الردى نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر النيل ، ومن السوابغ في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم في احتزاز ، ومن انتخاب الأجواء والجياد في انتقاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاز الرياح بالهواضيب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات تسرج والسريجات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضي • والصرائم تقتضي ، والقوارح تضمر ، والقرائح تخمر ، والضوامر تجرى • والبواتر تعرى ، والصلاد تلجم • والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تدوثر • والجاليشية تعبي ، والجاوشية تليبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مريح .

والمفخر متوضح . والجاش فرح . والجيش مرج . وقرح العدو
مقترح . وزند الافتح مقتدح . وباب السماء لنزول ملائكة النصر
مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من
موقها أماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها
الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا الذشاب الى أوكار المقل .
وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل
الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلال .
وأشرفوا من الشراريق قلقين متقلقين ما بين تلك القلال . وجدوا في
القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال .
وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرح دورك . وقلنا للكفر اخرج
لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك .
وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم
بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من
السور حجابة بالحجار . حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار .
وأخذت عليهم الذقوب . ووقدت منهم القلوب . وبلغ النقب من
الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة أذرع في العرض اتساعا .
وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على
رأس رأس راسخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها .
وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتال . وجاوبنا
بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضفائن .
وأثارت من مكان الاحقاد كوامن الدفائن . ودام الرماء . ومرريت
الدماء . وانتجع النجيع . ووقع ذلك الرفيع . فاستبطيء السريع .
وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعايذوا ماعانوه
من غريم الموت المطل في مطله . وفتح الحتف بابه . وحفز الزحف
اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمه المطلول مصابه
ومصابه . ونفر الناس اليهم . واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم .
والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم . وبواء
في بوارهم . ووبل الذبل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام .
وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزممع . ومنافيههم
الطمع . حتى ازبحم على التل الصغار والكبار . واستشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق
وأرهف فقبل خده سهم . فرجع وإذا وجهه طالق لاجهم . وهو
بقرحه فرح . والفرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح . وحسنه
القبح . فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولا يتركون .
صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس
والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله
مشيه . فانه موضع ما فيه مطعم . ولم يكن للكفر غيره مفرع .
وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الافتح صلحا
أشبه عنوه . وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلي
النور . وأشرق الفلق وزهق السيجور . وبدا الفجر وباد الفجور .
وسرت القلوب وأقبل السرور . وساموا القلاع بما فيها من عدة
ونخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم
وأموالهم . وانصرفوا بذنائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم .
وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا
بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا
بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من
خواص مماليكه . وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد
مصنونا من الاشراك وتشريكه . ثم ولى بها سنقر الخلاطي
مملوكه . وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه . فتولى الرعية
كافة بالرعاية والكفاية . وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية .
واقام جاليا للغاية . عالي الرأي والرأية . وركب السلطان الى
البلد وطافه . وهز إلى إحسانه أعطافه . وأبنى الى عدله قطافه .
ووفر الطافه . وأصفى نطافه . وامنه بعد ما أخافه . ورأيتها بلدة
واسعة الافنية . جامعة الابنية . متناسبة المعاني . متناسقة
المفاني . قريبة المجاني . رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي
كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون الكفرة منها جنان . أمكنتها
مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة .
ودعائمه منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة .
ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية . وقطوفها
دانية . وأسواقها فضية . وأفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها موزقة . وأرجاؤها فسيحة . واهـواءها صحيحة . لكن
العسكر شعث عمارتها . وأذهب نضارتها . وأزعج ساكنيها .
وأخرج قاطنيها . وملاك دوز المشركين للموحدين . وطهرها من
رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامراء الزحام على
الرخام . ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجوه
الاماكن . ومحووا سني المحاسن . وبظاھر اللاذقية كنيسة عظيمة .
نقيسة قديمة . بأجزاء الاجزاء مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة .
وأجناس تصاويرها متنوعة . وأصول تماثيلها متفرعة . وهي
متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه .
وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخوان الشيطان . وعينت
لعبد الصليان . ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها . وشوهوا
أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهد
أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابلاسها . وحكموا بعد الغنى
بافلاسها . وافتقرت وأفقرت . وخربت وتربت . ثم لما طابت
الذفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هذه الكنيسة
بالأمان القسوس وهي متشوهة متشعثة مستمسكة بأركانها
وقواعدها متشعبة . ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت .
وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بأنها
عادت للاسلام مرابع . ولسروحه مراتع . ولجموعه مجامع .
ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها
من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت . وشأت البلاد اذا
شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسلام الى أحسن
حاله . وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان
البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأض
مأمول الجني مأهول الجناح . وعاد بتجار البحار مملوء الرحاب .
وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار .
والاشرار أهل النار . وكانت شواني صدقية . قد قابلت في البحر
اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنياده عنها ودفاعها . فلما
خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب من
يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صونها ببذلها . فامتنعوا عن

الانتقال . وأمذوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم
الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة
مناها . فطلب مقدم تلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه .
فأمنه حتى صعد ؛ ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر
الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان .
وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك
رحيم . وقد شاع عدلك . وذاع فضلك وقهر سلطانك . وظهر
احسانك . فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت
عليها وأحسننت . لما كنت قيادها . اذا أعدت بلادها . وصاروا لك
عبيدا . واطاعوك قريبا وبعيدا . وان أبيت غير الغيرة والاباء .
ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة
البحار من يسد فضاء السبع الطباق . وأفاق للتناصر على دفع هذا
الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثار . . وخرج الفرنج
أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك
والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر المأتي . وهؤلاء أهون
منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان قد أمرنا الله بتمهيد
الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في
الجهاد . وامثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح
البلاد . ولا تكثر الاساد بكثرة الذقاد . ولو اجتمع اهل الارض .
ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد
الأعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على
وجهه . وركب بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في
نصره بين أنصاره يتهاذى وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى . وان العزم
عن الفداء بالمهج في سبيل الله لا يتفادى . وأخذنا على سمت
صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتون . وللإسلام محيون .
وكان الطريق اليه في أوبية وشعاب . ومنافذ صعب . ومضايق غير
رحاب . وأوعاث وأوعار . وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطرق في
يومين . ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صهيون
يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي
قلعة على ذروة جبل في مجتمع وائيين . بها محيطين من جانبيين .
والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وسور وثيق . والقلعة ذات
أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممثلة بذئاب سفاب * وأسود
غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من ذواحيها الأربع .
وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل السلطان
خيمته الى جانب الجبل بكرة اليوم . وشرع في محاصرة القوم .
وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغلاة السوم . وتوفرت سهام
السهام من المقل . وتبدت بنات الكنائن من الدم القانيء حمر
الحلل . وأسقطت دوامل المنجيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور
الكنائيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مرء الرماء .
وزخر دأماء الدماء * وطارت الحجارات . وحجرت الطيارات .
ودارت حميا الحمام على أولئك . واسـتنجدت ملوكنا الملائك .
وأدامت اليهم المجانيق والجروح والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك
الظاهر غازي صاحب حلب منجنيين * ونهـج بهما من جانب
الوادي الى رديء الأعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد
العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي
الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فإنه
اتصل بنا قبل الوصول الى جيلة من طريق حماه . وقد استصحب
الكماة الحماة . ومعه الرجال الحلبية . والمنجنيقية والجـرخية .
والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب
الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتال على
المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظاهر في تظاهر
ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعذفوان جلاله . وشباب
رهان مجاراته . وشبا برهان مباراته * وابـراق عوده . واشراق
سعوده . وغرة عزته * وميعه منعته * وصدر تصدـره * وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشوء اغتباطه • وفتاء
فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع بفاعه • وترعرع
سنه • وترعرع ركنه • وتسامي سيادته • وتراقى سعادته • واجد
لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واستلذ في سبيل الله
نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله ذوبا • ولأحواله
رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجارات
الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم الحصن •
وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر • فإله در المسىء المحسن •
وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا
تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصن • وهان بمادب فيه من
الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة • وطما
بحر العسكر بأمواله الزاخرة • وأزحم الناس في الزحف كأنهم في
الحشر بالساهره • وهاج الشباب • وماج العباب • وتسابق ذوو
الجرأة والقوة • وتلاحق ذوو الحمية والنخوة • وكان في قرنة الخندق
عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقه • ولم يتم تدويقه •
فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة • وتسوروا السور وتسلقوا •
وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا • وتملكوا الذروة • وامسكوا العروة •
واستولى على أهلها الرعب • واستشرى بهم الكرب • فتعادوا الى
القلة • وتقادوا من الخوف لامن القلة • وملك عليهم ثلاثة أسوار •
بما فيها من متاع وشوار (٢٥) • ونعم وأبقار • وصاحوا
الآمان • وبذلوا الأذعان • ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا
المكان • فما امذوا على المال والذفس • حتى قررنا عليهم مثل قطيعة
القدس • واغلقت دونهم الأبواب • وسير إليهم النواب • وما استقر
خروجهم حتى استخرج منهم القرار • وجبي الدرهم والدينار • وعم
الكبار والصغار الصغار • وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار •
ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله • وسائر ماحواه من ذخائره
وأمواله • الى الامير ناصر الدين المذكورس بن خمار تكين • اسد
العرين وامير المجاهدين • المقدام الهمام • والمطعام • فألفى الثغر
سداده بسداده • وامرع به مراد مراده •

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين •
ويوم الاثنين حصن بلاطنس ونذب الى كل حصن من تسلمه •
وسلكه في سلك الفتوح ونظمه •

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية
الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة
الله والنصر قد نزل . والكفر قد اتخذ . يوم الثلاثاء سادس
الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابح مائجة على ذلك النهر .
وحكم السلطان في القهر ماض بانن الله على الدهر ، وتسلم حصن
بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشريك نكاية حد
بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة
الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القل • على هضبة منقطعة .
عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في
أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها •
واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولا عليها طروق •
ولا فيها الطمع علوق • ولا للسهم اليها مروق • ولا للزحف فيها
مقطع • ولا للذر نحوها مطلع • ولا للطير في مراحها وكر • ولا للمكر
في افتتاحها مكر • ولا للوهم في توقلها مجال • ولا للفهم من تصورها
منال • ولا لها بمن يحتفل بها احتفال • وما عليها للنازلين عليها
قتال ولا نزال • ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل
الشفر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي
من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • وداومها بالحجارات
أياما • ولكم سددها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها • وابت الا ثباتها وثبتت على ابيائها • وأعيا
اعضال دائها • واستفحال بلائها • وخام الرجاء بالارضاء عن
ارجائها • ولو لم يضجر حاميتها لضجر راميتها • وسئم سائمتها
لتساميتها • لكنه وهي جلده • وهوى خلدته وخار قلبه • وحار لبه •
وخاف من الاقامة • وخاب من السلامه • وارتاح الى الراحة •
وسما الى السماحة • وعاج الى الانزعاج • وعاد لداء خوفه في
الاستئمان يطلب العلاج • ودعا الى الدعه • والخروج من الضيق
الى السعة • فبينما نحن في ترو وتفكير • وتخير للرأي وتدبر •
ونقول هذا حصر يشدد • وأمر يمتد • وعمل يصعب • وأمل
يتعب • ومعقل لا يختل ومعقد لا يحتل • ومقصد لا يدرك • ومورد
لا يملك • ومكان لا امكان لفتح • ورجاء يطول الزمان في تطلب
نجه • اذ خرج من الحصن • من يضرع في الأمان ويمتري ضرع
الامن • فشكرنا الله على تسهيل المتوعر • وتيسير المتعسر •
وتحصيل المتعذر • وتلقيح الرجاء من الياس • وتذقيح مناط حكم
الصحة عند اضطراب علة القياس • وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم
الثلاثاء • وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والارضاء • ليخبروا صاحب
انطاكية ويستأننوا • ويقبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن
ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك
مقفر والشجر شاغر • والكفر صاغر وفسم القهر منا لهم فاغر •
والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مئاغر • والحصن البكر مفتقر •
والدين المتأصل بشعب النصر متفرع • وطلع العلم الى ذاك العلم
الطالع • وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع • وكأنما عذبات
ذلك الراية مقالو الداعين ، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع
الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بأيدي الأيد
ايمان ذوي الايمان • فابتسم عن النصر ثغرا الثغر • وفرغ القلب من
شغل الشجر ، وسلم هو وحصن بكاس ، الى غرس الدين قليج
الساقى عدوه الموت بكاس الباس • وانتقل السلطان يوم السبت الى
مخيمه والاقبال جائم في مجثمه • وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة
سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واستطلق منها البررة
العانية • وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وما قطع

قرارها حتى قرر عليها قطيعه . وكلفها ماكانت له من المال
مستطبعة . وام تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج
حتى خربها عاليها . وعطل عاليها . وانجلى ثاويها . وانتأى
جاليها . وبقيت دمنة دائرة . ودمية عائرة . ورسمها عافيا . ورقما
خافيا . وربعا باليا . وصقعا خاليا . وعادت دارا دارسة .
مستوحشة بعد أن كانت آذسه . وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث
والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين ومن
نواذر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية . في أيام
الجمع الخمس المتوالية . بآء فيها لنصر أهل الجمعة بذل أهل
السبت أهل الأحد وأصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر
اليد .

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه . وسرنا سار . ودر الظفر لنا دار . وهي
احصن القلاع وافرعها . واحسن التلاع وارفعها . واسممق
الرواسي واسماها واسئم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق
اليها واشرف عليها . ثم استدعي الثقل واستحضر . وجمع بالفضاء
تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في
العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد
والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله الذيل ، فرأيناها قلعة شماء
في الذرى . لا تكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال .
مترامية في السماء ارتفاعا ، وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة
ونيفا وسبعين ذراعا . فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات
السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها
صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها .
وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسمها . وتحاجزت عنها
الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة
قلائعها . ولاطلعت الى التلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فكأن الصخور سلم نصورها . فإن
سورتها تنكسر دون الوصول الى سورها . ولما رأى السلطان انه
لا وصول الى نيقها بالمنجنيق . وان الاشتغال به يطيل زمان
التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك الحف . وذلك في
الاسباع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء . فقسم الناس ثلاثة
اقسام على السواء . وجعل الذوبة الاولى لعماد الدين صاحب
سنجار . الليث الهصار . والفيت المدرار . والبحر الزخار . والسيد
الحلاحل (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح
وعفاة الصفا . ونفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقدام . وشفاة
الاوام بعة الانتقام من الاقوام . واساة ذوي الاساءة باحسان
الحسام . وكساء عرى العراء اربية القتام . ورقاة اراقم الهانم
وسقاة حوايم الصوارم . والمزاق في حومة الردى رداء المآذق .
والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد
بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبار . ولاسع بحمة
الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولايس لباس الباس كالاسد
الباسر باسل . ومعتقد الدين . الربيني معتقل . ومعتد على العدو
بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ،
ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز . فانقضوا على
الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هذه . والصدى
يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال
تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقى . والمصاعب تلقى .
والمضايق تولج . والبوائق تخرج . والاكام تفرع والرجام تقرر ،
والصخور تربيد . والجلاميد تميد . ومازالت هذه الذوبة تنازل
وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وترد
وترد . وتصد وتصيد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجم . وتصعد
وتصعد . وتحمل وترجع . وتذكو وتنطفئ . وتبدو وتختفي حتى
كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبت . لولا انها لغبت ،
وسمت . لولا انها سئمت ، وألغيت هذه الذوبة خاصة ، لاهل
الحصن خاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا للتناوب
الاستبدال . ولما ظهرت في الذوبة النبوة ، وكاد جوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية .
والعزمه الناولية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف
الى الجبل بالجبال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاولع .
وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على ذلك
الهواجل . وترقوا في ذراها . وقرروا على قراها ، وتلبسوا
بجوانبها ، وتوجسوا من مثاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ،
وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها ، وبخلوا في مخارجها ،
وصارت الجروح تجوزهم . والجروح لا تحوزهم . والسهم
تعبهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم .
وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحنير من توريطهم
وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن اقبل
اغبطه ، ومن ادبر أسخطه . ومن تقدم قرظته . ومن تقاعس
أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم
تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا .
فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك
المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء .
وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من
غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار
صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة
الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة
الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا
والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتساقوا كالذسور . وطلعت القلعة .
وقلعت الطلعة . واقتضت العذرة . واقتضيت النصره . وأعان القدر
فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل
القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لا يهلكوا . فلما
سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا للضراعة التياهم
والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا
من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص .
عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة .
وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

- ٥٩٥٠ -

واحرزوا الذفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان
السلطان امنهم وحظرهم . وبقي اولئك الافراد بهم متفربين .
ولتجريدهم للسبي متجربين . وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا
وسبيا . ومارأوا لحق من شاركهم في السعي رعا . وحرموا
مارتفقوا به وحرموا الرفقاء . وحازوا دون الفانمين النهب
والاسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقة ظمئة . ولما
تسنى ذلك الفتح وتهنا . وتسهل ذلك الصعب وتهيا . عاد السلطان
الى خيامه . وعادت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت
زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها
حتى أظهرها وأحضرها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن
عليها بالاعتاق من الارقاق . وخل عنها وعن زوجها قيد الوثاق .
وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم
في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلم بعد البقات .
وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقد تجوعوا . وحظرهم وقد
استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهم
وقد استميدوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد ما هتكوا .
وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا . وجبرهم ونعشهم وقد
انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها .
فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضمر
بفضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمها والفرح في كربها .
وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان
بهذا الحصن على عز الدين بن المقدم . الكريم المكرم والمقدام
المقدم . والعظيم المعظم . والماجد المجد . ابراهيم بن محمد . فإن
هذه القلعة لتغرافامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهي لها في
السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان
هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيز بفتح
حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثوابها . وتفتحت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سافرت به عرائس الايام في
حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في انوار محاسنها . وهذا
الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة . وكأن حجره في
حجر حزن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ،
وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم
يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجا .
حتى أتت ايامنا ، وبنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجأه امرنا .
ووصل الينا ما هو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخرنا .
وذلك انا فتحنا من حدود طراباس الى حد انطاكية . وسقينا بماء
الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفارس الهدى الزاكية .
وجاونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه
الحصون التي فتحناها . والمعقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله
الى اجتهدنا في فتح احدها . لتعذر ولو أنجبت عساكر الدنيا
بمدها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفر ، وان
حصن بزيه لم يكن عليه قتال . ولا للوهم فيه مجال . ولا منصب
عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسالك طريق . وحضرنا لحصره ،
متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟
فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سلاحه ،
وتوغل الرجال في ذروته توغل النجوم في الافلاك . ولنصر الله اهل
التوحيد على اهل الاشراك . وفتحناه بالسيف عذوة . ودجا يوم المثلث
عليه يوم الثلاثاء ضحوه . فانا لما توكلنا على الله في منازلته .
واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العزائم
والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتساقوا الى القل . وسعوا الى الاجل .
في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (وما امرنا الا
واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى
الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في
الاعتصام رجاء . وقد نقصنا اطرافها . واستبحنا اكنافها .
وشفها نطافها . وعضدنا من رؤوس اهلها بحدود الصوارم
قطافها . ولم يبق من معاقلها الا القصير ودريساك وبغراس . وقد
تقدم اليها الفاتحان الرعب والبأس .

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورحجت اعماله . وحل اقباله
واقبل جلاله . وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد
دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد
الجساره . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح
وللمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجدنا بتأييد الله
في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع
الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش
الداوية بل عزيمتهم . وطالما اطال في التعدى أيديهم وعرائينهم .
وكاذوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون .
وركزوا بسكنى هذا المعقل الى الاسكون . فلما اشرقنا عليهم اشرقوا
على المذون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد
وجب ، ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم
مددات مراميا ومرامها . وراميناهم بها ليلا ونهارا . وارسلنا اليهم
امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكنا لا نذر في ارضها التي هي
في السماء من الكافرين يارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى .
واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى .
واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا
والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من
السور الخارج . وظهر فيه عروج الدارج ودروج الخارج . فطلبوا
على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه
الكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم
من وبيعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة
واصبح بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

ذكر فتح حصن بفراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بفراس وقد ضايقنا الاعداء
وضيقنا منهم وعليهم الذفوس والانفاس . وهي قلعة من انطاكية
قريبة . وانها في الشدائد لدعائها مجيبة . ورأيناها راسخة على
رأس راس . شامخة على عاص عاس . ارضها في السماء .
وجوازها على الجوزاء . متوغلة في الشعاب ، متوقلة على
الهضاب . مذسحة في السحاب . مضربة بالضباب ، مربة على
الرباب . متعلقة بالنيرين . متساقطة الى الفرقدين . محلقة الى
الذسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مطلع فيها لطامع ، ولا
مطمح للامح . ولا مالمح لطامح . وهي الداوية وجار ضباعها .
وغاب سباعها ودار دوائرها . وغار مفاورها . وغيل غوائلها
ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رثبالها ، ومذب ذئابها ،
ومدب ذبابها . وكوارة زنابيرها . ومغارة خنازيرها . ومرقب
صدقورها . ومرقد لسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها .
فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسنتنا في ظلماء
نقع خيلنا مشعلات السرج . وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمع
غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظر يقظته وارقد
عينها ، فأقام على سبيل اليذك . ودخل في حفظ جانبها في الدرك .
وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا . ويسومها من
الفارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه
الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء
الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع
جهات . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق أمره بالاذعان على
خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته . وما زالت
الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالذكاية يجاوبه . والصخور فيه
تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه . وألجأ
جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخرج مقدم الداوية
يستأنن في الحضور . ويسأل الأمن من المحذور والحل من

المحظور . ويقول انما قنينا بفراس بفراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعاقل لا يحميها الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالامس . وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد اولئك الشمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وأذن المتطاول فيها من تطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شعبان . وسر النصر فيه شار وبان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبفراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفاز . وما كان في الامراء الا كابر من لا يدعي سواه الا عواز فالزمه بهما ليعتني بحفظهما ، وحضه من عصمتهما على حفظهما ، فتسليمهما بنخائهما . واطلع من الذفائس على مستودعات ضمائهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة . والفرارة تساوى اثني عشرة بينارا . والقوم قد شارقوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنما ما في بفراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان من منبج هذا المالك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . وانهب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي من حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنها كانت مريضة على شفا

- ٥٩٥٥ -

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والذهب قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائهما وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على مافي يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصاها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الإقامة . وأبدى السامة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد انطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها . وقتلنا نحلها . واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى : (وان جندوا للاسلام فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن مذقذ للاسارى مذقذا ، وللاوامر مذقذا . وعلى المقاصد مستحوزا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي
وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجاح
المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعة
بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع
خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفاؤه وحسن
اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جزيل
منسكب الجود ، وذلك سوى ما غنموه من كسب وكسبوه من
غنم ، واستطاعوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه من رق
سبي . وادركوه من حق سعي . وأجدوه من غرض . وأدوه من
مفترض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة
الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجح . وسار
السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتاح الى
العبور على أرتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح ، ووصل
الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل ، والملك بها للاهتزاز
بقدومه في ملابس البهاء رافل ، وبخلناها وقد خرج كل من بها
للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي ، وشاهدنا من
النظارة عيوننا للمحاسن ناظرة ، ووجهوها ناضرة ، وقلوبنا
حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا في بسطها الى الله للابتهاال
بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء لساكنيها سكون
الدهماء ، وأقام بقلعتها أياما يسيره ، وألقى ولده الملك الظاهر أسر
احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت
الأمور بأوامره على النظام . ولم يرحل الا وقد خص عوامنا
وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل منقبه ، وأعان
بكل موهبة ، فما رآه والده مذل بحلب الا في أجمل حلية وأكمل
حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجد لعينه ولذفسه قرة
وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا
عن حلب مذقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا المتصلة
بدليلي الشكر والثناء ، وتذكينا طريق المعرة ، بسلك طريق
المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السلطان بزيارة
الشيخ الفقيه الزاهد التقي . ابي زكريا المغربي . وهو مقيم في
مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السلطان
على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى
بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حماة . وبتنا بها ليلة
واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جاحدة ، فان الملك
المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، قد كشف عنها

بإياله الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب ، وأعاد لها
بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابتة ومحبتة ظلا
مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولا تذكر
مع المعقل المرعية المرضية ، وهي ذات تل متبطح ، غير مترفع
ولامتساح ، فلما تولاهم بقي الدين قطع من التل ما كان
متواطيا ، وأتلع من التلعة جيذا عاطيا ، وعمق خندقها في الصخر
وحصنها على الدهر . وبني فيها الدور المرخمة ، والأروقة
المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها
بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة في الشام كل
مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من
الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على
رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجاسنا
بحضرتيه ورفعنا ، والنادي قد جمعنا ، والشادي قد
اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فما انفصلنا تلك
الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضل سني . وعدل
أحيي . ورسم نائل للسماح وأجري ، وزند سائل بالنجاح
أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرأ لذوي الحاجات
القصص ، وأزال من الظلمات الغصص ، وأنال لذوي الخصائص
الحصص ، وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا العنق بالذميل
(٢٨) ، وعبرنا مغنين على حمص وزينا في الوصول الى دمشق
على طريق بعلي بك الحرص ، وجئناها قبل شهر رمضان
بأيام ، وركنا الى ما أونسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل
باستهلalna أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما
لبث السلطان ولا مـكـث ، ولا نقض عهد عزمه على الغزاة
ولا نـكـث ، وقال لا نبطل الغزوة ، ولا نعطل هذه الشتوة ، وقد بقيت
صـفـد وكوكب وأخـواتها ، وبـطـول مضايقتها فنيت
أقواتها ، وقواتها ، فشتهز فرصة فتحها التي لا يؤمن
فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شهر رمضان . وحد عزمه
رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجوه الأيام
لأيايه البيض بيض ، ولسان الدهر في ذكر سيره وتسوير ذكره

مفيض ، وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجحه
مهيض ، وحديث اقدمه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان
مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعد من محاصرتها المضايقة
الناكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في
العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا
للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في
الأمور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدي
بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي دأؤه
معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنت ازواجهم ونفدت
موادهم ، ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحت عليهم مصايفهم
ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وأبدوا له ضراعة
السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسائل
تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يليذون والعادل يتشدد ، حتى
دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا
بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت
عن السلطان في بعض البشائر ، ما ألهم بحلاوته عن أرى
(٢٩) البشائر ، وهو انا لما عدا الى دمشق رأينا ان
لانسريح ، ولانثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح ، فقلنا نفتنم
هذه الشدة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة
الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب
قلوبا وعساكر ، وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن
صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت
البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماع الأصحاب ، وخرج
منه الفرنج وبخلة الأصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث
نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراك اشراكه منه على طرق

الاجتياز ، فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام ، واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقد كان هذا الحصن نيب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فالحمد لله على ما قدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحه ، وإدراك السعي فيه ونجحه

وقطعنا مضاضة الأحزان خائضين في بحار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشدونة اسبابها ، في اطلاب ابطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصبر قد نفذ . والنصر قد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العادل وظاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشد بالرأي والحزم ما الزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمة على التصميم ونخاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة السلعة ، وجثت المجانيق لاجتثاثها وحدثتها بألسنة أحداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وسمت الى هضاب تلك الأبراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجارة ، ولم نعطها من العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بها الحصن الراسي رأسا ، ولا الحجارة مسست منه ركنا ولا الذقوب باشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثامن شوال ، ونوعنا في افتتاحها الاحتيال ، حتى انن الله في الفتح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر
ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام
ولبى ، وعلموا ان صفد ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في
الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالأساد ، ونزلوا من
سماء العز الى ارض الهوان ، فأنذعوا للضراعة وتضرعوا
بالأذعان ، وأخرجوا اسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب
الأمان ، وصارت صفد المسلمين صفدا ، وكانت بالمشركين
هدفا ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر ردا
ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخد الرحمن
ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) (مريم ٨٩-
٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدع ، ومرفقا للشر قطع . وناظرا للعدو
غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويذا للباطل
شلت ، وقد امتدت ، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت
الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صور ، وأبدوا
بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فاندكس عليهم التدبير

لما عرف من بصدور من الفرنج ان صفد لنا صفت . وانها على
الفتح الذي يشفي اشدت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح
الدين عن قصدها لا يتنكب . وقد أقوت من القوة . وهي تهى ان لم
نعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها . وقل
ظهورها لظهور اقلالها . وهذا أوان انجائها وانجادها . وهي
مشرفة على العدم فدبروا في انجادها . فاذا قوينها وحميناها بقيت
عدة في العواقب . وعصمة من النوائب . فقال مقدم الاسبتار هي
كوكبنا المتلالي . ومذكبنا العالي . ومعقلنا المحكم . ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمنبع
المنيع . والمحل المحلى . والمعلم المعلى . وهي قفل من البلاء على
البلاد . وموئل من الخطوب الشداد . ولعلها تثبت إلى أن توافينا
من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا . فما تبطل
جداتنا . وما تخطي نجداتنا . واجمعوا على تسير مائتي رجل من
النخب . المعين لدفاع الذوب . من كل جرخي نخي . وكمي
أكمي . وجهم جهنمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلا .
وكلب كلب . وذئب سغب . وعاسل معاسر . وباسل باسر .
ومغوار مغور . ومتلوم متلو . وزمر متزمر . ونمر متزمر . وسبع
ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من
شياطين يجزون الجدون . ويمنون المذون . ويشيدون الشؤون .
ويهدون الهدون . ويحزون الحزون . ويفوتون الفتون . ويظنون
بالله الظنون . وقالوا لهم : كيف تمضون وطريق السلامة مخيف
وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقالوا
نحن نســـــــــــــــير ونصـــــــــــــــير في ضـــــــــــــــائر الكهـــــــــــــــوف
اسراراً . وعلى اجساد الاطواد أزارا . وفي اوكار المغارات اطيارا .
وفي اعماق السيول اكدارا . وعلى ظهور الريود اوزارا . نسري ليلا
ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلاج من الوتر . والنهج
وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر . ومن رام النفيس الخطير رمى
نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثم عزموا
على ما زعموا . وعملوا بما عنه عموا . وخطرنا الى الخطر .
وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا في الاكم . وتوغلوا
في الاجم . وتبطنوا في الاوية . وتمكنوا في الاقنية . واحترسوا
بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السكون . وكادوا
يصلون الى الموضع . ويحصلون على الطمع . ويدركون الطلاب .
ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحه . ويأسون بعد
اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده
وقيده . واتى به الى صاحبه صارم الدين قايماز واستغرب من
الاخر نجى هناك الجواز ، فأخبره بالخال . وان بالوادي مكمن
الرجال . فركب اليهم في اصحابه . والتقطهم من سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشقياء . وانتشر
الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجح راج .
ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحن على
صدف الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من
الانصار . حتى وصل صاحب قايماز بالا سارى مقرنين في
الاصفاد . مقوبين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد
اشفيا على التبار . فان السلطان ما كان يبغي على احد من
الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان للمنية . فانطلقهما الله
بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالا عند دخولهما . وامام
مذولهما . ما نظن اننا بعد ما شاهدناك يلحقنا سو . فعرفت ان
بقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما .
فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان تلك الكلمة حركت منه
الكرم . وحقنت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفر
من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير . وفتح الله علينا صدف
ثامن شوال . فشكرناه على ان مد النصر متوال . وسلمت القلعة
الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجئنا الى كوكب . ووجدناها في مناط الكوكب . كأنها وكر
العنقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بها ذئاب
غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحميتها بحميتها وابت النزول
على امنيتنا ولو بنزل منيها . واختارت العطب على العطاء .
وامترت خاف الخلف والشقاق للشقاء . وابت غير الالباء . وبصرت
بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمل الاصر . وترامت
على التعامي بالمصائب . وتعامت عن المرامي الصوائب . وقالوا لو
بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الأبد من العار .
ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فنتجلد للاضطبار . ونشد
للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا . احد نزال وفوقوا الجروح

المصمية . وصوبوا الصخور المربية ورفعوها المنجنىقات الموجية .
وتواترت زيارات الزيارات الموتره . وتناوبت نوايب الزنبوركات
المطيرة . واجتروا على الاجترار وجرى سيل الجراح . ودمنا في
الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرت الرجال . والتجريد للقتال .
وايتار الحنايا . وايتار المنايا . والرمي في المنجنيق . والجمع
والنفريق . والرقع والتخريق . والنقب والتعليق . والحفر
والتعمية . والحصر والتضييق . والهدم والرد والردم . والصد
والصدم . وكان الوقت صعبا . والفيت سكب . وتكاثر السيول .
وتكاثفت الوحول . ودامت الليم لدموعها مريقة . وبقيت الخيم في
الطين غريقة فلا لمركب مبارك ولا مربوط . ولا لسالك مسالك ولا
مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تعلق الاوتاد وتوتد الاقدام .
وهي الاطناب ووقوع الخيام وكأن الخيم مناخـل الانداء .
وعدمت الانوار لوجود الانواء . وفقد ماء الشرب مع سيل الماء .
والروايا ما نهضت . ولا نزعزعت ولا غمضت . والرواحل في الطين
باركه . والحياة فاركة . والعلاف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل
مستبينة . وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالذرد .
والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . وللمثوق (٣٠) ثقل .
وللقلق عقل . وما ثم الامانيط بالطين . وصعب علينا بصعوبة هذا
الامر امر اولئك الشياطين . فذقل السلطان خيمته الى قرب المكان .
لتقريب وجوه الامكان . وبني له من الحجارة ما صار له
كالستارة . فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا .
والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق .
والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجد الجد .
ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فحفت الاثقال بذقل الثقل .
وطاب المقام بالغور . وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين
وتحالت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما الحصن .
وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهن . حتى علق بعض جدرانها .
وطرق الهدم الى بنيانه . فتسلمه بامانه . وذهب سكون سكانه .
فاخرجهم راغمين . واخرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما
فيه . واصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقدة . ورجعت
اليالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جماعة فلم
يقبلوها . وخلوها وابوا أن يلاوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فدوليتها
قايماز النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهامها لاهية . وانتقل
السلطان الى المخيم بالقضاء . وحمد الله على قضاء التوفيق
وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعد ما
استكمل لنا مقامه بصدق الكلمة وجد اعتزامه الفتح والنصر. ثم تحول
السلطان الى ارض بيسان . وأزال البؤس . وزاد الاحسان .
واقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهر . واظهر من
الفضل ما لم يكن مستورا. وأعطى الأمراء والاجناد في إنفصالهم
دستورا . وسار معه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضح
الحجة لائح البهجة . وأوجها الى القدس في طريق الغور وزارا
للبركة . وتبركا بالزور . ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في
قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبرة . وعيد بها يوم
الاحد الاضحى . وأضحى بعد ما ضحى ، وقد اصحب مراده
وأضحى. وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها ونظم
أسباب أحكامها . وتديير أحوالها . وترتيب رجالها . وأقام أياما
يوضح الجدد. ويصلح ما فسد ويبشدر من الذفع ما فقد . ويخدم من
الشر ما وقد . فاذا وجد شعثا له . وان الفى نشرأ ضمه . وان
صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حقه . وان عثر على باطل عفى
اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وأثره. ثم ودعه اخوه الملك العادل
واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في
مورده ومصدره . فما عبر ببلد الا قوى عدده . وكثر عدده وواصل
بالرجال مدده . وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من
بيسان لعارض مرض سلبنى الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصنة
الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشفاء واهدى
عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قوي • وهو يبوب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حفظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها • ويعدل جوانح امورها • ويذل جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهي • ويسري ما هو • ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ما انتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور • وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لاثار الدولة في ايثار العدل تاليا • ثم خرج السلطان وسار على طبرية • ودخل دمشق مستهل صفر • وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر • وعز من أمن وذل من كفر • وحزب الهدى قد انس ونفر الضلال قد ذفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر • وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • وأحلى أحلام الحلماء • وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • واسدى المعروف وأعدى الملهوف • وانكر المناهي ، ونهى عن المنكر وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر • وأولياؤه جناة النصر واعدائه عناة القهر ، وایامه مسفرة ولياليه مقمرة • ومغارس ايديه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاليه في بيار الشدائد مقفرة • والملك بزهوة زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيقة • والدولة حق مدال وحقيقة وللجاء وافي جده والجود وفي عهده وللسماح سماء تهمع • والمراد مراد يمرع والوجود بالبشر بهجة ، ولللسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة والحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة
والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد
عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله
أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر
الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع
الندى • ومشرق نور الايمان • ومشرع فيض الاحسان • ومرجع
المرجين • ومفزع المتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين
ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ،
ومخفض جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجر نيول
المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار
افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن
التنزيل • وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة • وموام الرأفة • ومحمل
الامانة • ومحل الديانة • ومطاف الطائفين • ومعرف الواقفين •
وموقف العارفين • وقبلة المقبلين • وموئل المؤمنين • وكعبة
القاصدين • ومثابة الوافدين • ومعفر وجوه العظماء • ومكفر ذنوب
الكرماء • ومعصب السيادة القرشية • ومنصب الوراثة النبوية
والسدة الشريفة الناصرية • ودار السلام • وقبة الاسلام • فابتهج
السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السؤل • وسر سره • وأبر
بره • وصدر بنشر الانشراح صدره • وقدر على الاتسام بالتسامي
قدره • واحتفل بأسباب التلقي ة الحذف باثواب الترقى • وسأل عن
الرسول المندوب • للسؤل المخـطوب .
فقل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سـكـينه • وصل بالضياء
والسكينة • والاحوال الحالية المزيـنة • وكان وزير الخلافة يومئذ
معز الدين بن حـديـده • فعين لهذه الرسالة ابن سـكـينة حين عرف

اراءه السيدة * فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان واولاده *
وكان يوم مشهودا حضره اعيان البلد مائل العسكر واشهاده *
وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة * ثم جلس له في يوم
سعد صباحه . وبدأت في جبهة الدهر البهيم غرره واوضحاه . وملأت
طرفي الزمان والمكان افراحه * وجاء على وفق الآمال اقتراحه .
وختم باليمن والاقبال رواجه . وورد بكل ما بهج الاولياء * وأزعج
الاعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه * وثنى
عطف تباھيه وهزه . ورسا له طودا بالوقار في ايراد الرسالة .
وجلالة في مهب المهابة انوار الجلالة . وتلافظ له بالتفضل . وتطوق
منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده * الى ولده
عده الدين ابي نصر محمد من بعده * واخذ بذلك العهد على من
حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ما أولاهم الله به من
النعمة . واستظهر بما خص به من هذه المرتبة * وامر بذكر اسمه
ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشوكة .
والشكة . وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر .
ولم يبق من الامراء والامائل والافاضل إلا من حضر * واحضر معه
الدينانير ونثر * وتولى ذلك الملك الافضل فاعطاه ابهة ملكه وبهاء
فضله . وحصل الاسلام من ري رايه على نهله وعله . وندب
للمرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القاسم بن
يحيى . لينشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيى . وسيرت
معه الهدايا . والتحف والطرف السنايا . وأسارى الفرنج
الفوارس . وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليب
والصليب * والمالبوس والطيب * واضفيت على رسول الامام ملابس
الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضيآن لاضاعة مطالع
الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني
النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . واعتزت الاطراف *
وابتسمت ثغور الثغور لسدادها . وانتظمت امـور الجمهور
لسدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخزي الحاسد
الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاء . حتى
وصل الى بغداد * فتلقى الرسول بالرسول * وقوبل بالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيئة يوم قراعها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعها . وقد نكست بذودها واتعست اذوقها . وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها . ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها . ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها . والفي الوزير ابن حديدة قد عزل . وأقام في بيته واعتزل . وتصدر في الدست للنيابة . وسماع الخطاب والاجابة . من له المجد الاثير: الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء . وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولي سماع الرسالة وجوابها . وأولى صوابها ووالي صوابها . وسياتي في موضعه ذكر ما انتهت اليه الحال . وجرى به القول . وكيف شغلت العوائق وعاقبت الاشغال .

فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امثال المثل . وأداه من فرض الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام به أمر الدين والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من حباؤها . وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها . وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها . ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين . وأبرم من عقد عبوبيته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق المراضى الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى بين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده . وافتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وأنهى الى نهاية النهى . وأطاع
ما أطاق فيما أمر الله به ونهى . وما وضع الكتاب من يده حتى رفع
بالدعاء يده . وسأل الله لولانا وسيدنا أمير المؤمنين وأفد النصر
ومدده . وان يعضده بولده ولي عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيا
والدين . ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البركات . وأضت
الحسنات . وأضأت الكرامات . وراضت جماح الاماني المبرات
المبرات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المربيات . وعمت الميامن .
وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر والبواطن . وضمت بسكون
الدهماء اهلها المعاهد والمواطن . وصدحت المنابر . وصدقت
المفاخر . وصدعت الأوامر . وصدفت الفواقر . وصدمت قلوب أهل
الذفاق من بواعث الرعب والبواعث البوادر . ونقشت صفحات
الدرهم والدينار . ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات
الانواء والانوار . وعرشت اسرة المبار والمبار . ورفعت رغبات
الابرار . وسمعت دعوات الاسحار . ونزل النصر . وفضل
العصر . ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر . واصحب
الدهر . وسحت سماء السماح . وصح ارواء الارواح . وتضوع
نشر الانشراح . وتوضع صباح الصلاح . وطال جناح النجاح .
وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامر . وحسن الذكر .
وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشام .
وتبلجت ايا من الايام . وتروجت اماني الانام . وأرجت أرجاء
الرجال . وثبتت باسناء الأسناد رواية أمالي ري الامال . وقرت
الأعين وابتهجت بالسعد الطالع . وأقرت الألسن والتهجت بالحمد
الجامع . وقرت الأنفوس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع .
ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع في نفع الأوامر
(٣١) ونقع الانام مناب المنابع . وأرخت السير وسيرت
التواريخ . وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها
التضميم . وشرق المغرب من بشر البشرى . وانارت مصر من
حسن هذه الحسنى . وبسمت بسمة الشرف منابر الأقصا
والأداني . موافقة لمنبر المسجد الأقصى . وتطرزت الفتوحات
الفاضل عصرها . الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأظهر الأطيب . وعاد الزمان الى
اعتداله . وعاد العدل بزمانه . وتاب الدهر من عدوانه . وآب إلى
احسانه . ورجع الدين إلى سناء سلطانه . وفجع الكفر بعبد
صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . واستخلص من الشرك بلدانه
بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف قيوضه . وعتب
العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحدث الحب على
اقامة ســــنن الجــــهاد وفــــروضه . فقــــد
درت افوايق الآفاق . وذرت أشعة الاشرار . وافترت نضرة
الحدائق لنظرة الاحداق . وراقت أوراق الألوية كالتواء
الأوراق . وأزهرت البيض والسمر كازهار الرياض . وأنف غرار
الجفون في الاغماد من الاغماض . وتيقظت الاقدار للاقدار على
ايفاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول . وتنزل البركات في
انتجاع المراق من تجيع المارقين لا تزال نص النصر على النصل
المسلول . وقد أن ان ترعى الحشاشات منهم على رعي
الحشيش . ويطير الى اوكار المقل طير السهم المريش . وترتع
ثعالب العوامل في عشب الكلى . ويطن ذباب المناصل في لوح
الطلى . وترن رقاق المرففات في الرقاب رنين الخطب على
الأعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على
رؤوس الأطواد . وتحمل اشجار القنا بثمر الهمام . ويجيش
الفضاء المعشب بزهر الجيش الهمام . ويقطف ورد الموت
الأحمر . من ورق الحديد الاخضر . ويوقف حد الهندي الأبيض
على قصر بني الأصفر . ويجري في ورد الوريد جـــــداول
البواتر . وترمي من الحصون العايات الى حصون العدا جنادل
الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر
ضوا من الضوا من . وتتلى عقبان رايات الفتحة والكسر من عقبان
الجو بالفتح الكواسر . ويعبق ثوب الدارع من ردغ الثواب بسهك
الماضي . وتعلق في ملتقى التقى الفات السهمري . بلامات
السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي
مع الفرنج من معاقل المعازل . ويفرق بحر المجر الجرار ما تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق به من المدن المنيعه الا صور
وطرابلس . ومعال الكفر بهما في هذه السنة المحسنة بعبود الله
تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء مديونة . وعند الاتجاه اليها
مأخوذة . على أنها بوقم قومها عام أول موقونة . وحدود العزائم
اليها عند انقضاء هديتها مشحونة . فانها قد نقصت من
اطرافها . ودخل عليها من اكفافها . وجدعت بفتح حصونها
عرانيتها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المدشورة فيها
عريتها . فهي نهـزه لفتـرض . وطعمة لمقتنص . وسلعة
لسترخص . وبلغه لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخل البلاد .
ويستأنف بجهده الجهاد . ويستقبل الربيع بربيع
الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات
النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان ينجد جند
ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امله في تطهير الأرض
من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحديق رجائه . فالجحافل
حافلة . واسراب الكفر بين يديها جافلة . ومعاطف الاسلام في
لباس الباس رافله . ونصرة الله بانجاز عدائه في قمع عدائه
كافله . والحمد لله الذي وفق عبد مولانا أمير المؤمنين في طاعته
لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهره . واقتناء كل منقبة
حقوق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما
يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجد مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف اردون وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اصاب لناشق الآمال من نشره النشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الأول يوم الجمعة . بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتعة . متوجها الى شقيف اردون . ليقر بفتح العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . وأقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتى مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في أواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرج الوســــــــــــيع . والروض الوشيع . وأسمننا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط . وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولأجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من اهله ، وأظهر انه محترق من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل بيته يسليه . فأكرمه وقربه . وقضى اربه . وأجابه الى ما سأل . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهي (٣٥) غرب رغبه وأمهل . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في نايه بندا وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وتــــــــــــرميم مــــــــــــتهدمه . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع من سوق عسكرنا
الميرة . ويكثر فيه الذخيرة . وقد صدقنا كذبه . وحققنا
اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشغول به من عمارة
يجدها . وذخيرة يعدها . وثلمة يسدها . وقوة يشدها . وميرة
يستمددها . وكان بالمذكور سيد الظن . شديد الضن . لا يقبل ما
فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من
مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصديء بالتغير
عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج الى سطح
الجبل . وتحويل الخيم اليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر
جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر
فيه بالصحة عقيم . وكان المقصود ان الشقيق من عيانه
يقرب . واخباره عنه لا تعذب . فلما علم صاحب الشقيق
بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واستمسك
بالعصمه . وذكر انه متعزز بـذل الطاعة . وبـذل
الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخاف
له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وانه
يتربص وصولهم . ويأمل عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا
الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده الذكر الزكيت . واقام
بوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السلطان دلائل امه . وكانت
المدة قد دنا انتهاؤها . وقرب انقضاؤها . فانها الى آخر هذا
الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب
واغتمام . وحضر عند السلطان فقال ما اظهر به
الابتهاال . واستزاد الامهال . وذكر انه رقيق الامتنان . وعتيق
الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهن
وانه يبقي أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن انشأ
غرسا سقاها فأبقاه . وأشكاه فأزكاه . وأسماه فأنماه وقد
اصطنعتني ورفعتني فلا تضع الرفيع . ولا تضع الصنيع . وسأل
ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنه في حقه حسنه . وان يرخي
بطوله طوله . وان يشفي بشفاء ألمه أمه . فراقه قوله . فرق له
طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فكره . فغادر على عزيمة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما
حاوله . وأقام اياما يريده . ويخصه من الكرامة بما يجده . ثم
كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عذك ما
لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجحد ما عنه رقي . وانه كيف يلقى
بالكفران ما من الانعام لقي . وانه لم يسعد بامهاله في الشقيف
شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى
وثاقته . ليدخل الموضع ويأمنه . ويحضر بوصف ما شاهده
ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن
قد غيروه . وانه قد استجد في سورة باب . واستمدت له من احكام
احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياح . وعرف ان السرح قد
حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن
فلا يحوج الى مراقبته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة
المضروبة . والمهلة الموهوبة . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة
وتنقضي . وتسلم الحصن وتسلم وتمضي . فأبدى ضرورة
وضراعه . وقال سمعا وطاعة . وكان له ما قى وملق . وفي لسانه
زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى نوابي
في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا
عصيانه . وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا
العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه
الى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول
شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع
الخروج والدخول . والصمود والنزول . ويضايق غريمه
المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء
ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكك
رهنه . فخرج اليه قس قاس . بأسرع عن باس . فصادته في حادثه
بلغته . ونافته في كارثه بغلته . وتحاورا في السر . وتشاورا في
الشر . وكأنا امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس
الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد
وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم
استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلما لم يفد خطابه . ولم يجد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاء وشجته . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب لمحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهم بملازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحكم السلام . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الاحوال وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تواصلت الينا امداد البحر . فثربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور . وفارقوا بالاستطالة القصور . وجرت بين الماركيس المقيم بهما وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمكنه من دخول البلد . ولج معه في اللد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الأمر . ويصله من الأمر . ثم اتفقوا على ان يقيم بصور الماركيس . ويدوم منه ملكهم التأسيس وملكهم التأسيس . وانهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم . يتساعدون على رم ما تشعث من احوالهم . ويتعاقدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختلالهم . ويقصدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالذوازل اقامة المنازل . والماركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع ما يحتاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الغى الي هذه الفساي . وشرعوا فيما شرعوه . وفرعوا ذروة الأصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى

الأولى من اليك . ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعتك . وانهم على قصد صيدا الحصر . وقد جسروا على عبور الجسر . فركب السلطان في الحال فيمن خفف من ثقال الرجال واقتال القتال . وأطلاب الأبطال . وانجاد الأجناد . واجلاد الجلاد . والباندين المهج للجهاد . ووصل الى الملقى والشغل قد فرغ . والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت . والوقعة قد صدمت . والثورة قد انثارت . والسورة قد اسأرت . فان اليك لما شاهدت جاهدت . وتعاقبت علي لقائهم وتعاضدت . وخالطتهم . وباسطتهم . وواقحتهم وواقعتهم وجالدهم وجالدهم وحاردهم وحاردهم وردتهم وردتهم مفلولين مخذولين . وصدتهم منهزمين مثلومين . وقسرتهم وكسرتهم واسرت سرائهم . وبزت بزاتهم . وقنصت عقبانهم . وقصمت شجعانهم . وصادت صيدهم وفرست فرسانهم . ووقع في الاسر من سباعهم سبعة . وغودرت للذسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعة . واستشهد من الممالك الخواص ايبك الأخرش . وقد كان شهما بالوقائع يتحرش . وثبتا بالروائع لا يتشوش وانيسسا بالحوادث لا يتوحدش . وكما كمدشسا بالكوارث لا ينكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان . وكانت الدائرة على اهل الشرك والطفغان . وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليك . وقال لهم يعودون الي ذلك المعتك . فذستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم . وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم . واقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر . والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوي الظهر . وركب في ذلك اليوم . ليطلع من الجبل على القوم . ولم يكن له نية القتال . فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه . وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه . وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه . ثم ظنوا ان وراءه عسكريا في الكمين يحميه . ونفذ السلطان بعض الأمراء الى الغزاة الرجالة ليعودا فما قبلوا . وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وخدمت بشهادة اولئك السعداء ذلك العشية . ونفذت من الله في استشهادهم

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة
اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجرأة وصدتهم . وتزاحموا على
الجسر . ففرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا
ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجال . والحرب
سجال . ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على
العدو له قربه . فخاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من
المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعادة . الامير غازي
ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب
شابا . ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الفزاة . انقض في
اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة
لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه مواريده . وأوجد
جمعنا الأسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر
مساعي ذلك المساعد . وضائق القلوب . وفاضت الكروب . وألم
البوس . وألمت الذفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت .
ونذير حدث وحادثة انذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ
اصيبوا غير هذه الكرة . واذاقونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات
مرارة هذه المرة . فايقتنا من رقدة الفرة . وأخذ الناس
حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله
وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١)
وعبادهم هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزمة السلطان
على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبور الجسر
اليهم . والاحداق بهم من حواليلهم . وشاع صيت هذا العزم
وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل
البلا . بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا . وتسابقوا
وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل
واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق
وحوران . يجرون الى مر الموت . ويجرون المران . وتوافد من بالمرج
والغوطة . على الحالة المغبوبة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر
المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت
الفرنج من هذا الجمع . واناقت على القمع . وتعكست الى سور

صور . وعاین اولئك البور البثور . وتحرزوا وتحرسوا . وتوجلوا
وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمكن على غرتهم
حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى
تبنين . صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . لتفقد
احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا
جريدة . ورتب في عمارتها وولايتها احوالا سييدة . ووصى رجالها
بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقظ . واسرع عودته الى
المعسكر . عظيم المفخر كريم المعشر . ———وفق المورد
والمصدر . مقرظ المنظر والمخير . وأقام الى يوم السبت سادس
جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاد عدة من امراء العرب

وانتهى الينا ان الفرنج ينتشرون في الأرض . وينبسطون في
موضع القبض . ولايتحفظون في الرفع والخفض . ويحتطبون
ولايحاطون . ويحتششون ولا يختششون . ويجذون ثممار
الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل . وهم في غرة من
غارهم . وفي جسارهم تعود عليهم بخسارهم . وفي غفلة تجر
عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العذاب ظله . وانهم اذا خرجوا
للاحتشاش والاحتطاب . وانتشروا لضم الاعشاب من
الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفظهم من
متعد . ونفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك
الملاعین . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها
الكمين . وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر
المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ الى عسكر عكا
ليكن في موضع عينه . ولا يظهر مكمنه . حتى يكون من وراء
القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار السلطان ليلة الاثنين
على الموعد . مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت
وابرت وابارت . فعبر تبنين وكن بين صور وبينها . وعين اليزكية

وأوقف عينها . ورتب ثمانية اطلاب من الابطال . وكمين بتلك
الارجاء كماء الرجال . وانتخب من كل طـالب عشرين
فارسا اجوادا على الجياد . واجلادا في الجلد على الجلال . فامرهم
بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهم يفرون
قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها
عليه . ويوقعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما
حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفوا من ان يقال عنهم
فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتال واشتد . واحتدم
المصال واحتد . وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات
الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى . ودارت
عثرات الثرى . وانحلت عرى اللم . وانحطت نرى القمم . وعدم
كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم
انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد
اعتركت . وان البرك قد ارتبكت وابتكرت . فتواصل انجادا
للانجاد . وتواصل امدادا بعد الامداد . فلما رأى العدو ان المدد
يكثُر والعدد يكثف . وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف . صمم
العزيزمة . على الهزيمة . وعلم ان النجاة عين الغنيمة . فثنى
اعطافه . وضم اطرافه . ورد احلافه . وجرت بين الفريقين
مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مثقلة وكان قد حمل العرب
على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى اسد ذاك العرين . ولم
يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبرت من الطوارق بهم
عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى
منهج ملاذ . وراهم العدو فعدا وراهم . وسار بجمعهم
ازاءهم . فلما انتهوا الى الجبل ادركوا . ولم يقدروا ان
يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهم الامير
زامل بن تيل بن مري بن ربيعة امير النقرة . وسري
الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة . والامير
مطرف بن رفيع بن بردويل بن مري بن ربيعة وآخر معهم . فهؤلاء
اربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهم في رياض
النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا من العز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من المماليك الخواص . من
ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضفري السطوة .
فلما حصل في المضيق . وأيس من الطريق . نزل عن فرسه على
صخرة بنحوه . ونثل بين يديه كنانته . فارعا لذروه . وقد اوتر
قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته
من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصاب
بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه
ويرمونه حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح . وقد نزل دمه ، وترجع
على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد ، رمق وبه
رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الأموات ولم يرج له
فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع أعضائه عليه وقد
شارف منها شتاته ، وأنشأه خلقا جديدا ، وأوجده في أجله
مزيذا ، وهو أيبك الساقى زاده . ماجرى اجترأ على
الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيلة الا
طار اليها ولا أبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد
ركب ، وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في
رجله ، وسرحت نئابيه ونجت كلابه ، وجاش عرام جيشه
العرمرم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من
النواقيير ، وأضرمت بنار السعير مساعي الساعير ، وهو على قصد
عكا يجري الى المدى برأي جمعه المدامير ، وأن نفر مناهم
نفر ، وسبق الى النواقيير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح
طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمعون طرف
الثغر ، ويضمون نشر الأمر ، ويصمون نحر الكفر ، ويجدون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون الحراسة ، ويطولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها وداقعوها وعاقروها وقسارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد مراجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور نفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالدنو ، وللعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في انشاء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد ذلك الرحاب المغتصة .

ووصل اوائلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العنق بالذميل . وكان النقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحنة في الاوبية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، آخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الغروية . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، والفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في أرض صفورية بالانقال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رأيهم بنور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكى ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فأنهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبتوا تعذر حصدهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، واذا خلقوا في جواد طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطالبهم طلب الغريم ، وماأهون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا أقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التناول فيه عذر ، فدمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب ، ونزل الفـرنج على عكا من البحر الى البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها للحصر . وضرب الماك العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالأجام المؤتشفه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو ، حتى استظهرت بقوتها . وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاول والآخر . كمي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته وهيبته ، وانزل العسكر على تعبيته ، ونزل بمرج عكا على تل كيسان في ذوي اختصاصه ، وقد نصب من خيامه عليه اشراك اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب ، فدارت رحى الحرب ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى للأنجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين ، قد أحاطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشطننا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ، ورتبنا بالزيب والنواقيير رجالا يصدونهم عن سبلها ، ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ، ونراوهم ونغاليهم ، ونعاودهم ونبايهم ، ونقدم بعوايينا على عوايهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجددهم البحر ونعدمهم ، ومازالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتناول ، وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، متراقدون متراقدون ، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البطش . وحملوا على البحر أوزار النجس . وتبالهم وتعسا . فانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهم وبين اليزكية ، كل بكرة الى العشية ، الى أن وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومظفر الدين كوكبوري الأسد الغضنفر ، فاستظهرنا بهما وبمسـكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ، ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ، والاسلام ينابينا باستصراخه ، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهل رأياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، وسامنا الا من اسرج الجرد وجرد السريجات ، وعاج بالاعوجيات . واشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتيال الربينيات ، وربان العقليات ، وأزكى المذاكي وقرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سيفه ردع الدم ، وضاف جوده مضيف العدم ، وأقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهال ، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقت الآراء واجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة ، ومناب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده ، واجماع الالسننة والقلوب في الضراعة الى الله في نصرة المجاهدين من عباده ، وأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صدفو مشاربهم ، وقال مضاء مضاربهم ، وهم في مواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطنهن ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل ، وكالصور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشم مافيه متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامت الحرب قاتمة ، وبيمة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما امسوا . وزادوا على ماجرى امس

وأهلوا عنه وأذسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس
الظهر ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض
النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شديدة ،
كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة ، وفرشوهم على تلك
التل ، وردوا مضاربهم من قلهم بادية الفلول ، وانهزم الفرنج الى
تل المصلية نحو القبة ، وثبتوا عند الوثبة ، وأخلوا ذلك
الجانب ، وأخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت أطماعهم
عنها ، واندفع لنا طريق عكا . ودخلها الرجال ، وحملت إليها
الغلال ، ونقلت إليها الأحمال ، ودخل العسكر إليها
وخرج ، وانشكف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفرنج من
سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازة على
قتال العدو العادي ، وترك الهوادة في قصر القصر ، والهواوي
والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ، ولكن أصحابنا رأوا أن
انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت أرادوا كانت منهم غزيمة .
ومن العدو هزيمة وتوقفوا على الاتمام ، وتقصدوا عن مقام
الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هيأتهم وهيبتهم ، لباء
الاعداء لنجحنا بخيبتهم ، فان الصدمة الأولى أخافت
وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها انافت ، ولكننا تركناهم
حتى عادت اليهم الأرماق ، وعاود فرقههم الافراق ، وابصروا ما بين
أيديهم وما خلفهم . وازالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في
مستنقع الموت أرجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمراؤنا
هؤلاء قد سهل أمرهم ، وخمد جمرهم ، وقد حص رياشهم
حصرهم ، وهم في قبضتنا أي وقت أردنا ، ولقصدهم
تجربنا ، وقالوا نصبر الى الظهر ونمضي ونسقي الخيل ونعود
وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود . فانصرفوا على
عد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلغ العدو ريقه ،
ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار
راجله ، وزم راحه ونابله ، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات
والتراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروح وفوقوها ، وجمعوا
العد وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقسم ، وفي المجان

علاجهم ، وفي النهوض قشاعهم ، وفي الضراوة ضراغهم ، واختلقت الآراء مع العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم ، فمننا من يقول نصبحهم بالزحف ، ونزورهم بالحتف ، ويترجل الأمراء فيتبعهم الأصحاب . وتنشب من أسادنا في تلك الخنازير من الذشاب الأظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فنفسفهم ولو أنهم جبال ، ونطفئ نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال .

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعد . فاذا زحفنا اليهم . واوجفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين . ولا يبقى للدين بعد درك الثار منهم بين . ومنا من يقول لابل نفرج عنهم . ونبعد منهم . فما دمننا على هذه المضايقة والمصابرة . والمحاqqة والمحاصرة . والمكابدة والمكابرة . فانهم يتيقظون وينتبهون . ويتحفظون ولا ينفون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املهم . استرسلوا بعدما استبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما ما استقلوا . واطمانوا فطمعوا ، واذا ابطأنا تسرعوا واغثروا نانا على غرة فأغاروا . وظهرت لهم اثار ركوبنا عنهم فظهروا وثاروا . فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد الذمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقيمهم الا العدد الكثير . ولا يقيمهم الا الجمع الجم الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لبادتهم البسادي والحاضر . ونستجيش الحافل ونستثير القارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم . وازواهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تذقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولراكبهم في الشتاء شتات . ولحيائهم وحبائهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤنن فناء ارزاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في تلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال) . (الاحزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خطر .
وفي المباشرة بحربه غرر . والمصلحة العامة تلحظ . ورأس المال
يحفظ ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها
الاباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونستعدي على هذه الافاعي
بعقاربها . ونستطيل على الشنأة المستطيلة بشوانيتها . ونعدو على
عوادي الاعادي بعوايبها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر .
وصلت لنا اسباب النصر . وحينئذ نقاتلهم برا وبحرا . ونوسعهم
بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . وما زالت هذه الاراء بيننا متداولة .
وخواطرننا في تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفرنج جاريه
وزناد الهيجاء لاشغال نارها واربه . وفي كل يوم نتصافح
بالصفاح . ونتكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بكلام الكلوم . ونلحق
منهم الموجود بالمعدوم . والطلائع وقائع . وللسهام افواق فائقة .
وللحمام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتأسر .
وتبري وتأبر . وتكبس وتكسب . وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر
ذلك كله بنفسه . وهو يدأب في يومه لغده مجتهدا في الزيادة على
امسه نائبا عن اعوان المسلمين وانصارهم . ساهرا لهم في ليلهم .
قائما بأمرهم في نهارهم . والعين الساهرة في سبيل الله
قريره . وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر نخيره

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم . وتقدموا
من موضعهم . واشتاقوا إلى مصرعهم . وفارقوا الحزم في
تسرعهم . وخرجوا عن رجالتهم . وتجردوا بخيالتهم . وحملوا على
الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد . فتحرك الصف الثابت
الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلحل من القواعد . وتراجع عنهم
المسلمون استدراجا . وملأت الارض السماء عجا وعجاجا . وزخر

بحر الحرب على أمواج امواج . فما قاربوا من خيام اليذك . الا وقد
اعتكر جو المعتكر وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت
إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على أعقابهم ووصلت الى
رؤسهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا . وثنت وجه
الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر
عائر . والذمر الباسل باسم بالوت باشر . فلما جن الليل رجعت بما
جنته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة
متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما
اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعابيتهم الى
الهيحاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها
مشروحة والفرنج قد ندموا على ما قدموا . وعدموا بصيرتهم بما
صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . وينقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل
العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل
المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام
الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا
وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة
مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه
بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهمام الباسل . والقرم البازل
والندب الحلال . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية
المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فواته . أسف
على عمره . وأسى على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم
يستشهد في الجهاد سعيدا . وقال : قدموا حصاني حتى اشهد الحرب
واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على
الفراش عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، وتوفي عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبوآه الله الجنان ، ويشربه رضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فارس الحرب . ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب . حسام الدين سنقر الخلاطي النجيب المنتجب فذبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجل اجل الهمامين ، فوجمت الذفوس ، وامت القلوب وفاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة للعرب . أربت لنا بالأرب

انتهى الينا ان الفـرنج . يتـطرقون ويتـطرفون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاش ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فارسة من الفرسان ، فاغاروا وهم غارون ، وساروا الى جمعهم وهم بتجمعهم سارون . وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم رؤسا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الاشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقل . وفي كل يوم تقوم الحرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتساق ، وكم قتل من حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتوافقا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغذوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ماجري وغرائبـه ، وملح ماتم وعجائبـه ، ان الطائفتين في بعض الأيام . ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صبيانكم الى صبياننا . وليكونوا في

امانكم واماننا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخران . فقالتوا
مليا ، والافوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المسلمين .
على احد الصبيين الكافرين . وضرب به الارض . وقفز عليه
وانقض . وقبضه كسييرا وجذبه اسيرا ، فافتداه بعضهم بدينارين .
وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره
الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظاهرة .
انه اقلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن .
فلم يقدرُوا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربطه . ومازال يعوم في
البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصحابنا اليه .
واهذوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورأيناه لنا
من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين من شعبان . وقد رفعوا
الصلبان ، وزحفت اسودهم في غاب المران . وطارت بهم خيولهم
عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح . وجالوا دون التل
كأنهم له وشاح . وخرجوا على التعبيه . وشففوا نداء الكفر
بالتلبية . وشففوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتزمين . وعزموا
مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا قورة الطوفان ، وقدموا
الراجل امام الفرسان ، وزحفوا اطلابا ، ودبوا دبيب الليل الى
النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق
الى القرار . وجروا نيول السوابغ الى الفوار ، وتحركوا وهم
هضاب ، وتدرکوا وهم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتكثف .
وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثور . وتروود وتدور . وتهم
وتهمهم . وتدمدم وتدوم . وقد عبي السلطان ميمنته وميسرته ،
وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثابت . وحزبه في صف
الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحضر علي حظ الابد . ويحث على الجلال والجلد .
ويثوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شاهد شروق بروقهم .
وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشود حشود كثرتهم . انهض
رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين
من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح ، وكلما
تقدموا تأخر يستجرهم . ويحذر مكرهم ومكرهم . فعرفوا انه لا قبل
لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميقات مقاتلته ، فتركوه واستقبلوا
القلب وزخر بحرهم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منها
الدو . واسود منها وجو الجو . ووصلوا الى جموع بيار بكر
والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوايح والسوايح الغزيرة ،
وكانت من القلب الى الجناح للطيران وجبالها على الرياح للجريان
فعرفوها بالغر . واستضعفوها لدى الكر . وألوا بها فما ألت .
وهموا بها فما همت . واندفعت ومادفعت . وتراجعت وما رجعت .
وتعكست وماءكست . وادبرت وما تدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال
الفرنج هابت وما هبت ولا بت (٣٤) ومالبت . ورابت وما ربت .
وجاؤوا الى القلب وقلوبه . وحاربوه وحربوه وخربوا حربه .
وخرقوا حجه . وهناك استشهد كرام باعوا انفسهم بالجنة .
واسدو نحورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مروان . وكان
مجليا في المروة . والظهير اخو الفقيه عيسى وكان ظاهر الفتوة .
واخرون اعترفوا بنذوبهم فرحضوا بماء الشهادة دون حوبهم .
وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استطالة حزب الصليبان .
وكنتم في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على
الذل نشاهد الواقعة وننتظر ما يكون من القوم . وماظننا ان القوة
بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خالطونا في المخيم .
وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . استدرکنا
امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهزم عما
تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا في الاندفاع . والفينا
الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل .
ووجدنا ساكنها قد اجفل . فسبقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على
شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

مذكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لا يألّف مييتا . ولا يلفي بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد انن ضيق نفسه بضيق نفسه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طريق . واقمنا بموضعنا على الخوى والخيّل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفرق غير مفارق . والقلوب مرتاعة مرتابه . والادعية الى الله مرفوعة مستجابه . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جده . وعدا جنده . وان الكفر حاد فله وفل حده . وان الميسرة ثبتت فتّاب اليسر . والاسدية انتصروا فأسد النصر . وكان هذا الصدى يقوى . والصدأ يروى . والبشرى تسري . والبرد بها تجري . والناس بين مصدق ومكذب . وذهب في مذهب من الظن مذهب مذهب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صافي . وقد ورد مورد الظفر الصافي . فنأدى أين العماد . فقد جاءه من النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعنا عليه . فقلنا ما الخبر . وكيف ضفا الظفر (٣٦) . وصدفا الكدر . وقدر السلطان وتسלט القدر . والى اين انت سار بالنبأ السار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال: أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم . والخبر الكريم . فقلنا: اهلا بشائر البشائر وطائر الاوطار . والسائر بالسار والاخ البار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموفق . ومرحبا بالخصي الخاص لما مر حيا فحل بالخبر الفحل فحلا . وكم ام للنجح املا وجلا وجلا . فأبنا محبورين مجبورين . وثبنا مثابين مأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخذ بالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى أجرى الدماء .

ذكر حصّة النصر بعد صحت الكسره وكيف ادال الله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتره . وكثرت الكره . وامرت تلك المره .
وصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وشيم من عارض
اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جوله . وخالوا دوله .
وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشياهم . وعدموا اتباع
اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتماعهم .
فانحدورا عن التل . وقد جاؤوا بقوة العز فآبوا بضعف الذل .
واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسياهم .
وردوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فأعدوهم . وكان
في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا
وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بالجبال
الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد من كان من
الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين .
وقايمان النجمي والحسام بن لاجين . ومن ثبت من أبطال
المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشالوها وانهلوا من دماؤها
وأعلوها . ولفوها وفلوها . ولقوها واقلوها . ووضعوا فيها
السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . واوسعوها قتلا ذريعا .

وما بقاء الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعا . فلم يقلت من
الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الافها الا احاد . وامست لنا الحرب
فراشا . ولارض المعركة فراشا . وتبعها اصحابنا حتى كلت
سيوفهم وكلوا . وملت لتوتهم وليوتهم وملوا . وفرس زهاء خمسة
الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن
اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحامية
لنار الحمية . وحكي عنه انه قال بعرضنا في مائة الف وعشرة الاف .
احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تلاف فلما عجزوا . وبالخندق

احتجزوا . وقف عنهم اجنادنا . وبلغ المدى فيهم جهادنا
واجتهدنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفا فردوا
مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت
من الملائين ثلاثين واربعين . وتركهم بالعراء عراة مصرعين .
ولا شك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك مما شهد .
ويعهد الينا بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قطوف .
ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فارس مدجج . في بحر
الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادي بشعار
المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصدلي سنانه . فما شككت
انه يشكني بلهزمه . ويفكني بمخذه . وايسر من البقاء . وانست
للشهادة واللقاء . واستعنت بالله واستعنت . وتشاهدت مما
شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني خدمته . فالتفت فاذا
هو وحصانه ملقى كلاهما . وما وجدت بالقرب احدا اقول انه
ارادهما . فعرفت انه نصر الهى . وصنع رباني في مذاق الايمان
شهى . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصر ماملكت ، الا
الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لا سرار لله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الواقعة من الألفاظ

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها . وشكر
الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيها
واشاعة نشرها . وذكر فيها ما الافرنج عليه من اجتماع راجلها
وفارسها . والاحتماء بخنادقها ومتارسها . وان لنا كل يوم فيهم
نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامل في دمائهم والفه .
ومضارب مناضل لرؤوسهم فادغة . ونيوبهم عواسل ماضفهم
ماضغة . ونيول نغم عليهم في تقليص ضلالهم سابغه . وايدي ايد
لصفحات البيض بنجيهم القاني صابغه . وضمائر وضوامر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهمما وعزائم لا ترى عن وقم
القوم اهل الزيع زائفة . وما برح الفرنج في برح شديد . وامر غير
سديد . وظل للذل مليد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتى
ضاقت انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر يا سهم ووقع
بينهم بطول المقام باسهم . فاجمعوا امرهم على انهم يجدون في
اللقاء . ويهجيون الى الهيجاء ، ويلقون الالوف بالالوف .
ويصدمون الصدف بالصدف . ويعرضون نحورهم ووجوههم على
الاسنة والسيوف . ويكسفون بشبه التثليث ادلة التوحيد .
ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحد الجديد . وبرز ذلك
الخميس يوم الاربعاء لعشر بقرين من شعبان . ورفعوا الصليبان
واشروعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبوا
الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها للحق
ابطالا . وتأمل لشمليها المتفرق اجتماعا . وترجوا للصليب السليب
ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج . واقبلت بحار سوابجها
وسوابغها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم .
فانها خرقت حجاب الصدف . وفرقت شمل الجمع الملتف . وزاغ
جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمه . فظن من
لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان
الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبليج قد اظلم . وهناك عرف
اهل الثبات . وثبت اهل العرفان . ورقصت المرات على اشاجع
الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقى السنان بالسنان .
وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت الهانم في كلا الكلي .
وفتحت اليفالق مغالق الحنف . وزحفت الفوارس الى فوارس
الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصلت
ضرب الاعناق بقطع الرقاب . وما زالت تشل الفرنج وتفلهم . وتحل
بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمأ الظبا من ورد وريدهم .
وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فرشت بعد ان سلبت
اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع
اجراء ولم تطق جريا . حتى تذلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات
الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح . واعرب

حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل من مقدميهم
ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهى الاسلام بما اتسع من
عطن عطبهم . وحسن مذقلبه بسوء مذقلبهم . وعاش بما شاع من
قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهموم بما
تم من مأتم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين .
وهمت الروافع الفوارع بحمل هجمات الحاملين . وانجلي الغبار
عن كل قتيل مالعائره من مقليل . ولا لقائله من مقليل . وعادت اعلام
الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهدي الهدى على النصر
مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل
من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا من فقد رجاءه .
ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الالوف
واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا من
خلال تلك الحتوف . ودخل الليل عليهم . ووقفت العساكر حواليتهم .
وهم وان وهنوا لما اصابهم من الكسره . واخطأهم من النصره .
وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجع
كلهم بالجزء . ونقص منهم العدد الكثير . وركد من ريحهم ذاك
العاصف المبير . فانهم في حشد كالديبى . وجمع اغص الوهاد
والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا .
وودوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصنوا
وتصبروا . وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا . واوسعوا
الخنادق وعمقوها . واحكموا المتارس ووثقوها . وندموا على
الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم ماداموا رابضين .
وعلى يد الصبر قابضين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهم ،
وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليتهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها
للاشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن
الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق من ذلك
القرب واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب . وماثبت
الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سيد ساد للثغور .
ومجاهد الدين يرزقش قد صدق نعتة بالمجاهدة للدين . وجلال ظلمة
الوهم بذور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد . وماذا

يقال في شبل ذلك الاسد . وانما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضجروا
من الحضور فهابوا . والفرننج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير
يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على
قطع دابرهم . واهلاك سائرهم عن اخرهم . وتحريك همم المؤمنين
في تسكين سائرهم . وتخريب عمرهم وعامرهم . وانزال دوائر
السوء بمنازل دوائرهم . ومادام البحر يمدهم . والبر لا يصدهم .
قبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم واسوائهم ملازم .
وتدبيرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم
في ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيره
أهل اليقين . وما يقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه .
وتظاهرة في اتساع مسلكه واتساق سلكه . وقعود المسلمين
وتقاعدتهم وتعاضلهم في تعاضدهم . وانحلال عقود تعاقدهم . فلا
ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فانظروا الى
الفرننج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا . وأية شالة نشدوا .
وأية نجدة انجدوا . وأية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها
وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم .
ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم واكابرهم . الا جارى جاره في
مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجدد والاجهاد . واستقلوا في
صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس بانواع
السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا .
الا لمجرد الحمية لمتعبدتهم . والنخوة لمعتقدتهم . وليس احد من
الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجاب عزهم
وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يد الى بلده . والمسلمون بخلاف
ذلك قد وهذوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدموا
الغيرة . ولو انثنى والعيان بالله للاسلام عنان . او خباسنى ونبا
سنان . لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقربها . من
لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهذا اوان
رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على
انا بحمد الله لنصره راجون . وله باخلاص السر وسر الاخلاص
مناجون . والمشركون بانن الله هالكون . والمؤمنون آمنون ناجون .

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء .
وزادت مضاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن
جملتهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل
الرجاحة والسجاجة . وهو شاعر مفلح . وفقيه محقق . من ولد عبد
الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق .
فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في
لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الاربموى المكبس . وكان
سيدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم
شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلالم في الخزانة امين على
البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم
الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة .
واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب
ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم .
وفثانا سورتهم . واخمدنا فورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا
داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز
والاحتباس الطريق . فنحن ذوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم
بصاع المصاع . ونذرهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع .
ونوسعهم قرى القراع . وننيقهم حر الحرب . ونسقيهم في طعم
الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهام . ونتخذ
لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونغرقهم بماء فرند
الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم
النصر . ونطيب من نتفهم النثر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم
آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا
الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب .
وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع وأوشابها .
ظنوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء بين السودان . واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجريء متندم . فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة أمكنت . والحصنة تعينت . والجو خال . والضوء عال . والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى . وعرانا المضض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة مذبذبة مبتته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل الذسور . وان قدرها بطون الضباع والذمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صبيدها اهل الكفر ، فحمل الى الماء اكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتبر واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من
الثقل واستدراك ما حذب من الخلال

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه ممن لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدى عليه بمثل ما اعتدى . فاحضر كل ما

- ٥٩٩٩ -

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضائق عن كثرتة سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع يقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئاً اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الويل الرشاش . وصبح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها . وقضاة القواضب الى اقتضايبها . وغار الأنف وأنف الغيران . وتسلبت العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلي نكاح بنات الخلال الذكور . واشرب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية للتقاضي . وقالوا حتى متى التراخي بالتفاخي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد

فقد

وحضرا أكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقالوا علموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكل كل كله . وقد برز بالكفر كله إلى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفذ وسعه . وإن لم نهاجل الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل دأؤه . وتعذر غذا لقائه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الأعداء . فظهر الأعداء من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما يلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بلاد الاسلام من يهددنا .
وعساكرنا حاضره . وعزائمننا للتواني حاضرة . وعيون أسنتنا إلى
الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف
الدين . ولا بقاء للزقار إذا أصدر منه ليث العرين . فالرأي كل
الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المحاجزة . ثم قال ليشر
كل منكم برأيه . ولا يقدم على قول ورأيه من ورأيه . فتجاذبوا حبل
الاضطراب . واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل
منهم هواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين
الثاني لا الأول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطول .
والنائب الأعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين
يوما . وما طعمنا في هذه الليالي نوما . ولا سمنا لطارق طيف
غمضا . ولا شمننا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قذفتنا المنايا وقد
دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنا خلقوا على
صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وفلت البواتر . وملت العساكر .
وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما
يتأتي قلعه الا لمن يتأتى . وبالصدبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم
بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لا يتمكن
منهم إلا بالجمع الجم . والسيل لا يغلبه غير الخضم . والصواب أن
نصابرهم . هذه الشدوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن
هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة من
يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء
العلاج . ونعيد السريجات إلى سلها والسلاهب إلى السروج .
والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسائل إلى الاطراف
والاوساط . ومكاتبة دار السلام . واعلام الأمام عليه أفضل
السلام . بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون .
ويقومون بالنصر . ولا يقعدون . ولا يترك استنفار التركمان .
وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعائهم بالعطايا . والتشريفات
السنايا . ويذفد إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمم
والعزائم الوانية . إلى ان تمتلئ بالجموع ساح الساحل . وتغلى
بنار الحميات بها مراحل الراجل . فحينئذ ينتهي أمد المصابر .

ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونبايهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر . ونغايهم ونراوحهم على اقتراح القهر . وننسفهم ولو أنهم جبال . وننزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطرق جفن بلد منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهم غرار . ومازلنا في مشاورة ومحاورة . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمخض . ومالوا إلى الدعة . والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب . إلى المنزل الرحب . ومن المعتكز المعتكر . إلى المبرك المبتكر . فلم تعجبنى هذه الحالة . ولم توافقتي هذه المقالة . وقلت لعمري أتيتم بمصلحة . ولكنها غير مترجحة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار . ولم يحدقوا بجميع الأسوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخيننا خناقهم . وأطلقنا إلى مرادهم اعناقهم . وباب عكا من جانب البحر مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق إليها سابلة . والذخائر إليها في كل يوم داخله . والفرنح عن قطع الطريق عاجزه . وعزائنا على مصابحتها ومماساتها لها دون قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وإن هونا احكموا . وإن نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم تحفظوا . ومتي نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فأنهم لحصر البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايدلغون . فقالوا هذا أمر هين . وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا بالرجاء لم يئأسوا من الأرجاء . أرخيننا لهم حبل الأنظار . حتى استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث . ونصدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان متكرها لما أبدوه من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

ذكر الرحيل إلى الخـروبة . عند خيم الأثـقال المضروبة .

كان السلطان مع ما ألم به من الألم . غير مبد وجه الملل
والسأم . وهو في كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف . ويقف
مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر . وعليه
أثر الضر من الصبر . فليم على فعله . وخصه الطبيب بعذله .
فانتقل الى الأثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان ، وخلي المنزل
الأول وأخلي العسكر-----كر ذلك
المكان . وتقدم إلى من بهكا باغلاق الباب . وسلوك نهج الاحتراس
والاجتناب . وجرى الامر على ما كنت قلته . وتحقق من الخلال ما
خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خاليا . ورخص
عنده ما كان من سوم خوفه غاليا . وشرع الفرنج في حفر خندق على
معكسرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر . وأخرجوا ما كان في
مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم . وبما
ظهر من أثرهم . والجدي تعميق الخندق وتتميم محتفـرهم .
والعسكر هاجم . كأنه واجم والظن فيه راجم . وشر الكفر ناجم .
وما فينا لعود الأمر عاجم . وقلت يوما للسلطان يركب العسكر إليهم .
ويركض عليهم . فلعله ينال ظفرا . ويقضي من كسر العدو وطرا .
فقال ما يعمل العسكر شيئا إلا إذا كنت معه راكبا . ولعمله شاهدا
مراقبا . ولقد صدق في مقاله . فانه كان أعرف برجاله . فإنهم كاذوا
يبذلون معه المهج . ويخوضون من بحر الحرب اللجج . ويوسعون
لهزم العدو المازق اللجج . وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم .
وأهملناهم بل أهملناهم . حتى عمقوا الحفور . ووثقوا من ترابها
السور . وملأوه بالاستائر . ومنعوه من الطير الطائر وبذوه
وأسسوه . وستروه وترسوه . ورتبوا عليه رجالا . ولم يتركوا
لواغل مجالا . وتركوا فيه أبوابا وفروجا . ليظهروا منها إذا أرادوا
خروجا . ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقول

- ٦٠٠٣ -

لامبالاة بهم ولا أكثراث . وما أسهل إذا عزمنا عليهم لأصولهم
الاجتثاث . وبسيول سيوفنا نغسل تلك الأخبثات . وأي وقت
قصديناهم وجئناهم وجأناهم . ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما
فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما
حفروا الا قبورهم . وما دبروا الا ثبورهم ومتى قصديناهم كذبت
ظنونهم منونهم . وامتلات باشلائهم خنادقهم . وأظلمت عليهم
بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسفر عن
داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل بإتمامه سسمعه
وبصره .

لما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة . وضمت
أشلاءهم المعركة . وشوهدت على الربا حجب نحوهم المهتكة .
وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابر انه
لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعائر . وانهم قد عدموا القرار .
وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم
ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان: ارحلوا عنهم حتى تروا ما
يكون منهم . فانهم يهربون ويهربون . ويبعدون إلى صور ومن
بعدها من عكا لا يقربون . فمال قوم إلى مقالته . وتخيلوا مثل
خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدر عن ورد الرصد . والجد
في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولا يعوقهم فانهم
كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه .
وبدا وهنه . وما زاد الفرنج الانباتا ولم نعرف لشملمهم على ما توهمه
شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأي القائل . ونقول ما أعجب قبولنا
لقول هذا القائل .

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد للعزيزاء من
البواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه .
ومداراة آله . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له
عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له الطافه
الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد
الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مراتبهم لوقت الرجوع .
وأقام في مماليكه وخواصه . ورجال حلقته المنصورة من ذوي
استخلاصه . ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار
بهلاك القوم منه فلاكا . وكان في مماليكه كل مقدم مقدام . وكل همام
همام . وكل ليث ذي لوثة . وكل حدث محسن له حسن أحداثه .
وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم .
وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطل . وكل
مغير للنصر مريغ . وكل مسيء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ .
وكل تركي للرما غير تارك . وللأصماء غير فارك . قدوسه في ظفر
الهدى مؤثر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر .
وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد .
وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار .
وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللبسالة كاس ومن الغار
عار . وكل مهراني في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الأبطال
ظاهر . وكل كمي كميش واكديش . فما خلا يوم من وقعه . وما
صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير
سهامهم إلا بلاسه . وما حصلت شفاه شفاههم من طلاء من طاولهم
إلا على لطفه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل
صباح ومساء حيت . وبلي الفرنج منهم بالمبير والمبيد . واعتاق بهم
مراد العدو والمريد . وما زال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم
ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم .
وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشرك بتصديهم . وحركوا

- ٦٠٠٥ -

ما سكن وهدأ من عزائم الهدأة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلبنا به من سني النصر مطلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوة . وغنيمة صفوة . ونشوة أعقت صدوة . وصحيحة استصابت ضحوة . وقوة من وهن العدو . ومحبة فكت رهن السلو . فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم . وانخفض اغتباطهم . وفتت عزمهم . وقصرت همهم . وخمدت فورهم . وركدت ثورتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتفشوا . وتنفعوا وتنعشوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتذكر الضامن . وصاروا يخرجون ويخرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمسسون على القتال ويصبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم . وجم جمعه واجم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والذوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكية .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمي الخبر بوصول ملك الألمان إلى القسطنطينية في عدد دهم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور إلى بلاد الاسلام . وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وانه في ثلاثمائة ألف مقاتل . من كل سالب باسل . وطالب باطل . وجهم جهنمي . وأشقري سقري . وأنمش أفعواني . وصل صليبي صلائي . وأرقش حذشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومغوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجار للدرع جار . وكل ذئب عاسل . ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصيال . ومشمر على الموت متمرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع . ماله سوى السوء

- ٦٠٠٦ -

من مقنع . وأنه مع الالمانى ملوك وكذود . وكل شيطان لربه كذود .
وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الأرمن . وهو في قلعته على الفرات
ومن أهل الذمة في المأمن . يبدي تنصحا وإشفاقا . وتخوفا على
البلاد واحتراقا . ويقطع بان الواصلين في كثرة . وان الناهضين
الى طريقهم في عثره . وابرق في كتابه وارعد . وابدع بخطابه
وابعد . ولا شك انه الى جذسه النجس مائل . وبملاءة أهل ملته
قائل . ولما وصل هذا الذبا وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبر وخيل
أنه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصدقون ويكذبون .
ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضح هذا الخطر .
وصح هذا الخبر . فالسلمون يقيمون لنا ولا يقدون . ويفضدون لله
ولا يرضون انهم لا يعضدون . على أن الله ناصرنا . وموازنا
ومظاهرنا . وحقنا باظهار القوة لمن استودش التأنيس . وبتثنا
بالارسال الى بلاد الروم عيوننا وجواسيس . وندبنا رسل
الاستنصار . وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار .
وقلنا ما هذه المرة الامرة ولا يسيغها الا كل مرءى ابي . وما هذه
الكرة مثل كره . ولا يحضرها الا كل كميش كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع
ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له
ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعل له الى كل
الذي ظرف في طريقه رسالة . وأودعه اليه مقاله . فسار من عتدنا في
شهر رمضان مغدا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل السير جذا .
ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله
الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد . وذكر انه قد بلغ
المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل
للعدة الاستنجاز والعدة الاستنجاد . فما هذا الرسول الرائع .
وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح . وأذا اختلفت الحديث حدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الفى الائتلاف . فما هذا
العجل . ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن
كل ما ايان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا
لاقدر على صد من الخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة
تردى . وانت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو
يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولهك
تهود سريعا . وتجد شمل ما افته جميعا . فوصل ضياء الدين
الشهر زوري وهو مفتاظ . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي .
ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخاللي ومخالطي .
ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن .
فما بسط عذر . ولا قبض زعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف .
ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت
اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه .
واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ .
والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزماته نحوك
مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مخطوم . فكن
للامام يكن لك . واقبل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني .
واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه
ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير
مبرم . وأن الرأي الذي احكموا . غير محكم . ومازلت أؤكد الأمر
حتى يؤمن انتقاضه . واتعرض دون الرأي حتى لايمكن اعتراضه .
وأيقن ان الامر ما فيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل
الرسول يتلبث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجاز لا الحقيقة
مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج
العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان .
بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة .
ووقفهم على المهني والصورة . وقال لهم قد وعدت الخليفة على
لسان الشهر زوري بشهر زور . واستدعيت عسكره المنصور .
وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا
رأي رائب . وشاو شائب . وأمر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

الامام بما لا يقرن بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد . وينجح هذا
القصـد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل ما يدخل في
استطاعتك . اما صاحب الموصل طالبها فمـنع . وصاحب اربـل عنها
دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لـحـدها وحـقها
خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من
الجـند والنقود انجادا خفافا وحمولا ثقـالا . فاذا عرف انك
أخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . وملك مالك الامر امركم .
وابدوا في انقطاعهم عنك عذرهم . وانقطع الواصل . وارتفع
الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على ما
نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بـكـتـمر في خلـاط . قد جمع
الاخـلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغيابة والغباوة . فقال
السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحق والحقيقة . فان
وصل اليـنا اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد
الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشهر زوري الى بغداد .
صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن
سداد ، وقيل له جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، ونـدبـه
فيما نتـخيره ، وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين
وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الأحماد وسيأتي ذكر ما آلت
اليه ذوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان
والاستظهار بمجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة
الايـمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال . في
جيش وآل . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشكة رادعة . وشارة
سارة . وبـيمـه من البأس داره . وعدة منتخبة منتخبه . وعدة منتقاه
مهذبه . من كل أجل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على
سوزليق . (٣٨) وبحر على سابح . وجذع على قمارح . ومن كل
رتبال على تنقل (٣٩) . وأغر محجب على أغر محجل . ومن كل
أبيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل بالاسمر سلاب .
وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يهتقل شجاعا . وكل أحمى
أحمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقصور قاسر .
وضيم ضاغم . وقمقام وأقم . وليث به لوته . وحدث له في الشهامة
أحدوثة . واحضر معه من سودان مصر كل زمر كأنه الهبسي عابس .
وكل مغامر للموت مفامس . وكل غريب حلكوك . وكل سرحان
صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خارح لثار .
وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسخ .
وجاؤوا بالغبسة القبطية . والترسة اللطية . والصلال القفطية .
واللالال الذوبية . والحراب الحربية والصعاد الصعيدية . والصوارم
المذروبة . والصرائم المشبوبة . والاسنة المسذونة . والصوابغ
الموضونه . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماسيح
المزدرده . والشياطين المتوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات
واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يترك في كل ما
يراد من القوة مجهودا . وأقبل في روع ظاهر . وضوع باهر . وبشر
ذائع . ونشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهزة وطرب .
وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى .
وغياث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبى . لقد
نص النصر . وكف الكفر . وسلم الاسلام . ونام الانام . وأمن
الايمان . وتسلب السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت
الآمال . ونيل رجاء الرجال . وأزيل إبطاء الابطال . وورت زناد
الأجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم . الابد القوم .
وادرک ما استقام من النهج . وهلاك من أقام من الفرنج . ونزل
الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى
راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل
العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من
شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صدق من صدقه . وفي كل ليلة

- ٦٠٣٠ -

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالزكاية فيهم مليه . والملك العادل
يركب في كل يوم ويبلي . ومن جهده في القتال لا يخلي . والفرنج على
البلاء صابرون . والعناء والعناد مكابرون . لا يبرزون ولا يبارزون .
ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها محتاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومجاولة أهل
الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد
أموأجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . برأياتهم
المذكوسة وأرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم
المحشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الأقدام المصدودة
المسدودة . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد
سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم
اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات
التي وقعت . أكثر من عشرين ألف مقاتل . من فارس وراجل ورامح
ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرت إلا نار حرصهم . وما قل
حد حديثهم الحادث . ولا قلل عدد كثيرهم الكارث . ولا غضوا عيون
أطماعهم . ولا فضوا خنوم اجتماعهم . ولا ردوا وجوههم عن
مواجهة الردى . ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا
بالمدى . وهم لمواضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى
الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البوائق
محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون .
وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون .
وإن جندنا لهم المنصورون . والعساكر الإسلامية فيهم كل يوم زكاية
شديده . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ناكية . وصدمة
صادعة . وخدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

- ٦٠١١ -

الوصول إليهم . جمع راجل بالبلاد . وحشد إلى حشودهم ذوو
الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس .
ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل الأخ العادل
وفقه الله للمراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن
يجعل حذف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمال
المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه
التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع
من في بيار الكفر . فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة .
ولا خطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وأنهضت كتائبها .
وتحرك ساكنها . وبرز كامنها . ونفضت خزائنها . وانفضت
معاننها . وحملت ذخائرها . وبذلت أخايرها . وثار ثائرها . وطار
طائرها . ونثلت كنائسها . واستخرجت دفائن نفاسها . وخرج
بصلبانها أساقفها . وبطاركها . وغصت بالأفواج فجاجها
ومسالكها . وتصلبت للصليب السليب . وتغضبت للمصائب
للمصيب ، ونادوا في نواحيهم بأن البلاء بهم بلادهم . وأن أخوانهم
بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا .
وبحرب الاسلام مجاهرا . ولمتعبه مستردا . ولجده في النخوة لبينه
مستجدا . فقد وهبت له ندوبه . ونهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن
السفر . سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجاءوا
لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد . وتواصلت منهم
الامداد بالامداد . وتوالت أنجاد الانجاد . فهم على الذقص
يزيدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يهودون . وعن اللجاج في
حوض اللجج لايعودون . وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون
أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد
تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم بيارهم . ورمتهم إلى أغراضهم
البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمر . ويصول
الكفر ويجول . ويتناول الشرك ولكنه لايطول . فان لدين الله من
خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته
إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسفر صبحه . ووفر
نجحة . وبدا علوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العوارف

الامامية . والعواطف الذبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة
الناصرية . الى أن يفرق الجمعين . ويجمع للفريقين القمعيين .
ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم
دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء
سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة
بالباس والشدّة وكانت عدته خمسين شيئا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر .
بتجهيز الاسطول وتجهيزه حياله . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير
عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي
سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لايراده
وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا
لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته ، وقد تفرد
بغزوات لم يشاركه فيها أحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد .
ما سلك نهجا الاملك . ولا طلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقيب .
مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف
لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم
دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله
مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى
الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به والفرنج من
شوانيه على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما
تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للازواد والميـرناقلة .
فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال
الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق أباطيلها .
وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين
الكفر رجوما . واقبلت سواريهـا بالرواسي . مبرمة الأمراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجهها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبزود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . قصبتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكانما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديتها . واناحت طعائن الضغائن على شواني . شوانيها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواربيها . فأول ما ظفر الأسطول المنصور . بشيني الفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . فوقع بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم ونخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محصورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الأسطول المصري المنصور فجاءها فجاءة . وامتد اسطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءة . وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشنأة فعادت مراكبهم وهي نواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . وأطردت على طرائد الفرنج فطردها غالبية لا

لا غبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن العدو معمرة . وألهبت في الماء على أهل النار كل نار للذكال مسعره . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شاءت . وتبعتهن مرارا وبالفنائم فاءت . وأعشت أعين الرائيين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . لشائن الدين واجيء مفاجع العدو بالهلاك مفاجيء . مفرق لراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستعدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد لبهجة الاسلام زائن . زائر بكل أسد زائر . سائر بكل مقدام إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وأرهقت غروبها وسنمت غواربها . وملأتها برجال أيديها على قـوائـم القواضب قواضب . وأرجلها على الثبات في روابي متون سفنها روابض . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلقوه وبالمداقعة ويجاولوه . فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

الاولجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنتهم وأننت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والنخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والنخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالت الفيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاووال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدي وأنجع وأنجى . وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والنخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلا البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات . والرمي في العرادات . والحذف بالنفطات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالحرقات . والقاء القوارير . وانكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصلة القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروح والزنبوركات . وتطبير الناوكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقد . والجد في الجد والجد . وطروقههم ليلا على سبيل التلصص .

- ٦٠١٦ -

وسوقهم على وجه التصيد والتقنص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات
والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك
واستبشروا . واجترأوا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل
اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين
ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه . ومن تعذر عليه
إخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه
بمد مديته . ويسلبه سكوته بسكينه . ويجعله أن لم ينجذب معه من
حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الأسر .
ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد
كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراز
والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقههم من
كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار .
حتى كان رجالنا يختفون بالدشيش في أجراف الانهار . فاذا
صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة افرنجية مستحسنه . متحلية
بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن
واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وتراقدن
على الارفاق والارفاق . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية
نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية (٤١) .
متغنية متغنية . متبرزة متبرجة . نارية متلهبه . متنقشة متخضبة .
تأدقه . فاتقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة
فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة متشبهة . ملهاة متلهية . متفنة
متفتية . ناشية منتشيه . متشوقة متسوقة . مقتربة محتربة .
متحبة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء .
غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتشتي كأنها غصن . وتتجلى كأنها
حصن . وتميس كأنها قضيب . وتزييف وعلى لبتها صليب . وهي
بائئة شكرها بشكرها . باغية كسرهما في سكرها . فوصلن وقد
سبلن أنفسهن . وقدمن للتبذل أصدونهن وأذفسهن . وذكرن أنهن
قصدن بخروجهن . تسبيل فروعهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان .
ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان . وتقرين بما ضربنه
من الخيم والقباب . وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب .
وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخاذ . وبحن بالاباحة .
ورحن إلى الراحة . وأزحن علة السماحة . ونفقن سوق الفسوق .
ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور . وتحجرن بنزو
الفحول منهن على الحجور . وعرضن الامتاع بالمتاع . ودعون
الوقاح إلى الوقاع . وركبن الصدور على الاعجاز . وسمحن
بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط .
ورمن فرشهن على بساط الذشاط . وتهدفن للسهام . وتحالين
لحرام . وتهرضن للطهان . وتضرعن للاخدان . ومدين الرواق .
وحالين حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتاد . واستدعين
النصول منهن إلى الاغماد . وسوين أراضيهن للفراس .
واستنهضن الحراب الى التراس . واستدفرن الحارث إلى
الحرث . ومكن المناكير من البحث . وأذن للرؤوس في دخول
الدهاليز . وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقربن
الاشطان من الركايا . وفوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقطعن
التكك . وطبعن السكك . وضممن الاطيار في أوكار الاوراك .
وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك . ورفعن الحجر عن
المصون . وترفعن عن ستر المكذون . ولففن الساق بالساق . وشفين
غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجار . وأطلعن الاشرار على
الاسرار . وطرقن الاقلام إلى الادوية . والسيول إلى الاوبية .
والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفان . والسبائك إلى
البواتق . والزنانير إلى المناطق . والاحطاب إلى التنانير . وذوي
الاجرام إلى المطامير . والصيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى
البطون . والاقذاء إلى العيون . وتشاجرن على الاشجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قرربة ما وفوقها قرربه .
لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمر . وطلبن
بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبوا
كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية . وأبق من المماليك الاغبياء
والمدابير الجهلاء . جماعة جذبهم الهوى . واتبعوا من غوى .
فمنهم من رضي للذة بالذلة . ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في
الذقلة . فان يد من لا يرتد لا تمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهمه يشتد .
وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت
منها الأعزب حرج . وما ازكاها عند القسوس إذا كان للعزبان
المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحر . امرأة كبيرة
القدر . وافرة الوفر . وهي في بلدها مالكة الأمر . وفي جملتها
خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلمانهم وأشياهم . وهي
كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تذفقه فيهم على
المعونة . وهم يركبون بركباتها . ويحملون بحملاتها . ويثبون
لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس . لهن دروع وقوانس . وكن في زي الرجال .
ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل ارباب الحجا وهن ربات
الحجال . وكل هذا يعتقنه عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به سعادة .
ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذي اضلهن . وعن نهج النهى
ازلهن . وفي يوم الواقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أسوة .
وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسوة . فما
عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة استبين واشترين . وأما
العجائز . فقد امتلات بهن المراكز . وهن يشددن تارة ويرخين .
ويحرزن وينخين . ويقلن أن الصليب لا يرضى الا بالاباء . وانه
لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء
فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن
للغيرة على الملة مللن الغيرة . وللنجاة من الحيرة ناجين الحيرة .
ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن . ولما ضامهن من الامر تبلهن
وتبلدن

ذكر ما أهده عز الدين مسعود

ابن مودود بن زكي بن أفسندر صاحب الموصل
من الذقط الأبيض والرماح والقراس

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة .
وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة . سير من
أحمال الذقط الأبيض مع عزة وجوده ما وجده . ومن القراس
والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد .
وزاع الاحماد . ودل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح .
واستجيدت التراس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء
الارواح واتصل بالذقط الواصل إلى أهل النار الاحتراق . وطففت
وضربت منهم النحور والاعناق . وقد هدا بما أهده النصر إلى
الهدى . والردى إلى العدا . وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جاد
بما أجدى . واهدى ما هدى . وعاد من المكرمة بما بدا . لأخلى الله
المجالس من يد يتخذها . وأياد يسيرها وينفذها . ومحمدة
يستخلصها لنفسه ويستنفذها . وحمية الدين يقيم بها حماة الشرك
ويقذها . ونخوة للاسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشحذها . وما
طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان
الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحطمة .
والبيض متذلمة . ووجوه الصفايح بلثام النجيع متلثمة . وعيون
النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران راقمة مارقة . وحمام
الحمام في مريشات السهام بكتب الكيت من حنايا المنايا السائقة

- ٦٠٢٠ -

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضال الذبال . والرماء
الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقراع الذوابل .
والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا
وهو وإن كان غالبا لاغب . ولا صارم الا وهو في دم العدو الفائض
ناضب . ولا جارج إلا وهو مجروح . ولا قارج الا وهو مقروح .
ولا جامع الا وهو مصحب . ولا باشر الا وهو مقطب . فباية عدة من
هذه العدد انجد . غار الحمد وأنجد . وتاسس الشكر لانعامه
وتمهد . ومن العجب أن العدة تفنى ولا تفنى العدة . وتنمو على
الحصاد وكأنها الذبات . ويتسارع الى أمدادها الموت والهلاك
ويخلفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم . والكفر إلى الردى
يردهم . وكالما اخلقتهم الايام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم
القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم
وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قطب الدين
ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولا ينتصف فيها من
الأعداء . ونحن محتاجون الى العسكر في الربيع . واستنهاض
الجموع الى شمل النصر الجميع . فكتب بتأخيرته . والتمهل في
تسييره . فتأثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير من
بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامره . والتقدم بتجهيز
العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسرور سره وانشراح صدره .

- ٦٠٢١ -

وعرف مسير قطب الدين ادام الله له مضاعفة العلاء . وأقر باذواره
عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقرونه بالحسنات . ولم
يقرب من غير الفرات . اشفق عليه من التعب . ليكون عسكره
مستريحاً عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع ادعى . ومصلحة
الاسلام في ذلك الاوان أولى أن تراعى . ولو عرف أن الركاب
القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالذفوس
والارواح . وتلاقته القلوب بالقبول العبق بدشر الاشرار . وان
اشتعل القلب بما فاتته من حظ من الاستسعاد بوفوده . فقد بشر
أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب الرسل الى الاقطار والامصار .
للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبر . وحث الرسل
وأرسل بالحث . وبعث المرسعين لاستبطاء البعث . وانهض للتبليغ
كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ .
وسرح عدنان النجباء الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتاب
اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن
عليه من دوام القتال . وطلبت منه الاعانة بالمال . واستعين
واستنجد . واستلين واسترقد . وحض على حظه من انجاء
الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهج
السماح . وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد
الجرد العتاق . وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد
الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمدان . بما دنا منه عزمه ودان .
وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدى إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين
طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه
بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل
الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . أمير من خواصه هو أيلدكز
أمير العلم . فحضر له من الخيم الخاصة سرادق . ووفرت في
الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خانته من امرائه
ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخاصة .
وأن عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة
مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوة من هذا الجانب
قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكته بقرب اربل . واران الوصول
الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن
قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم
دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستوثقين بذمتكم . وانا عنده
مقيم . وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وان
أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت .
وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد
بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى
الاعانة . واردف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسه من
سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه
لا مطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين
الدين يوسف صاحب اربل وإلى حسن بن قفجاق وإلى نائبه بشهر
زور بالتوفر على خدمته . والارتياح لمصلحته واشاعة معونته . ثم
ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل ارسلان وهو جمال
الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد كونه نسيمي . ليكون
القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصالحة والمصالحة .
والمصافاة على صفة المودة والمصافاة وحفظ حرمة تضرعه
وتذرعه . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

- ٦٠٢٣ -

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة سحرة
يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . واقد
كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصره
الايمان . فذله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن
به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد
عبد الله بن محمد بن أبي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر
شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه
فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .
وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة
النصف من شعبان منها وكان من الأبرار الأخيار . والعظماء
الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة
الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته
المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها
محدشورة . وعلى تعذرها عليهم محسورة . وخرجت هذه السنة
والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر
في الاحيان مستدر . وقد تسنت للإسلام مباحج . ووضحت للإسعاة
مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيح
وأرخام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الأشواق الى لقاء
الاعداء لوا عج . وتالفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولما جح المنى
منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج .
والجهاد جهات . والعزمات أزمات . واتفقت حسنات وحسنت
اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعت
عجائب . وأعجبت وقائع . وأبدعت غرائب . وأغربت بدائع .
 واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب .
 وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين
في الوقائع عدد لا يقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحاب فيه
جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد
ذكر كل متجدد بمجرده .

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على ما يظهر للعدو من الكيد . وهو لا يبعد من الخيم . ولا يقرب من مساكن الليم . وركب يوما في صفر على عادته فتصيد . وطاب له قرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقت العصر في عدد لا يدخل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم . وحملوا عليهم وطردهم إلى خيامهم . وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . وما زالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضة وركضة . ونفضة ونفضة . ومشقة ومشقة . ورشقة ورشقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وريدة وريدة . وضمة وضمة . ولة ولة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . والفرنج في كل كرة على الرمل مصارع . حتى فني الذشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء الذشاب . والفرنج لا يعجزهم الا الرماء . ولا يهتكهم الا الاصماء . ولا يذفرهم الا رنة الاوتار . ولا ينذرهم الا أنة القسي بالدمار والبوار . فلما أذسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الذنوم من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر . وكادت تعبت بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان . وشرعوا الى نحو تلك الذئاب ثعالب الخرصان . واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التأسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممن استشهد . وزاد التلهف على فوات الفرصة . وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة . فان العدو صار عرضة للصرة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الواقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا
للسلطان يقال له سراسنقر . وهو يتناول في كل معترك ولا يقصر .
عثر به جواده . وثبت على الجراة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه
أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل آخر سيفه
ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سراسنقر يعدو
ناجيا والخلص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه .
وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المذون من لهاتها بعد
ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أردون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف
أردون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج
عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب
خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني
زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر
ارتياؤه وارتياؤه . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة
مذاهبه . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام
بما يحويه . وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صدور . ولبس من
التشريف والتسريح حبير الحبور .

ذكر حال عكا ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتتم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من
مصر . فما زال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في
المراكب . وقد ملأها بالنخائر والاسلحة والكمات المساعير والحنة
المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا في
موانئها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعدد .
فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم السباحة لهم بالرغائب على
وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحوا .
واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد
على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتباً
وطيوراً . ويعودون بكتب وطيور . ونكتب اليهم ويكتبون الينا على
أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المكتوب
والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر من
اتخذ حماماً تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجاً من
خشب . وهرادي من قصب . ويديرها على الطيران من البعد .
ويوردها لشبعها وريها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ماهذا
الولع بما لا يذفع . والوله بما لا ينجع . حتى جاءت نوبية عكا
فذهبت . وشفت الغل ونقعت . واثت بالكتب شارحة سارحة .
ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفاتحه . فصرنا نحبو صاحب
الطيور بالاطراء . ونخصه بالمدح والثناء . ونامر به بالاستكثار .
ونطلبها منه مع الليل والنهار . حتى قل وجودها عنده لكثرة
الارسال . وكنا نعرف بها جليلة الاحوال . ونعلم ان الله علمه ذلك
البر . والهمه ذلك السر . فانه اطلع على ما يدفع اهل الاسلام .
فحمى حمى هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمنية
بالاسفار . قمينة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيار . جريئة
على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدودة من الانخار . مودودة مع
الاخيار . وحمام البلد اليها مع العوام محمولة . وعقود الاكياس
عليهم محمولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث
على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخطر . وفيهم
من سلم مرارا من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعوام . ولقد عطب
عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما
لقي رفقاًؤهم لا قون

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمـر
السلطان عساكره بالعود فتوافقت أمداد أجوادهم توافي أمداد
الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن
محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العدة
وأحسن الاهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي
ببسالته يقسر الليث القصور . وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام .
الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد
القمام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من
العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء .
وكثرت الجنود . وانتشرت البذود . وحلقت عقبان الاودية . وتلاحقت
زؤبان الاودية . ولعلت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البوائق .
وحملت بواشق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . ونبتت شقائق
العقائق . ونظرت أحداق الحدايق . ويسرت طرائق الطوارق .
واعجبت أزهار الرايات وانتهت غايات الفايات . ونزلت بحسن
الصنيع نصوص النصول . ودارت بيد الربيع فصوص الفصول .
وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . ومضت المواضي ومضت .
واقترضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحلى .
وغربت السمر بالكلى . واشتاقت لدات اللدان الى العناق . وتناقت
شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث في المجارة باجراء العتاق .
وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة
الجماجم اعراب العراب ، وحمي عزم البطل . ومحي رسم المال .
وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته .
وفاز النصر بعدته . وجلت بنت الفمد في زي الهند وري الفرند .
وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام
نصبر ولم لاندشتغل وكيف لاندشتغل . وحتام القعود . ومم الركود .
ولماذا الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو
وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول .
في الفصل الاعل والفضل الاكمل . وتداني العسكران . وتعالى
العشيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر
الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على تريب
منازلهم طلبا طلبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة
الميمنة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصدونة ،
والملك الافضل في اول ميمنة القلب وأخوه الملك الظاهر في اول
ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء
بالذقع النائر مذقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر
مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة
متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، مذقصة كالبزاه ،
مذفصة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، عابية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار
الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرافة ، وهو الشريف فخر
الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فتلقاه السلطان
بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه
الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من
وقف له بالقرب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد .
وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند
القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٢)
وأصاحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في بار كاه له
مضروب ، وخصه بصنوف من اللطاف وضروب ، ووصل معه
حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتوقيع بعشرين ألف دينار . تقترض على الديوان العزيز من
التجار ، وخمسة من الزرايين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق
بالنار . فاعتد السلطان بكل ما أحضره . وأخلص الدعاء للديوان
العزيز وشكره . غير انه ابدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل ما
معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نهشني ما شملني من
عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بالفرض ، ويغنيني عن الالتزام
بالقرض ، وأركب الرسول مرارا معه واره مبارك النزال . ومعارك
القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابطال . ومطالع اللقاء .
ومواضع الهيجاء . ومصالت الاقدام . ومنابت الاقدام . ومواقف
الصفوف . ومصاف الوقوف . وأماكن البعوث . ومكان البووث .
وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشهد بما يشاهد . ويبين له
المجتهد والمجاهد . وأراه ما لم يره لياثر أثره . ويخبر بجملته
ويجمل خبره . وأقام الرسول طويلا . وأقام له السلطان من طوله
دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استأنن في العود
فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفرنج عكا بالابراج والاعجاز بها والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار . شرعوا في عمل الابراج الكبار ،
وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبذوها وقدموها ،
ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طباقا . وسمروها بالحديد .
وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا . وأبسوها
بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ . وزحفوا بها الى السور وكشفوا
بـالرمي منها بعض سـقوف الدور . وتسـاعدوا
على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر
بان التلف بها حوام . وان البلد قد أشرف . والخطر قد أسرف .
والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخندق قد طم .

وأنتم إن تم هذا عراكم العار . واظلم على الدنيا والدين بليله
النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشتد وكرب وركب وكان
يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحف الى الفرنج ليشفلهم عن
الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين من ربيع
الاول يوم الجمعة . بالجحافل المجتمعة . والغماغم المرتفعة .
والصوارم الملتمة . والصلادم الممتعة . والأسنة المشرعة . والاعنة
المسرعة . والدوائم المنتجة من النجيع . والبيارق المختفة كأزهار
الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود
ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي النقي ،
وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضايقهم السلطان
مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتى
دخل الليل . ولغبت الخيل . فقوى تلك الليلة اليك . والزمهم في
الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور
نحوهم مجاهرا . فلما أصبح يوم السبت صبحهم بالحرب .
وسبحهم على بحر الكر والكرب . ورجل الرجال اليهم . وانزل
النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد الذقع . واتسع خرق
الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقضى القوم . وتفرق
الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدماء . أو جريح على
بقية الذماء . ويات الناس في السلاح شاكين . وبنار المذاكي
ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حاكين . ورجع السلطان الى خيمة
ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع
في رياض الاخلاق الرياضية . وأصبح يوم الاحد راجعا الى قتال
أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانتقال السوق
الى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهور
الانصر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم
نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقال الى المخيم لتلا يغيب
حاضر . ولا يصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب
مباشرين . ولعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهم معاشرين .
فانتدب منهم الى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح . وكل محترق

741

على نار الهيجاء للهياج . وكل وقاح بالحرب وقاع . وكل
صرار بارداء الكفرة نفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لفام .
وكل أسير

الشد له في حومة المأزق زئير وبغام . وكل متلاف للغيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجاف . واخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس . وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . ووضحوا بالذكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وان البلد ضويق . وان العدو المخذول يحقق به كيده وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله . ويكفه بنزاله عن نزاله . وجدد الكتب الى الامصار . بالاستتفار والاستتصار . فاول من وصل ولده المالك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظر ناضر . ورونق حاضر . وجمع كثيف . وحشد لفيف . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهياة معجزة وهيبة العدو مزعجة . وصدولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوايل . وعناق وصواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبائل . وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حران جريفة . وقد استأنف الجهاد عزيمة جبيلة . ثم عاد الى عسكره ليقدم به . ويحضر بجنده وتركمانه وعربيه

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها
وتلف كل ما كان و من كان في طباقها .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون تتابعت بظهور دلائل النصر وتناصر أسباب الظهور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشعلها متسامية . وفي
الجو بشرارها مترامية . ومايدري ما سبب هذا الحريق . وكيف
تيسر هذا التدفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار .
وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لانوارها
في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثائه
تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبالسنة
النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من
صدماتها وخدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا
نكتب بشائر النار . ونسير بطاقتها على أجنحة الاطيار والعجب ان
الابراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدنا الفرنج لمسافات
متناثرة ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف
اسواره وكشفه ، فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من
الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد
الشدّة . وذلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقعة ، وكان سبب حريقها ان
رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن
السلطان في دخول عكا للجهاد ، واقام فيها باذلا للإجتهد ، وغري
بعمل قدور النفط وتركيب عقايره ؛ وتعيين كل نوع وتعير
مقاييره ، وتقدير معاييره ، والناس يخدكون منه . ويفضون عنه .
ويقولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وما هذا الهوس الذي وقع
فيه . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر
القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل
من الامتزاج الامتزاج . قوتلت بكل فن ، وابنى اليها من النفط كل
قدر وبن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل زفاطة مرهقة . وبالح في
صنعة الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس .
واستسلم الناس . فمضى ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء
الدين قراقوش الامير وقال قد راينا ما اعترض من التدبير .
وما عرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله
يأتي منها بشفاء الصدور . فأنن له على كره . وقال بما ارى لاحراق
هذه البروج على يده من وجه . فان الصانع قد ابلسوا والزرايين
العارفين بالصناعة يدسوا فلما وجد الانن وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها
ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدر زلف
لانا فيها . وهو يصيبها على اعالي البرج ويسقيها ، والفرنج
يعجبون من البلال ولا يدرون بما وراءه من الشعل ، ثم قذف بقدر
ناريه ، متشعبة بكل بلية فوقعت في الطاقة الوسطى ورمى اخرى
فوقعت في السفلى . فاشتعل البرج من طرفيه الالنى والاعلى ،
وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين . فاحترقوا
اجمعين . وبخل اليه ايضا جماعة لاستدقاذ مافيه فاحترقوا
بدروعهم وسيوفهم . وتقلب الجحيم عليهم غيظا لا يستطيعون حثوفهم .
وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احراقه
التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وما كان ذلك بصنعة منه بل
لان الله وفقه . وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها
رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سوادا .
واحتترقت المجانيق والاستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر)
(البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفار بذلك
الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت
امالهم . وركدوا بعد حربهم ، وركنوا الى خزيهم ، وضلوا في
سعيهم . وتورطوا في بغيهم . وسقط في ايديهم بسقوط ايديهم
وحقيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا
الخندق وسدوا الثغر ، واظهروا بظهور القدر القدر ، وجاؤوا الى
مواضع الابراج واماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها .
وذبحوا الرماد عن الزريعات التي انسكبت ، وكشفوا عن الاستائر
التي تهتك . فاخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا واترب من
ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب .
وبردت من حر تلك النار . وشفي اوامها بذلك الاوار . والحمد لله
الذي جعل تلك النار لاوليائه بالبرد والسلام ابراهيمية . وعلى
اعدائه بالحر والضرام جحيمية .

ذكر فصول أنشأتها من كتب الإسرائيليين بالنار

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرفد . واعذبه حال الظما البرج من الورد . وذلك ماظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاتفاق الحسن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو الاسن وهو ان اصحابنا بعكا رموا بقدور النفط عدد العدو المدحور . واحرقوا جميع مالهم من المنخور . واحتترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قربوها . ومنجنقيات نصبوها . ولهم منذ تسعة اشهر يجمعون هذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف سمكها وقربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام من نكاياتها . واظلت الافاق من غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سور غاربا . فاقدر الله على احراق ما عمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . وما فصيح ألسن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . وما بسط ايديها على من كان فيها من الرجال للارواح ناهبة سالبة

فصل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذي ورت زنايه . والنصر الذي قرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغركا استظهروا وظهروا . وصبروا فانتصروا . ورموا من البلد ابراج الفرنج المنصوبة عليه بقدور النفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بها ألسن النار المنصرمة . ودبت من الابراج المقربة الى الدبابات المقدمة . وعلم العدو ان كرتة خاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجم السنني والنور الالامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بهكا يوم السبت ثامن عشرين ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقدر الذنط المحرقة من الثغر . فطالت السنة النيران تدعو على اهلها بالبور . وتبدي في تضرعها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ما اعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم: كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمى اصحاب المحصورون المنصورون عد العدو وابراجهم بقدر الذنط من البلد فخطبت السنة النيران على تلك الاعواد . بل على ذلك الاطواد . والحقها رداء الردى والحقها بالوهاد . وفرشت رماها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام يردها وسلاما . واحترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنوقات بصدمه المنجنوقات . ودبت النار الى الدبابات . بصدمة التأثير وحدمة التأثير . وما طول ألسن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبار . وقد ابدت الى الاسلام بتضرعها وتضرعها وجه الاستبشار . وما احسنها وهي ترمي بشر كالقصر . ويكسو سنني لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر . وما قطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الآلات عن البلد اجنحة الحصر . وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر . وقد بغت هذه الفجيعة فجأة من

حوته تلك البروج . وبخل الى طبقاتها قوم لطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع ، وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناهل والسيوف . كل ما وجدوه خلال رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج وثوقا بوثقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها . ووصلوا بها اجنحتهم . ونخروا فيها اسلحتهم فاخذقت ظنونهم . وسخنت عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفذ الفرنج اموالهم في عدا اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شاذخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجمهم . فلما قدموها بعد لأي . واحكموا باحكامها كل تدبير ورأي . واشرفوا منها على سور البلد بأمر ذات أسواء . وجاؤوا بآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر العليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله ما لم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب . والهم اصحابنا ماداءوا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . وأقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في القدور . فتسلطت النار على عمل اهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك البخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

- ٦٠٣٧ -

وتحللت تلك الجبال وتحلل تركيبها . ولصق بالتراب ترتيبها .
وتدكس منها صليبها . وكانت ثلاثة أبراج شاهقة فلعبت في ملاعبها
النيران فاذا هي زاهقة . وتندقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز
شياطينها برجمات شهبها عن الخروج . وتسלט الحضيض على
يفاعها . وباد الدارعون فيها بادراعا . واضحك الله ثغر الثغر بما
اطابه من ارج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهج ما اكرب قلوب
المؤمنين من الوهج . وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل
التثليث من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا من اسواره . والصقوا
منها جدرانا بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره .
فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحرق عمل أهل النار
بناره . وكان اصحابنا عاينوا ما بهمهم وهمهم . وخصهم من
الخطب وعمهم . نصبوا مجانيق بازاء الأبراج . وصدعوها بها صدع
الزجاج . ورموها منها بقدر الذنط فاشتعلت رؤوسها وشابت
وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبت . وارسل الله في
تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قد حصت
واسنمتها قد جبت . وسقط في ايديها ووجبت جنوبها وكبت على
وجوهها في النار وكبت . فما افصح السنة النيران وقد نادت
بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من نقع غليلها واحبت . والحمد
له على الطافه التي ما غابت ولا اغبت .

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التي جرت بحقها
وحقيقتها . وحليتها وجليلتها . فانه يشتمل كل فصل على تمام ما
اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم اقيه الملك المظفر تقي الدين بتل كيسان . واهيه بعده الملك الظاهر خضرو المعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلاله . ثم تلقاه الملك الافضل ابني من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلاقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك والطف المتدارك . واعتدقا على ظهر . واتفقا على بشر ونشر . وكان الملك العادل تأخر فلحق . واظهر من ارج سجاياه ما بذشره عبق وبجبه علق . وسار مع السلطان باطلا به وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قبالة العدو بصفوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم ربه السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وادسه ببشر السماحة والسجاجة . ووقف الامراء والخوادم والاولياء صفين . وانشد الشعراء من المدح والذسيب صفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العرب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . وواجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملا تلك المروج بعساكره المالية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى . بالأيدي الأطول واليد الطولي . فالتقاه السلطان واخوه واولاده على قاعة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه . لكنه لم يقصر في القساعة عن رسمه . ونزل بخيمته في فناء السرايق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي . فكان ذلك المرج بحر امواجه الخيم والمضارب . او سماء كواكبها ما اشرعته من صعاها الكتائب . او غيل أساه في أجام القنا الفوارس . او غدير من السوابغ حبابه الترائك والقوانس . او سحب بروقه الصوارم الرقاق . او وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود . وهو كوالده مسعود مودود . وفي شهادته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة . والمفاخر الاصيلية المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدايع المصنعة . وجيشه للقوة ضابط . وجاشه على الحمية رابط . وبأسه ليد الايدباسط وجنانه على الكفر ساخط . وهو شاب اول ما بقل خطه . وابتهج بكماله رهطه ، وكان ابوه قد عزم على الوصول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم بانسه . ثم رأى المصلحة في الاقامة وتقويم ولد المشكور المشهور الشهامة . فانهض العسكر المجر معه ثم اتبعه بمن حشده وجمعه . فورد ورود السحاب الكنهور (٤٤) . ونور المطالع بسنى السذور (٤٥) واطلع بطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه . وحافظ من الكرامة على توفير سهمه . وانزله في سرايقه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وامر بانزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر . ولم يبق في اهل السلطان الامن اقتدى به في الاحتفال بقدوم هؤلاء . واعتماد ما قام به البرهان على المصلحة في الولاء . والمسارعة الي الضيافة والاهداء . والاعانة الى المكارمة بعد الابداء .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله .
ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجلس في
طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حدث
همته العليا . وحض لحظ بينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده
علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه .
وأوفى جنة . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطر
بدرا . واصفر لمرتقبى صباح النصر فجرا . وجلأ وجوه المؤمنين
ببشاه بشرى . وملأ صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم
وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم
الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و
المجد المؤتل . بجيش كالسحاب للسيل . فدوت اخلاف النصر
بحقول ذلك الحجل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل
مقدام . وزار خيس الجيش بكل ضرغام . وزار بكل اهتمام بالمذون
همام . ووصل بكل واصل لسبب النصر . قاطع دابر الكفر . ووفد
بكل وافد باليمن الوافي . والنهج الكافي . والعز الصافي . والعزم
الشافي . وطلع بكل طالع بالسنى . جامع للمنى . فارغ بالفنى .
فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا . وكان هذا اول يوم لقائه
للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع
بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتوיד الى الناس .
والتشدد بالباس . والتواضع مع الكرم . وينذو الود مع علو
الهمم . ماله مبدول . ونواله مأمول . وسيفه على الكفر مسلول . وامره
بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول . وهو مرجو مخشي . وكريم
هشيب . ومهيوب مرجو . ومحسن بسنى الحمد مجلو . وكان معه خلاق
كثير . في سلك الاتساق ومسالك الاتساع نظيم نثير . وانزل بقرب
اخيه مظفر الدين في الميسرة . وتمكن الرعب بما تم من الجمع في
قلوب الكفرة .

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه النخيرة والميره . والعبد الكثيرة . فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول . وتم بظهوره النصر المأمول . فركب السلطان في جحافله . وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله . واحدق به حول خنادقه . ليوسع عليه الهلاك في مضايقه . وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول . ويسهل عليه بدشغلهم طريق الوصول . فعمر الفرنج اسطولا . وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا . وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور . ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور . فجاءت مراكبنا . ونطحت مراكبهم وطحننها . واوهت متنها وأوهنتها . واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا . وكان تقصير الرؤوساء في حفظه لأخذه سيبا . واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس . وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية . وكلاءة الله لنا ولأصحابنا وافية .

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها
وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني . وهناه من النجح السني . واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني . وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور . ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور . متوافرا بوقود الوفور . وبخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور . فاثرا البلد بعد انفاضه . واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه . واستجد جده وافيه . وعصمة واقيه . ونخيرة كافية . وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها . وبرزت مناكبها . وحمت بالرجال

والعدو جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها .
وسحبت على شمع البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا
الحداقة بعقابها وثمانينها وعقاربها . وظنت انها تستطيل على
رواسي اساطيلنا بسواربها وانها تواجه عرائسها الحلوحة بحور
جواربها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص
العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب
بما احاط بها من النواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر
حين نذر فذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها . ووجدت
فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهن . وكانت الفرنج
حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالأسد
عريسه . في شوان للعدو شوائن . وشواننيات لشله وفله
ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في
مطار العقاب على المجرمين حداقة . وسواري هواضب كرواسي
هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر
مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو
قاطعة . وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة
تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر
أمواج في الأمواج . وبخلت الى الثغرافواجا بعد الأفواج . وكان
العدو قد أبرز أساطيله . وجهز أساطيله . وشب عوابه
ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمى مناكب مراكبه . وجد في
امهاء غروبه وتسليم غواربسه . ولما وصل الاسطول طال
وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده
واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت
اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلاها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثري به
الثغر بعد الانفاض . واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . وبذل
اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة توجب كثرتها قلة
المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق
رياضا . والمراكب الاسلامية انقضت فنقضت للمسلمين
اغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو
اعراضا . وجاءت سواربها كالرواسي . وجواربها محكمة
المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل
النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء
الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشدد شدد
العراب . وعقاب محلق على الشراك في مطار العقاب . وغراب ناعب
في اعداء الله بين الاحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة
وافية من الكافرين بقطع الرقاب . وما أحسنها وقد زفت
عرائس . وجلت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل
الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا
وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الضلال . ولما شوهد
الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من
الاعداء بحقه . وأشرق سنا النجى في أفقه . ركب العسكر المنصور
للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى
الأبطال بالأبطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل
والنصال . وأحمرت البيض الفامئات ورويت من نجيع
الزرق . وبشرت جياح العواسل من اليراع العاسل بعاجل
الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل
والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه من
الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب
الشتات . وأدرك المشركين ماقاتهم من الآفات .

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثور . فقل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمتعون بغربهم (٤٧) من تشريقهم . فاضطروا الى المقام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها . ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها . فترجلت منهم الوف . ورغمت أنوف ، وكان ذلك في البرد الشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فدقنوا وأحرقوا منها . وتركوها وسألوا عنها . وكان ذلك من الله لطفا . وأمست قوتهم ضعفا . وكانوا في خلاق لايعد . وجمع لايجد ، فما أثر فيهم ذلك النصب . ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازالوا يسرون والأوجية تبدي لهم للوبال في أوجها أوجها . والأفرنجية لاتنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتي بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسعود . ومسالكها دونهم غير مصدود ولامسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعيهم . وبخلوا قونية دار ملك المسعوبية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على ماكان بينهما من المواثيق والايمان . وحمل ملك الألمان له وفرا وفرا . واشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسير في بلده الى بلد ابن لاون . واعطاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصل الى المؤمن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بما يرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواثيقه ، ووصل ليقون بن اصطفائه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . وبخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريدوا بها النفوس ، وقيل عن لقلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهاكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه : كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:هنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والقياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة . وبخل الماء فطغى على ذلك الناري الطافي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجبت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه . وايسوا من علاجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجنابه . لما كان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . وراموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيسة تهم بالقدس قمامة . ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لا تلافي لما

فرط من تلافه وفوته فارقهم الى بعض قلاعه . واتصل الضربهم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقول ويعدد ويدهه ويهدد . ويرى انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضح . وان الخطب فظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهذكر فدخله غصبا واوسعه نهبا . حتى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراد، وانه اخذ من ماله ورجاله ما اختار ، وتزود من عنده وامتار ، ثم وطىء ارض ملك الروم وداسها . وتوسط بيارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادها . واحرج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

واخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومن الثياب الطلاس المعدنية ما بلغ الألوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه . ومعروفي كبرائه . وأخذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعدية . من مراكبه سحب . وأنه لما عبر وفرغ من الخروج . تلقاه بالخيول والدواب والأبقار والأغنام تركمان الأوج . ثم وقع بين التركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان . والتقى الأقران بالأقران . وهزمه ملك الألمان . ولما أشرف على قونية خرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها . وأنه هجم على قونية عنوة . ونال منها حظوة . وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة اكية . وحصلت لكل منهما فائدة مهيبة ، وأخذ منه رهائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتابه الى ابن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقيه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الأنهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربه وانقضى . وخلفه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء
ابيه . فلما عرف مـوته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض
عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفف . من كل سرحان أهرت
وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم
طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس
وهجروا الثياب . ولزموا المصاب . وداوموا الاكتئاب ، وهم
صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتفعت الانجاد
والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا
يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويذلّم ثغور
الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان
على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على
رأي الثبات . وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقت
عزائم النين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى
مكانه أخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد
الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج
ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين
بهرام شاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المسلك . ثم
سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القصور . ثم اليار
وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الأفضل وقد
عرض له ألم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد ألم به سقم . ثم سار
الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف
الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت
الغله . وخذلت الاماكن وتمكنت الخلة . ثم رحل الملك المظفر تقي
الدين لحفظ ثغر اللانقية وجبله . ويثبت بقدمه عليها الرعية
الخائفة المجفلة . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من
جمادى الآخرة . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت
الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ الثوب في اليزك
مستتيما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون
وصدق الاعتزام . ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد
للأم . وكان بدمرد الله المرض سـليم العـاقبة قـريب
العافية . مستعقبا لألطف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في
الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم
فيهم الموت والوبا . وكثر عن ذبواتهم الذبا . وتقدم السلطان بهدم
سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا
وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

وأما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض أياما في بلد الأرمن
واحتبس . وهلك أصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت
في خيلهم ، فأنن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتياث
جواهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم
في ثلاث نوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة
عصا وركاب حمير . غير عارفين بـطريق ولا متحفظين في
مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم
ويتلفونهم . ووصلوا إلى انطاكية ووصل إليها الملك . بعد ان ضاق
به وبجمعه إليها المسلك . وضاق به الابردنس صاحب انطاكية
زرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة
فاخلاها له . ونقل إليها ماله وأثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على
حلب فخاف . وأبدى له الخلاف . وقبل وصوله إلى انطاكية قلت
جموعه وجنوده . وبلت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة
الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج
رجالها عليهم على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا
على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين ، وقيل انهم حسبوا
ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاءوا إليها سحرا بأحمالهم
وأموالهم السنية . فلم يشعر إليها الا بالبغال على البساب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها
وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلي عنها اصحابها لما عرفوا
الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من
مال القوم . ثم انكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام
عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه
انهض جماعة من اصحاب امراء حلب واصحابه . ليقتفوا
آثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم
فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاء البزاة
على الحجل . وزاروا فيهم زئير الأسد في الذقاد . وزاروهم
بالاجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعه . وتركوهم
متمزقة متمزعه . وعادوا بالاسارى الى حلب وباعوهم في
الاسواق . وامتلات بالاسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب
الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم
اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة
حتى آواهم الابرئس الى انطاكية . وراح من الامهسا
الامانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا
اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم
العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرئس
بتلك الاموال المجتمعة . والنخائر المودعة . حتى قيل انه انما رغب
في الوصول الى بلده . ليحصل على سبده ولبده .
فأخلى له قلعه . لينقل اليها خزانته . ففعل ومارجع اليها .
واحتوت يد الابرئس عليها . ثم ساروا على طريق
الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة
واللاذقية . وسقتهم كؤوس المنية ، واقتهم على البسوس
والبلية . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص
نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى
مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما لقيت جموعه في
طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على
الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على
عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بنقع غليل ، وسألم بذكر حالاته في مواضعها . وذكر مصارف
جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارجاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمة الغماء . والذكية
الذكباء . والشدة الدهماء واليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه
ملوك الافرنجية وحشودها . وقوامصها وكنودها . واحزاب
الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبذودها . وصل جارا على
السماء نيول قتامة . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه
لطلاب ثاره . سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره . وانه في
عصائب صلبان في عصيبتها متصلبه . واتباع شياطين لارضائها
متفضبة . واسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبة . وانه في
مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر
سوتها رحي الحرب الزبون . وقد اوقدوا للشر شرارا . وأضرمو
للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهم على قسامتهم
دائمة . وقيامتهم قائمة . والموت يدعوهم الى المقبرة التي
يدعونها ، والآجال تلببهم لمناياهم التي يدعونها . وكان خبر
وصوله متداولاً على السنة الارجاف . وتشيعه اعداء الله من قبل
للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد
الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع
باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبر صحيح . ويقين نبأ بامر
صريح . حتى اذا صح الخبر . سار العسكر ، ثم انقطعت
الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان
وايار . وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان واولاده ورسالهم
متواصلة بما ينبغي عن التعاضد . ويبني امر الوفاء والوفاق منه
على التعاون والتعاقد ، وهم بانهاء ما يصح عندهم
واعدون . ويزعمون انهم في رد الواردين واردة لهم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بفتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا: انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخذوا لهم الطريق وادعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاضم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض ، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الافادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتسوق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه ، واقدرونا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولا يدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغزمه الله من اسلابهم وشلاتهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالماني المخذول قد وصل فما لعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصره الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده واوان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفني بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلوجه النعمة فيها ، بل قضية وفي الله في النجاح بموعد توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اوليائه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملايسة الخطوب العظام . وليثب واثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتحاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية الذفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرق الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد أن للاسلام ان يسلم . وللإيمان ان يعدم . وللتأليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللکفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبد . والبرأتي آتیه من كل بلد للکفر بسببه ولیده . ووصل الالماني المخذول بعده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشرق قد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وقد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محدشوره . وبذود مذشورة . وخیول مجفجه . وسيول مجدغه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مفترون . بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستنون في طريق العثرة
والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى
الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه
الغمة . وكشف هذه الملة حتى تخلف ايماني الالمني . وتبسطش
ايمان الالمني . وتخذل انصار النصراني . وتجنني وتبر رؤوس
الجنوي والبيزاني . فايين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين
المهتدون في نهج الرشاد المتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا
للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في
نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض .
لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولا بد من لقائه قبل تلافق
الجمعين ، واراة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله
الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثار الصليب
السليب . وقد وجد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نفعه .
وما فض القضاء ختام قتامة . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل
الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالمني مخفف بالمامه .
والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة
الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه .
واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلة

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملا
احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا
حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشام . فنحن ننتهز
الفرصة . ونحرز الحصاة . ونهتبل الغره . ونهجم عليهم هذه
الكره . وننذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم .
ونمت بعز العزائم ونفل حدودهم بحدود الصوارم . فخرجوا ظهر
يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة . في حشر يذكر بحشر
الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجام لنا
متوافية باسادهم . وامتدوا الى الخيم العادلية ، واشتدوا بما
استصحبوه من البلية . في كل ذئب امعط . وسيد قد تورط .
وسرحان سرح . وافعوان كلع ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي
أقدم وما احجم ، وسعيري ناري استعار خدمة النار . وسقري
قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبوار . واسبتاري
راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء .
وسرجندي كرار . وفريري غير فرار . وفارس يفرس الرجال .
وراجزيرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشي
يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقع اذا غوى في الوغى
ماترك ولابقى . وبخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها . وقد كانت
اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه . وعن يمينه
ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايماز النجمي
وعز الدين جريدك النوري . وجماعة من المعروفين بالشهامة .
والموصوفين بالصرامة . ولبت الملك العادل لبث المخادع المخاثل .
حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشار .
وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر
شمس الدين مودود . وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود .
فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر .
قبل ان تقصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشهم على
الارض وذكرت الواقعة العارضة بوقعهم في النار يوم العرض .
وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفت اخ الى اخ .
وركبت العادلية اكتبافهم . وقلوا فيهم اسـسـيافهم .
وعقروهم وعرقوهم وبجـوهم وبـعـجـوهم . وحكموا في الرقاب
الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعنقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبة . وقتل منهم زهاء عشرة
الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها
تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة
الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني
وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره .
ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد .
لمشاهدة ما هناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ماسلوبوا
وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقت عيونهم . ورأينا
امراة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعتها وهي خادمة بالعبرة قاتلة .
ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونفكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى
العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها .
بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم
اجابتي لما دعاني . فما صبر ولا انتظر . ولا ترقبني ان احضر .
ولا امهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا بانوار المعاني افقها .
وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف
بحدود الاقلام ما صنعت حدود السيوف . واروج نقودي عند
السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ
والايبات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة
الثقيلة الجلية في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت
الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها .
واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان
لتلك الواقعة عند من وقف عليها وقع . ولا تم لغليل من رام الاطلاع
على حقيقتها نفع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما
استحسنوها . ولو وردتهم بزيينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك
الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد .
وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون ما يكتبه .
ولا ترغبون فيما ارتبه واهذه . فقال كانك كتبت البشائر فهاتها .
حتى تهدي الى طرقاتها . فقلت ما فات فات . وهيهات هيهات .
واخرجت له ما بقي من بشارات البلاد التي اذشأتها . بالالفاظ
والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جداما بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المنابر .
وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر . وبهرت
بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مباهجها مناهج
الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وما اسحها نصره . وما بينها
محجه . وما اثبتها حجه . وما أفرجها مسرة . وما أسرها فرجه .
وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفارقة عدة كثيرة
من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقاطرين . وانتشروا
متغاورين . واغاروا للواء اللاواء ناشرين . ووصلوا في الميمنة الى
الخيم العادلية فاخليت حتى بذلوها . وتفرقوا فيها بجموعهم
وتخللوا فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعراء .
فوضى بالفضاء . فما بكت عليهم الارض ولا السماء . ورويت
السيوف من دمائهم . قبل ان تشبع الوحوش من اشلائهم . وظهرت
لنا نعمة الله في بلائهم . وحيي الاسلام بهلاكهم . وضمتهم اشارك
الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثر من عشرة الاف
قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظاهر .
ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرههم . لكنا فرغنا من شغلهم
واخلينا بالناس بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم .
وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجو
من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خطبهم الخطير . وان
ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هذه الواقعة بهم حقق
عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم وبحورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلة في الميمة الميمونة . واشتغلوا باستباحة
احوالها المصونة . فاطلقنا عليهم الاعنة . وشرعنا الى نحورهم
الاسنة . وبعنا الذفوس لندسالم ثمنها الجنة . وفرشناهم على
الارض . واربينا بارداثهم بعض الفرض . وانجلى المعركة عن عشرة
الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكانهم جاؤوا على موعد
مهلك . واروبنا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا اشلاءهم قري
الوحوش لا الضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من المخوف . وادرك
الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود
ريحهم . وخمود مصاييحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم من حوالهم . ورضتهم
بالدبابيس واللدوت . وتركتهم صرعى بتلك المروت . وساحت بتلك
الساحة دأماء الدماء . واكتسى عري العراء بتلك الاشلاء . وافضى
بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعت
ثعالب الرماح من كلاء كلاءهم في المرعى . وانجلى المعركة عن مهلكة
عشرة الاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتن جيوفهم
ربيع النصر . وحننت من سماجة مرأهم وجوه الدهر . والآن الان
الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبت نكباء نكبتهم .
ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام
ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها . وتفرقوا فيها بجمعهم
وتخللوا . وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر . وتموج بحارها
الزواجر . فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء
والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايمار النجمي
وبشارة وجريدك وعطفوا عليهم عطفه صددتهم عن
الانعطاف . وصرفتهم عن الانصراف . وثارت اثارهم بدواتر
البواتر . واحتوت عليهم الضواجر احتواء الضمائر على الاسرار
بالحوافر الحوافر . وفضتهم بالفضاء وعزتهم من كسوة الحياة
بالعراء . ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم . واتى القتل على
اولهم وآخرهم . وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة الاف
قتيل . ملأت كل واد وسدت كل سبيل . وقد ذلت عزتهم وضعفت
قوتهم . وعجزت قدرتهم . ولما انقضت هذه الواقعة . وثم
للهاضين اليها الرجعة . رأيت احد مماليكي ونصله قد
خضب . وعزمه قد رضي بعد ما غضب . فسأله كم قتل . والى
اين وصل فقال: اما انا فما أبقيت . وخضت البحر وما
توقيت . وهذا غلامي قتل تسعة . وشام من عارض نجيعهم
نجعة . وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا
اضعافا مضاعفة . وعموا ممن وراءهم مساعدا
ومساعفة . وحكي من نوادر هذه الواقعة ان فرنجيا عقر فجئا
للصنعة . فعثر به راكب برذون . بغير رفيق ولا عون . فعرقب
الفرنجي فرسه بسيف في يده . فنزل بجده مستنفا في جده . وقتل
ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي . وحل من وسطه ثمانين
دينارا . فأنقلب ربحا ماعده خسارا . وامتلات الأيدي بالأسلاب
والأكساب . وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب . وبيعت
الزربيات ذوات الأثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك
الذقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجاح كل مرام . وبخبر بان عسكريا مجرا من الكفار خرج للفارة على الاطراف والأقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع النور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهي قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضاقتها القشاعم والخواص وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، ونفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري
بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط
اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخلاف ، حتى وصل في البحر . كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالاموال . وحلى منهم بعد عطائها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان نبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمددهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تدميمه . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكريا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشره . وشاع هذا الخبر على السنة الجواسيس والمستأمنين . فاحضر السلطان أمراءه وخوابعه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقدم من الصواب . ويفتحه في المصالح الراجعة من الأبواب . فاشاروا بايساع الحلقة . وادارتها بالمنطقة . والتنفيذ عن العدو بالتأخر عن قرب . حتى يؤنس الى الخروج لحربه . فوافقهم السلطان على هذا الرأي وحسن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . واشتغل بالتدبير في الفوز بالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالي سفوحها . واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتب اليك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالذوبة في يومين . وضويق باهل الصدق منهم اهل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليك اوقات نوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فالكاتب متربدة اليها ومنها السباح . والحمام اليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح . والمراكب تدخل اليها وتخرج ، واليها وعنها تعرج وتعرج . واخبار ملك الالمان متواصله . بأن انصاره له خاذلة . وانه ضعف وهى . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المسير . واعتاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبل ان يصل الى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالانفاق في رجال الاستجناد والاستنجاد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمع قطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مستمر على المودة راغب في المحبة . ويعتذر عن عبور الالمانى . وانه قد فجع في طريقه بالالمانى . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقه . ما اضعفه وأوهاه . وألهبه وألهاء . وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو يذفع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويمت بمأبه كاده . وأنه بلغ في اذاه اجتهاده . ويطلب رسولا . يدرك به من

السلطان سولا، فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة انفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكنود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجنيق . من الرمي غير مفيد . رجومه الاشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين . وميادين ثعابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صدقهم صدقها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياح في ترك الارتياح . وخرجوا بالفارس والراجل . وأموا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والاستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها . خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فاحترق جميعها . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعروفين فيهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبذوه فطابه منهم الفرنج بالأموال . ولم يعرفوا بالحال . فأخرجوه اليهم قتيلا . فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه نوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخدموا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس . وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم . والاستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تثلث .

- ٦٠٦٣ -

والخدود بالنصال تلتئم الى ليلة شعبان من السنة . فأبّت بالحالة
الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم بانكاء
مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبوا بعد كل استظهار .
وانفق على أحدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة
الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها
متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواربت الشكوى من البلد أن النخيرة قد فنيت . وأن الأفكار
باستدعائها عنت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على
السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالغلات . فرأى أن
ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعل له
اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . أن يهجر في
كل مابه عز الدين السامة . ويعطي ويتزكى ويحتال في اتفان ميرة
الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيمته الماضية
فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملاها بأربعمائة غرارة قمح .
ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام .
وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة . وهي بساحل بيروت مندبونة فأمر
السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البغية منها وتكثيمها .
وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومائت بالشحوم والحدوم .
وبكل ما تدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من
أحمال النشاب والنقط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب
فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا أن تشتبه
ببطس العدو في البحر . وأن لا يندكشف للفرنج مالها من الاستقرار
فتصوروا رهبانا . وصوروا صليبا . ومسحوا لحاهم ومسحوا
حلاههم . وتملطوا وتكوفوا . وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا
وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب
الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم مندبسطين . والقوم

- ٦٠٦٤ -

لجهلهم لا يشكون انهم من اهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث .
وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حاذوا بها عكا صوبوها
نحوها والرياح تسوقها . والفرنجة تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه
طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سد فوقها . وقد عقت رفقتها .
وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب
الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزا البلد بها
شهرًا . ووجد منها لكل كسر جبرًا . يالها من لطيفة قضينا منها
الأرب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه
الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملاوها بالغلات
واصناف الأقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها
عند موافقة الرياح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنته
بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع
امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء
يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لا يبقى لنا ليلة نصف
شعبان قوت . ولا شك ان كتاب اجلنا الى هذا الأمد
موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . وامت القلوب وامت
الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولا يخيب
من رجاه . ولا يضيع من استرعاها فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع
عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة تلك بطس كأنهن الاعلام
واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواربها الحسان
وخفت رواسب سواربها الثقال . وذكرت بقوله تعالى: (وهي تجري
بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والرياح تطردها طرد النعام .
والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم أضل من الانعام . فما

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيتها . واحاطت بها
تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهي تشق عليها وتشققها .
وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منها البر الإيمان الأيمان .
وهزأت بتلك الأكمام المطيفة بها جبالها الرعان . وعبرت والكفر
خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثر . ووصلت
الثلاث وهي سالمة ، والمثلة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها
غمة الثغر . ودفع ما ألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التي
أدركت الأرماق . وأدرت الأرزاق . وتلافت الأرواح من التلاف .
وحملت عن الذفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان
لايبقى لنا شيء نقاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته . فبينما
نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هذا الهم متذكرون . اذ ظهرت
العيون بالقررة . والقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر
مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنها
جبال باقبالها ترور وندسور اجنحتها القلوع . وشعر الفرنج بها
فضاقت مذهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقاربها وقربت من
البطس شوانيتها . وقويت في البطش أمانيتها . وحمى مافيها من فيها
من الرجال . وهي تجري بهم في موج كالجبال . وكأن جواربها
عرائس يزقفن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك
الأعلام المندشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصدقات الى
ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة
موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شاني . وكانت
كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالي . وجازت والكفر خزيان
ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصولها أوان
انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغلاتها . وأزوادها .
وعصمت أرماقها . ودسمت أرماقها . وقسمت أرزاقها . واشبعت

- ٦٠٦٦ -

جوعها . وشبعت صدوعها، وأنالت أرابها . وأزالت أجداها .
وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت
من الفرق . وسكنت بعد القلق .

وعاد اليها بعد الفسق أسفار الفلق . والحمد لله المغني بعد
الاعدام . المذني السني بعد الاظلام . المذني بأوليائه أعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والنفقات الى عكا
ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار خميئا .
يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معه
الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتورته اسباب المتالف
والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما في طريقه
من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الف دينار ومعه من
نفقات الاجناد وبائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمح له خبر .
ولم يظهر له اثر . فظننت به الظنون . وماتت تحت المذون . وكانت له
لا شك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهي مجملة محتملة .
فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهب حق
اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه
احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب من حاله
الناس . فلم ينهب بنهايه الذهب الذي صحبه . وطهره الله من
الرجس وعنه انهب .

ذكر وصول ولد ملك الالمان الذي قام مقام ابيه الى
الفرننج بعكا

ذكرنا حديث الالمانى وملم حادثه ، ومسالاه اليه من دواعي كفره
وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشرين

رجب . ولقي في طريقه على اللاذقية الشجى والشجن والشجب . وانن ضعف خيلهم . بضعف ويلهم . ووجدت لهم ما بين اللاذقية وجبله ستون سبعون فرسا قد عطبت . وعلى اعواد عظامها سواد الغرابيب خطبت . وقد استقبله المركيس . وقصده التائيس . وان يهيه بضلاله الى الطريق التي تؤمن طوارقها . ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقتها . فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان . ووصل خبر وصولهم في سادسه الى السلطان . وحزهم من شاهدهم في الطريق بخمسة عشر الفا . وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفا . ثم انتقل في البحر . الى عكا في موضع الحصر . ووصل اخر النهار سادس شهر رمضان . بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم يبق له وقع . ولم يحصل لخرق القوم به رقع . واقام بين جنودهم . كأحد كنودهم . وقال الفرنج: ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا . فانه لو اقام في موضعه . وامدنا بفيضه من منبعه . لهيبت عظمته . وعظمت هيبتة . وارعب روعه وراع رعبه ورجي منا وخشي من المسلمين قربه . وقد قطع بنا منذ وصل . وحص لنا جناح نجاح حصل . ووصل في البحر وحده . ولم يستصحب جنده . ثم وصل اليه الاصحاب . وتقطعت بهم الاسباب . ثم رام ان يظهر لمجيئه وقعا . ويبدي له نفعا . ويثير لنفع غلة ثاره نفعا . فقال الام القعود عن القوم . وما بقي الا النهوض اليهم من اليوم . ولا بد من ضرب المصاف معهم . واني على الخروج اليهم لادفعهم . فقالوا له انت ما ارثت وهج قتالهم . ولا اثرت نهج نصالهم . ولا حربت بحربهم . ولا كربت بكربهم . ولو حزبت بحزبهم . لاصحب جمادك لجماح صحبهم . فأبى ونبا . وشب الشبا . فلما عرفوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سهله . قالوا له: نبتدىء بالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجل كرجل الدي . وخيل اغصت الوهاد والربا . ومرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشعلوا الخرصان في ليل النقع عوض السر . وقربوا من تل العياضية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلما

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من
خدودهم الى الجذور . واوردت ظماء الظبي منهم ماء التامور .
وانبعت بالنبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من
اعناقهم الديون . وطيرت ياطارة السهام الى الاحداق بهم
الاحداق . وخاطت الاماق وماخطات الارماق . وصار كل سهم
شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من
خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان .
فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتت . ونيول الذقع تنجر
وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن
الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفره .
فاعرضت بالوجوه المتذكرة . وابنا بالانوار المسفرة . ومر الالمانى
متألما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكلوم قلبه متكلمما . وقد عاين
ماعناه من العناء . وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء . وبلي مما
بلي به من البلاء . وعلم ما جهله . واستصعب ما استهله . وذاق
ماضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتل رصعه لو تم صرعه . لكنه
تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه . وقاب وماثاب . وابى
الرجوع الى اللقاء لما أب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره .
واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة
المينا عظيم الشأن . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعبد .
وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين
من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام واليات ابرزوها .
ومكر مكروه . ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته . وريب رأي رفعوا
راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارفقوا غراره . وعنان
عناد اطلقوه . ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها . وعقله
معالقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس

صاريه . لا يطاوله طود ولا يباريه . وقد حشي حشاه بالذفت
والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان
والتصق بشرافاته . اعدى اليه بأفاته . ورميت فيه النار فاحترق .
واحترق من الاستائر والاخشاب مابه التصق وتسقولي النار على
مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه
التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب
يسري فيها الذفت ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن
التي لنا بالمينا و ردها . فتعدي عدوانها . وتثير وتسدي فيها
نيرانها . وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . والشر
مستمدون . حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من
الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج
المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس
ماقدروه . واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا .
فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقا . بل اشتعل برج الصاري
وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت
بطسة الحطب من ورائها . وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعانت
على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا .
فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا
وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه
ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشيع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قدام الرأي في مكر مكرهم .
وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . منفرد عن البلد في وسط
البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلمنا على مراكبهم التي في
المينا . واذا لم نؤثر بمجيتنا تأثيرا فلأي سبب جينا . ومن حيث
هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعلناه . وبالعبد والرجال قـ-ويناه .
وبالجرخية والرماة والزرايين والمنجنيقية ملأناه وبكلاء الله
وعصمته اياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا
على نيل غرض منه قدرة ولا حولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا
فيها مصقلا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها
بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريقه . وصعد
الرجال اليه في تجاويقه . وتعبدوا في ذلك أياما وشبعا^١ تبوشيقا
واحكاما . وهو بمراى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه .
ويستجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بذلك البطسة
زاحفين . وعلى ذلك السلم بعدهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج
التصقت به قوارير النفط . وتوات امطار البلايا من الجروح
والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في
البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي
الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول
النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور بينه متناصرة . ودلائل نصر
اوليائه متظاهرة . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه
بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى
له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه
جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور .
ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت
فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحدار الفرار
وكانت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب
والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب من مهب
لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على
الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح
التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم .

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا
ورغموا . واخلف ما عزموا وزعموا واشتغلوا بمله بطس لهم
شحوما واحطابا وانهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهيوها .
وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها . واندوها منها
وقربوها وكانت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق . فانزل الله الاخرج
وقت الشدة وامن من المخافة المحتمة المحته . وانقلبت الريح عليهم
وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة العانة
خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بطس اولئك
الكلاب بالكلاب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطربة
الاناييب مستهلة الشاييب

ذكر الكبش وحريقه

بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للفوائل غائلة . في رأسها
شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طول رمحين كالعمودين
الغليظين اقفال الاسوار المغلفة بها دفش . فكم سور اذا نطحته
طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهذه الدبابة في حياة
الخريشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها باعمدة الحديد . وكملوا
لها اسباب الاحكام الشبيد . ولبسوا رأسي الكبش بعد الحديد
بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم
يبق للنار اليها سبيل . ولا للعطب عليها دليل . وشحذوها بكماة
المصاع . وحماة القراع . ورماة الحديق وكساة الحلق . وعفاة
الحتف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من
كل سرحان لا ينظر الا من جلد ارقم . وكل شيطان لا يقتحم من
الحرب الا جهنم . وكل شجاع لا يعتقل الا شجاعا . ولا يرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولا انتجاعا . فلما استدفقت لهم هذه الدبابه
وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطافت بذلك الكبش تلك التيوس
النبابه . وامذوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سوا بين يديها
الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها
وقروا بها اعينا بل انفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعم مرأها .
وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هياتها . وعدة تروع هيبته .
ويلي البلد من بذوها بالبلاء الداني . وتغاشت وتغاشت دونها نفس
الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هذه ماني دفع خطرهما
حيلة . ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيه الامل . ومن
الكبش العظيم وقطع رأسه . ومن لبناء الحديد ونقض أساسه . فإن
كانت هذه الدبابه دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمانها .
ولقد قامت بها قيامه الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها
مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من
حواليها . وطردت المطرفين بين يديها . ثم رموها للحزم بحزم
الخطب حتى طموا ما بين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فترنم في
أثنائها عجاج اللهب برجزه . وبخلت من باب الدبابه فاشتعلت نار
ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجاء
الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبينات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل
المستوليات . فاطفأوا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن . ولم
يحدسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أحمدا
الجمر . أحمدا الامر . ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها .
حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها
المنجنيق . فانهذ ذلك النيق . وصوح ذاك الروض الانيق . ووهن ذلك
التركيب الوثيق . ونفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبابه . وخرج
من بالثغر المحروس . بأشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس
الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العبد بالنبش . وحمل كل
من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب اثلج صدره وبرد يقينه حره
واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقل في الة
ليست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد اصحابنا على عدوهم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم يذشد وهو يذشء وينشدد
جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكيش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واسعد شاط
الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن
الشقاء ادركهم، والشقاق اهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وأن ترتيبهم
مدمر . وأن الاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله
ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد
ان تل الجبين فتلينا قوله تعالى (وفيناه بذيح عظيم) (الصفات :
١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة
يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو
القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه
الاجناد وجلب . فجاء عشية وجد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد
بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر .
وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر
الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من
الامراء . من ذوي المكانة والبرسالة والغناء . وقدم الملك الامجد مجد
الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك .
وقد استصحب غلمانة الاكايش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم
رونق . وصفاء لم يشبه رنق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو
على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلهبون بنار
الجحيم . وتركهم اصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى
إقدام المتهور الجسور . فلما ازحموا وكثروا . واضطرموا
واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام .
ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام .
وزارتهم من الزيارات الجروح . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم
المجانيق بالاحجار . وأنت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلاوهم بحد الاقدام . وافضى
الخرق بالعدو الى الخرق . واخلفت بجدة جدنا جدة اولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية
أغار على غره بشره ويشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد
مشرفة عليه من خطرته . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه
شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض
من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ اقت
الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من
الرجال والصبيان والنساء للتغريب، وفيها امرأة محدشمة . غنية
محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقازها فما
استنقزت . وسرنا ما ساء العدو . وأتانا الله من احسانه
المرجو . وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل
يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل الذفع وعم . وكان سبب ذلك
أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج
الى المرج . هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في داماء
الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضع الحق وتحقق .
فاحضر السلطان الامراء الاكارم . ورجال الحقائق الضراغم . الذين
هم له أعوان صدق لساعات أيامه . ونخائرنصر عندا عتزامه
فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفائن
ضمائرهم . واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم
الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون
دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم
احداق العساكر وانما لايقدرين على القصد دفعة واحدة . الا اذا
كانت أيديهم . متساعة وأراؤهم متعاقبة فان انفردوا عن الراجل
وساقوا كسرناهم واسرناهم . وان توقفوا للراجل قصيناهم حيث
نزلوا ولقيناهم وصديناهم . واجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه .
فخيمنا هناك على أحسن تعبیه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و
رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و
حللنا التلاع والأكام . وركزنا بتلك الأعلام أعلام . ونزلنا لمقام
الشتاء مستعین . ولأسباب التوقي من الأمطار مستجین .
وأضحينا على تلك الاطواد موطين . وعند تلك الاوتاد موتین .
وتسمنت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة ، وتمكنت تلك البنى وبنيت
تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . واحبت الرجال
التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق .
وانارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهازم
لمراعفها . ونوب اليك بحالها تدور وترويه وتعيد رسم الحفظ
والحمایة وتعود والحرب تتناوب . والزحف يتعاقب ، والاقران
تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاقد والاعضاد تتعاون .
والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمم . والرقاق بصليلها لشوق
الجمام تجمم . والمقربات للأجراء صوافن والضوامر للشد
ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في
قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل .
ولاكارم الا للكلام . ولاسلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرح
والجم . وتقدم وأقدم . وأهم وصمم . وأضر وأضر . ولاتله حتى
تلهب . ولاتعج حتى تعجب . وأقطع وصل . وأكثل بصاع المصاع
وكل . ولاتقلق والى قلق . ولكل داع إجابة . ولكل سماع
إصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل سهم في المرام سوق .
ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماة قدعه ، ولكل عقدة
بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل غضب عض ، ولكل
ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصيب في
التشجيع ، ومن له جرأة الهيجاء حاج الى الصريخ بالجد
السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد
بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير
صباح الصفايح في بياجير القتام متبلجة ، والله نعممة في كل
بلية ، وسر في كل قضية .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وما جرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف ينالتكين بن علي كوجك ، ومن سعاية جده ما طلب غاية في الكرم الا ادرك ، وما كان اسره يوم الحضرور واحضره يوم وفاته للسورور ، فلقد كان جارا للكتائب ، بارا بالأباعد والأقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبيل المناقب ، قارا على قلق الذوائب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طرير الشبا ، وحبه لعقد السوود معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه ، وهو جاهل بمزاجه. ذاهل عن علاجه. فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ما أزمى ازهاره ، وما أنضر نضارة ، ونزله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الأتراب الى القرب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وأنن الزمان بعد الأجاء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الفم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصصناه مغزين على ظن أنه جالس العزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الأسباب والأمر فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الأحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الأحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه وذهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له ما استحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة الهناء ، فاستأنه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه . ولج جماعه وتعذر أصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانته منزلته عند السلطان جهده ، وطال على المالك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا .
فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغادي ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغل ، وأعلهم ماعراهم وعرتهم العلل ، وبأؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصابة بعد عصابة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى قراره ، ومقتضى قراره ، يخبر انه طواه ، الطوى ، فنواه الذوى حين التوى ، من حذر التوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبفض اليه حب السلامة الولد والأهل ، وكانت الفرارة من الفلة قد بلغت أكثر من مائة بينار والسعر من الزيانة لبيهم في استعار ، فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال ، فقبلناهم وانفقنا فيهم وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقوا ، وأثروا بعد ما أقوا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتقدم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، واشرقهم جرعهم ، وعرقهم قرعهم ، واخافهم خاف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ، ونلي ونلق ونفل ونلق ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزع ونعجز ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق ونخرج ونحرج ونلج ونلجج ونضري ونضرب ونفلي ونقلب ، ونجـنـن ونجني ، وننيف ونفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونقصدي ونقصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهب ونقهق ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر . فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج على جند الجد ، وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال ، واخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجاسها ، وكان اليزك في تل العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل العدو تلك الليلة على ابار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ما تركت الا تراك ، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الأمن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحرته مائجا ، وسما جمره مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحى

تلبيه ، وقد امتزجت زجرات الجاوش ، بنعرات
الجوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهر بقرب
البحر وصفوفها مشتدة مستدة ، والسلطان في القلب كالقمر في
الهالة ، عليه اكليل من انوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند
الخروبة ، على المهاب الحالية والحالة المحبوبة ، ومقدموا
ميمنته ، عظماء دولته ، صاحب دمشق ولده المبجل ، الملك
الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصاحب بصرى ولده الملك
الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي
حسام الدين بن لاجين : قايماز النجمي صارم الدين ، والأمير
بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لا يرجو منازلته الا من فيه بان
الباس ، ثم بدر الدين دلدردم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طالما
بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على
أنه يطيب نشرها ، وعظماء الميسرة ومقدموها ، وأمراءؤها
ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام
وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب
الجزيرة ، والملك المظفر تقي الدين ذو السطوة المبيدة
المبيدة ، وسيف الدين علي المشطوب ، الذي نشب بناره
الحروب ، ونصب على العدا منه الكروب ، والهكارية
والمهرانية ، والحميرية والزرزارية ، وأمراء القبائل من
الأكراد ، أقتال القتال وأجادل الجلال ، ورجال الحلقة المنصورة
واقفون في القلب ، لابس الحلق السرد خائفي بحر الحرب ، من كل
فارس فراس ، وهرماس رماس ، وضيقم ضاغم ، وضرغام
غارم ، وليث فضفاض ، ملاوث بفضفاض ، وقصور قاسر ، وهزبر
زابر زائر ، واسد في غاب الاسل ، وقارح في القراع باب
الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الأقران ، وقار
على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقاريء (ان الله اشترى من
المؤمنين انفسهم وأموالهم) (التوبة ١١١) ثقة بوعده
الأقران ، وقارن حج النجح بعمره عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر
الجنان ، وسابق الى حلب الشهبانة ، وسامق على ذروة
السعانة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العدا

عن الهدى بعاسل ، وسار الفـرنج شرقي النهر لنا
مواجهين ، والكريهة غير كارهين ، حتى وصلوا الى رأس
النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فانقلبوا الى غربية ونزلوا على
القل بينه وبين البحر ، والجاليشية الرماة منا حـولهم
جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سائلة ، وجرح في ذلك اليوم
وهو الثلاثاء خلق من اهل الدثليث، ومانبا عن كثير منهم ناب النائب
الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، والله منه الجاهد
المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء
ناكبين ، ووقفوا على سهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل
مطيف محقق بهم كالأسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا
أن يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة
بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون ، ساكنون
ساكتون ، ونحن نقتول لعلهم يحملون ، ويغضبون
فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم .
وتفريق الغمة بنزع جمتهم . واحدس العدو بالضعف . وانه متورط
في الحثف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض .
ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقن
ان صح منه الثبات بانكساره . وعسكرنا يصافحهم بالصفاح .
ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام . ويلهبهم بخدمات
الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشويهم . ويفيض على
غدران السوابع منهم جداول القواضب . ويخيض في دأماه الدماء
منهم سوابع السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم ماء الفرند .
ويغيط بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند .
وادبروا مولين . وارخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين .
وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهم ويقلعهم . وهم مجتمعون في
مسيرهم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون في سكون .
ويتظاهرون في كمون . ويتطالعون في غروب . ويتفلاون بغروب .
ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمود . وكالما صرع منهم قتيل
حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم . ولا

يصبح لدينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقاما هماما . واسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروح اذا أبدى له ناجنيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصيح في سلاحه شاكيا . وبنار عزمه زاكيا . ويقف بين الصفين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما راموه بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا اليوم جهده وقل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوح أبلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم . فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقسه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعبون ملائكة السماء وتفرده بمفخره . وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكندهرى ، وأقام ملك الالمان على عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد . وقد تخلف لحفظ حصره الوق من

اهل الجلد . ثم تصبـحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم . والأسد
سائرة بالأسل في عرينهم . والحمية مشتعلة في عيونهم
وعرانيـنهم . ونزلوا رأس العين . وتطرق بها اليهم من عساكرنا
المنصورة طارق الحين . ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيـران
النصال والمناصل لهم محرقة . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف .
والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المذون من الأهداف . وما دارت بهم
الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصوب وتطيل وتطول .
وكانت الاطلاق واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما
ابصر الفرنج ما حل بهم من العذاب . عدوا الغنـيمة في الاياب .
وشرعوا في طريق الذهاب . فعادوا من غربي النهر
راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم
يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهم خلق وسرى في حجب
حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين
هائبين . ورحلوا سحرا خاسئين خائبين . وخيولهم الناجية
مجرحة . وقلوبهم الراجفة مقرحة . واشلاؤهم من كسوة الحياة
عارية وبالعراء مطرحة . وعرفوا ان حركتهم للهلكة . وان هلكتهم في
الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم منفرد
وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل . وهم يدعون
بالثبور والويل . ومع كثرتهم قلوا عناء . وضلوا رجاء وذلوا
بلاء . واعتلوا جدبا وغلاء . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين
من مراميهم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصحابنا
وراءهم يطلبون اردادهم . متعطشين الى دمائهم . يرمون
ارواءهم ، وثبوا على جياهم ، وثاروا لمراد مرادهم ، ولاقوا
اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبـعهم ، فاندفع الاصحاب
حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحنوا واجهزوا . وقتل في ذلك
المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيـره متسعير . وطلبوا
بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها .
وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال . ولولا ما نفق من التياث
مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حزب الشيطان ! وله في كل
قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بلالاء الآئه . ومن
آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجره الرابعة . انه رأى ان
يرتب على العدو كميناً . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمع يوم
الجمعة الثاني والعشرين من شوال منتخبى رجاله . ومنتجبي
ابطاله وخواص أتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت
سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلال جلادته . وفي لقاء العدا
عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بأن يكمنوا على ساحل
البحر بقرب المنزلة العادية القديمة . فمضوا وكمنوا ليلة السبت
متنبهي الهمة . متيقظي العزيمة . وخرجت منهم عدة يسيرة بعد
الصباح . منابية بحي على الفلاح . وبدوا من خندق القوم . ونادوا
لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاماً . واسرعوهم ضراماً . فطمع
الفرننج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا
قد سرح . فقطعت خنادقها . وبنت علائقها . وحدثت سوابقها .
واخاضت بحر الحرب سوابجها . وقد افاضت سوابغها وشامت
صفائحها . وتجردت عن رجالتها . وتفردت بضاللتها . وحملت
بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطاردا صاحبنا امامها .
وانهزموا قدامها . حتى وقفوها على الكمين . واقعدوها في الهالك
المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها
فرار . ولم يطق من غرته ان يمضي غرارا . وكانت في مسائتي
قنطاري ، من كل مقدم باروني وبطل داوى واسبتاري . فقتل
معظمهم . ووقع في الاسر خازن الملك وعدة من الافرنجيسية
ومقدمهم ، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقطع بهم سبيهم .
وما وصلهم اربهم . وجاء الخبر اليها . فركب السلطان وركبنا وسار
ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هنالك الاحسان . وجاءه
مماليكه يقودون اولئك الاعزة بخزائم الذل . ويجودون بما
استخلصوه من ذلك القل ، ويقدمون المقدمين من سراة الاساري .
وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)

(الحج ٢) فقد رضت لهم الذبوت وقضت لهم الليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الأسلاب والخيول لأخنيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدهون . وسيوف ذكور تتولد منها المذون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم . عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحيير الحبور لا يسا . وقد جمع أولئك الأسراء . وما أسعد الله إلا في تلك الساعة أولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما آنسوا فأكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأنن لهم في ان يسيروا غامانهم لاحضار ما يريدون احضاره . ولا علام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت ذوبة اليزك لأخينا المالك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فانفذنا اليه من مماليكينا سبرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الأنفوس بصنعها وقرت . ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عابدين والمنايا الى نايهم منابدين . فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم . وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقومون فيهم رجاءهم . حتى ابعدهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد . وفلقوا البيض بالبيض . وفلحوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء . وعروهم بالعراء ولتوهم بالتوت . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة من مقدميهم . ومعروفيهم ومحدثيهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعة اننت بل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمد لله الذي تزكوا نعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في الذوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بدشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم . لكننا ما قدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجاسنا على تلة قريبة من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصة الصحة . ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمد لله على المهلة في السنتين . فأقمنا مع السقام ، وسقمنا في المقام ، وصبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومامنا الا من التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديدة ييمته الالاث . والحمد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود
من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة
والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق . بشمول الشتاء العنيف .
وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المضيف . واشتعلت

رؤوس الجبال شيبا للثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج .
والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد
السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل النيل وجرى .
وطمر المطر هـ وادي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط
للجهاد . وجمد الخمر . وخمد الجمر . وارتعدت الفرائص .
وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء
يعدو ويعدى . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على
حب الاصطلاء الحبا . واشتغل الملوك بملازمة المشاتي . ومنادمة
المواتى . ومناقلة المناقل . ومعاقة العقائل . ومعاقرة العقار .
ومسامرة السمار ، ومدانة الدنان . واجتناء الجنان . ومناغة
الفواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف .
وملامسة الطائف والطف . فلت نار عزم السلطان حد الشتاء
العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي .
وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل
باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكثرث بكارثه . ولم يحدث امرا
لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره .
وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما
لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما
ظهر بدم انجاس اعدائه ارضه . واستمر على بذل جهده في الجهاد .
ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهد . وقال انما أربأ بهذا الأرب .
وأرى راحتى في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله
عنف الثلج . وما يبرد قلبي مع ثقل الحر والبرد الا برد النصر
والفلاح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود
الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها .
والفرنج قد امننت غائلتها . وتكفى في مداومة قتالها في نوبها
مقاتلتها . فانن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في
الربيع . والرجوع الى مراد الروع المريع . وليأخذوا اسباب
الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال المحققين في
نصرة الحق للرجاء من اهل الفنى والغناء والمضارب
والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه
ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين
غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة .
وشييعهم السلطان بكل مكرمة شائعة شائعه . وخلعه رائقه
رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير
واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ما كان اسعدنا بقرب الملك السعيد، وما أجد جدنا بانارة نوره .
واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم
شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه ووروده .
ولقد تمت بأيامنا وبراكات مقامه في العدو نكيات . وظهرت
لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات . ووقعت بالمشركين روعات .
وراعت وقعات . وقد أربنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور
على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه
واغزر مزنه ، لكننا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى
آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق
بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الأصول .
وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاه . وسر
بفضائله اوليائه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والنفوس لغيبته
متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلمة
الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس
بعودته متسهنه . والالسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في
محاسنه الزاهرة مدفوه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد
به من مبهجات الاله متنزهة ولا شك ان يصف بلهجته القصيحة . ما
اقتناه من المتاجر الربيعه . وقدمه من المساعي
النجيحة ، واستنجه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد أمسى مقتل الكفر بكل
سهم مصيب . وهو المستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب .
وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . وظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج
سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخلوا ساحل عكا من
اربابها واربابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب
الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البديل الى البلد . من الثابتين في
الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل
ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى
البلد من البديل . فان المقيمين في عكا شكوا امراضا
معترضه . واعراضا ممرضه ، وكثرة السواد مع قلة الذفقة والزاد .
وكان في البلد زهاء عشرين الف رجل من امير ومقدم وجندي .
واسطولى وبحري ومتعيش وتاجر وبطل . وغلمان ونواب
وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على
الموضع . موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في
الخروج رفقا بهم ورأفة . وما افكر ان في ذلك مخافة وآفة ، فقد كان فيه
امراء امروا الامر والفتوا الصبر ومانعوا الحصر . واجتروا
وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا
وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكان
المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على
الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم
وينفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين
ابي الهيجاء السمين . فانه انفق ما اخبره من الألوف
والثنين ، مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق وهناك
ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا
ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

الامكان . ويطردونهم بقبيح الزجرة . ويكسرونهم في صحيح
الأجرة . والسلطان يجود جود السحاب . ويأمر بالعطاء
الحساب . ويجد حث الذواب . ويجد في بعث الأصحاب . ويقول
انفقوا ولا تخشوا اقبالا . وانفضوا الرجاسات خفافا
وثقالا . ولا تـؤخروا شغل اليوم الى غد . امهـالا او
اهمالا . ولا تقدموا على هذا الفرض فرضا ولا نفلا . ولا تعتقدوا ان
لنا أهم من هذا الشغل شغلا . ونواب الديوان على عادة جهالتهم .
وعالية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . وما دخل الثغر
الا قليل من كثير . وما صح من البذل الا بعضه . وما قضى حق
الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقوى اسباب الضعف .
وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سنة سبع .
فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لا بذفع . وأقام الملك العادل على
البحر لازاحة علال الداخلين . وراحة قلوب الواصلين . حتى عاد
الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم . واقتنع
البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصلت من مصر بالغلة
بطس سبع . وكان لها الحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين
شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جماعتها
ومساعدتها . ونقل ما فيها من بضائع وحوائج . وسالغ وروائح .
ومأكول ومطعموم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذاك كله عهدهم .
وانتهى الى الغاية جهدهم . فلما تسامعوا بالبطس تشارعوا الى
الملتصم فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر . الى جانب البحر .
فزحفوا زحفا شديدا وحملوا جنودا وحبيدا . وأتوا بسلالم
لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهم حولها كالمعصم في
الأسوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضيق متصادمين .
فاندق بهم السلم المنصبوب . وسطا بعصابتهم المعصبوب بها لنصب
سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا
كؤوس المنايا وتساقوا . ورأوا غمرات الموت فزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه .
وألّفوا الأجل كامنا فآثاروه . وتواثبوا عليهم تواب السباع على
الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياح نار القراع . واطالوا بشبا
العوالي للعوا في باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون
الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم
المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على أعقابهم
ناكسين . ومن حسابهم ناقسين . ولا شتغال الناس بكشف ما عرا
من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهاثم بثقل الغلة . عن نقل الغلة .
وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضرب
بها الحشف . وأذهب بكسرهما كل ما فيها وأتلف . وغرق من كان
فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها
زهء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر
منتبه . ونهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع
ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته .
وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا
اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم
وصدوا عنها بنحورهم . وبنوهم بأبدانهم الى أن بنوا ذلك
البدن . وعمرروا ما خرب وقووا ما وهن . وقتلوا وجرحوا من العدو
خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب
عن طريق صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطليح للعقير قريع .
وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجهد بهاء الدين
قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر
الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل
عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان
بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك
الأسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد
بهلاكه ألم الألمانية . وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر
الى سقر . كند كبير يقال له كندتيباط دافع القدر فما قدر . وهلك
منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم
واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس .
ليغزوا في البحر ويكوزوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا
وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا .
وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج
ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت
تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم
الجلال . من كل أنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصنوعة نضارية . وآلة
فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح .
وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه
الأكساب . ولم يحرمهم حيث حرما لكفرهم الثواب . وظهروا بهذه
النهضة انهم مناصدون . وليمين الايمان مصافدون . فلما اكرموا
بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمية ، وأسلم منهم شطرهم .
وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا
وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهدية مائدة فضية عظيمة وعليها
مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر
وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا .
فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتم بها
اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده
جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ما أظن في الوجود ملاكا يسمح
بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم
لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه .
وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج برغوسان فيهما
نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي
الخامس والعشرين منه أخذ ايضا برغوس فيه من الفرنج مقدمون
ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر
حباله ومعهم ملوطة . مكالة باللاؤ مؤطرة . وبأزرار الجوهر
مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الألمان . واسر فيه رجل كبير
قيل انه ابن اخته وهو كبير الشأن . وفي هذا الشهر كان قدوم
القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرفت
المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مكارمه المكاره . ونزع بلبسة
إفضاله لباس الخمول ذوو الفضل النابه . واعاد روح السلطان
بإعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه .
وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العلاقة . وروى رأيه برى
رأيه . وتلقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثاري بمقدمه .
وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا أملي . وقوي عملي
ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبه قدري ونوه بذكري
وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي . وسن غربي واسنى غاربي .
واقربي وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان استكتبني
فعثت ونعثت وفرشت بساط الفنى فرشت . ولولا انني قويت به
لأقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولا توليت . فانا شاكر
نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سبع . ومافي لقائه
للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومن ذوي
الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مساورا . ولكل هول
مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فاذا هو
الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الأكراد . كانوا من الأساد .
ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية
المعجبة المحسنة . ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط .
واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا
عوانيهام بعوانيههم . وظفرت اساطيلنا وطالت . ووصلت اليها
وصالت . ونالت من الظفر مانالت . وأحرقت الكفر شواني
برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العود تأخر لنا شيني
مقدمه أمير مبارز كالأسد الخادر لا يصحر الا للفريسة ولا يبرز .
وهو يعرف بجمال الدين محمد بن ارككز ، فشين الشيني وشأنه .
وما أعانته أعوانه . وامتلات بالأعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

أركانہ . واضطربت باهل النار نيرانه فتـواقـع مـن فيه الى
الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده
يجالد . ويجد ويجاهد . وقد أثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به
العزم الشديد السيد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد .
والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولا استطاع الانقياد بالطوع .
ولا مكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشانيء بشنآنه . ولولا ان
ملاحيه جبنوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر
النجاۃ . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه
مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا
الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولا تعسر ويسر . فالعاقل
يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك
أن لم تعطنا اليد وثبت على هذه القدم . فقال ما أضع يدي الا في يد
مقدمكم الكبير . ولا يخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كندا
أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاه . فلما بنا ليأخذ يده لزمه
وعانقه . وقوي عليه وما فارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في
الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد
السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد
ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد
مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل
وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر . وسعداء
المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد
يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضى بن قريش الكاتب . وكان
صدرا تامل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم .
مهيبا يخشى مرهوبا لا يخشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من
الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع .
ولرأيه ري وريا . وتديره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية بينا
وبنيا . ولم يكن له في الكفاية كفاء . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه
رفء . وكان رجل دمشقي بنا بلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب
في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى بيناره فأنفضلا على
التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

المشتري ووثب ووثب المجتري وطعنه بمسيته . وهو آمن من في
خيمته . وفتك به فتك العين ابي اولوة بالفاروق . وخرج من الخيمة
كالسهم في المروق فلقى قاضي نابلس فقتله . ومضى بسلك سبيله .
فادركه الناس وقتلوه . وكاد يقلت لولم يعاجلوه . ففجع المنصب
بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد
البرد لم يقرب محل حله . والغيث عيث ولزور الربيع ريث . والسحب
سح . والضج شج . ولعين الشمس غض . ولوجه الغيم ومض
ولأيدي العارض بسط وقبض . ولناظر البرق تنبه وغمض .
ولنواجذ البرد كشر وعض . ولفص الفصل ختم وفص . وكل صاد في
بحر كاذون كذون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأوحال
أحوال . وللأهواء أهوال . وللشمال شمول . وما للقبول قبول .
وللجذب نذوب . وللدبور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا
صبابات وصبابات . وللندي الندي جنات وسرايات . والجو
الجوي آيات ونكايات . ولغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي
الرباب عمائم . وللذكباء نكبات . ولشبا شباط شببات . وللرواعد
رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهـدو
ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفة وعقو . وللرعايا العرايا من
الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابتة في زوايا الثلوج
النازلة خفايا . والعواصف القواصف عواص غير قواص .
والعارض عارض للحب في العراض عراض . والقوارس قوارص .
والخوالص خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه .
والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم .
والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا .
ولتجهيز البذل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد .
وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرص ويرسل الى
السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض النواب في ذلك . وإليهم
يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . وينفق فيهم الأموال . والأمر
مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

- ٦٠٩٦ -

سنية . ولوافح عزماتهم ذاكية ونوافح مكرماتهم ذكية . والمماليك
الذواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يغادرون به
ولا يبارحونه . والعدو على عكا حاشد . وضالة ضلاله ناشد .
ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون
الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على
الأجناد والأبراج على الأمراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة
في المشقة التي تعدها الأشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة
اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة
صدقوها . اولقوا غمه كشفوها . او صرفوا أوجههم الى نائبة
صرفوها .

ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث

في يوم الأربعاء تاسع المحرم ، سار الملك الظاهر لقصد بلد
صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي
من اصحاب الأطراف السفر . فان السلطان رخص لهم في ذلك .
فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . وأقام السلطان في
اصحابه . وخواصه وملازمي بابه . وملازمي جنابه . ورجال
رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك
المظفر تقي الدين ليتسلم ما في شرقي الفرات . من البلاد التي كانت
مع مظفر الدين . مضافة الى ميافارقين . فصارت معه جبلة
واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وساميساط والموزر
وميافارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد
وماردين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة
الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء
منها للطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من
يشترط الفسحة له في استضافة بيار بكر الى بلاده . ويقال له
لا سبيل الى قصد أحد ولا انتزاع بلد ولا ازالة يد . فان أرباب البلاد
اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاهد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متقاعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزما في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميا فارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرهما . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتبه . وبلغت المنتهى . وأنا ادخل على الشرط وعنه لأخرج وأجمع العساكر والى نصركم —ورد في الروع ومصدر ، وما زال يستسعف السلطان عمه . ويستترهف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى اخذ دستوره . واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع اياه ، ويحكم في العود اسبابه . وانما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لا تدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار واه استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبه المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جيشير العدو بطراباس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمئة رأس تلف منها في الطريق اربعون . غير ما كان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غزم ايضا ابقارا وأب قارا . وسار بالغنيمه سارا . وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . ففرق في بحر الأسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا . وماهيتا بل اهديتا . وشاهدت الأسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على النين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا من البلد على العدو بالنائب الاعضل والناب الاعضل . وكبسوه في مخيمه . وخيموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتى اسروا من الفرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوههم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين . كاسرين كاسيين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي . وفي الأحد ثالث هذا الشهر . شهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليك وكانت الذوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعه . وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش . وهذا الخفي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفر للاسلام بحمل النحول . وانتهى اليها ان الفرنج على عزم الخروج . ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف . فأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد الساحل . ويكمن بعسكره وراء التل الذي كانت فيه قديما منزلته . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصابة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول . مستظهرا بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمذوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولا جسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصل اليه من بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحنثية . وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام . وعامت في بحر لياليه وایامه الأعوام . وهو ممسوخ الحليه . ممسوح الحية . قد بلى مما بلى . وقلبي من طول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لداته ولذاته وما عدم . وكم
جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتى لم
يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا زهابه . فتعجب السلطان من
مجيئه من البلاد الشاسعه . واختياره الضيق على الأرجاء
الواسعه . فسأله كم بينه وبين وطنه . ولأي سبب حركته من
سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانما خرجت بقصد
كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بالاطلاق .
واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفرنج راكبا على
فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله
خدام اولاده الصغار . ان يأنن لهم في تجريب سيوفهم بجرح
الاسارى الكفار . فلم يأنن لهم في ذلك واباه . فأرضى كل منهم
بامثال الأمر الذي أباه . ففيل له: لأي سبب منعته من ثواب الجهاد
المغتزم . فقال بلئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فانظر ما
تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر .
وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة
ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . والسلطان بقربه ومجاورته
الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره
وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره
وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقدم في ذلك التاريخ
بقدومه المالك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وقد
استصحب معه مماليكه الترك . وقد نوى بالمشركين الفتك .
واسترهم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواطبه .
وصوافنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما
يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه
واظماً جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فعن

ذلك اليوم من القادمين والمدستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيل تردأ ماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافاته الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التقلاف بالعبير التضخم بالنجيع . ومن ييمته وبل الذبل من الاحداق والنواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعتة اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فـوارس لاعرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ويشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف مذكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تذهب .
ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . واقلت من يده وطار .
وحشا حشا الباز الذي نار النار . ووقع على سور عكا . وحزن
الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى
وما أب . وثبت وما ثاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى
السلطان انفذوه . فأبدى للسور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من
بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده للظفر والمنحة فألا . وبذل فيه
الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا
عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها .
ويجرون بجواربها . وينهضون بسواربها ورواسبها . وينهشون
بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم
عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم .
فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا
افلاتهم . واسروهم باسروهم وسبواهم . وبغتوهم من البلاء بما
اتوهم به ويلوهم . وكذبوا كل ما كان في الكنيسة . من الاغلاق
الذفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم .
ولاذوا باللائقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة
عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا .
واقدموها خرصا . وزادوا بمائنا لوه خرصا . واستغنوا مما
استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروا وفرحوا بما راحوا به من
مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي
سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل الذبل بيمه ، وركبوا بأسرهم بخيلهم ورجلهم في أثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدى رجالها فلما وصل أرهف حد عزمه . وأقضى فيض غيظه الى غيظ حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من ألم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق . واعتناق الفلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شدة . فنذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المخرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلام الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقريب . وحمل له بهدايا . وتحفا سنانيا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . وما بطشت يد عادمة الا يد كيد الكيد . واستولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امواله الجزيرة . وسيأتي ذكر وروده ، وماتم به لاحتزاب الشيطان وجنوده وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة . وبالنجاح متجددة . وهوان اصحابنا اخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مراكب الانكثير خمسة وطراة . ولم تكن لولا ابناء رجالها الضيم معتاده . وبحزام القهر مقاتلة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخير من عدة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطراة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فاما السبايا فقد اخرجن على البيع بالذقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بالجد والجلد . والعدد والعدد والمدى والمد والجمع المحتشد والجمر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضب . والسممر السلب . والجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج . والقصد بالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والاولباش والاولشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضباع . والضواري الجياع . والاساود والاسود . والزررق والحممر والسود . ودبوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبوا . وغبوا وعبوا . وجابوا وجبوا . وزحموا ورجموا . واقدموا وتقدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كأنها تلاع . وهي في الجو مترامية . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاخ الجدار . منقضة اسواؤها لانقضاخ الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قائمة قاعده . بارقة راعده . صادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال اجنتها . وحنايا للحنين
على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجار .
ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق . صوائل
بالفلق على الخلق . مطايا للمنايا . روايا لخباياها البلايا . في
كفاتها افاتها . وفي حركاتها ادراكاتها . وللتعذيب عذباتها .
وللترهيب جذباتها . وما اعظم جنائيات جنادلها . واظلم غوايات
غوائلها . وهي الروائم الروامي . والدوائم الحوامي . والهوام
بالهوامي . والصوامم الصوامي . ودواعي العوامي . ونواعي
الذوامي . والنواعب بالذوي . والجوائب بالجوي . والصوائب
بالمصائب . والنوائب بالشوائب . اذا جذبت جذت . واذا قذفت
اقتت . واذا طوحت طرحت . واذا حلقت حلقت . واذا اطارت
ابارت . واذا اقلت اقلت . فشق على اصحابنا بالبلد شقاقها .
وكادت تفتح اليه الطريق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا
وانهضوا . وحضوا على حفظنا وحظهم وحرضوا . واستنصروا .
واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبا في
العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسير من
كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العساكر عنه ومر
الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب .
ونكايتها في الضر والضرب . وعرف اماكن القتال . ومكامن
الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظل . ذل جمعهم
وكل . وترك الزحف وانفل . واذا عادوا وعدوا . وانااروا في الحرب
واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استدلبوا طفلا من يد أمه . وفطموه رضيعا له
ثلاثة اشهر في غير أوان فطمه . واستحلوا بحكم الجهاد في جنح
الظلام ظلمه . وفجعوها بواحدتها وساعدها . وكدروا صفو

مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدتها .
وحرموه در ابنها قدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر
عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . وللخد
خادشه . وللوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد
شهدت ودهشت . وتاهت واستودشت . قد سلب عقلها . مذ سلب
طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين
ترجيعها . وتردد الاقارب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها .
وهي نائحة في كل ناحية نادية في كل ناد . نابية لكل فؤاد . عابية في
كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب
هادفه . ولدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مستودشة
لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد
رضيعها . معولة على الطفل معولة على اللطف . متذكرة من الذكر
متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . وناراكتئابها
ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها .
تبكي ببكاؤها . وتشكي من دائها . وتشد ضالتها . وتطلب
مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها .
فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينة . متجئنة
متحننة . مولعة مولهة . موجهة متوهه . سمع شكواها وفهمها .
ورثى لبلاواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وسلك بفضله
طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقليل له انه بيع واضيع . فان
أخنيه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق
نخس . فما زال يبعث ويبعث عنه . ويلاوم باذله كيف لم يصنه .
حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما
بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها
به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها .
وأسا ما اساء الا سي من جروحها وقروحها . وروحها بروحها .
وفرع دوحها . واغناها بغنائها للشكر عن نوحها . وظهر سر
سرورها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد
اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ما اشتراه من
مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياميه .

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في
ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعموم .
وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان
بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب النوم بكل حد مرهوب
وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دائية . انتقل السلطان
الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم
الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة .
بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلفه ان
القوم قد عادوا العوادي . ورقعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا
البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فامر الجاوش حتى
نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل
الى الخروبة وقوى اليك . والزم المتقدمين والامراء بحفظ ذوبهم
الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قتلها خرج
بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها
جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على
البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك
العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجثمه .
والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة .
ونزل في خيمة لطيفة لأجله مضروبة . وصل من اليك من اخبره ان
العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ما كان فيه وزحف . وانه
قد اربع وارعف . وأرهق وأرهف . والهى والهف . وأرهب
وأرهج . وأعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وأثار .
فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم
فأعادها . واستنهض الى الفريسة أسادها . وأجرى في حلبة
الحمية جياها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل . وضرب يرنج
اعطاف المناصل . وأمرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري
اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظاهرا العدو .
والعدو بالحصار والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعنايه مستمر .
والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهم
ويغاليهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا .
وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية . ورمي كما
حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الفي مقيميه . وللرمي
مديمه . وبالا حجار متقاطره . وعلى الاقطار حاجزة . والجلاميد
قارعه . والصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق .
فدنوا منه بذو الخندق . وشرعوا في هجمه . واسرعوا الى طمه .
وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب
النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم .
واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا فريقين . وافترقوا
قسمين ففريق يلقي من الخندق مالقي فيه . وفريق يقارع العدو
ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكثير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر
السرو وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكثير . واظهروا انه في
الجمع الكثير والجم الغفير . وكانت معه من الشـوانـي خمس
وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضاهي قلعة وتوازي قلعه .
وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفوس لوعة . ولعلت لنا من
خيامهم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفاس للشرارة متصاعدة .
والسنة للشعل نضاضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت
الجحيم لقدم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصول اولئك الشرار
شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت
على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم
الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كانوا من أهل النار

ببرهانهم . وأنتهم باتيانهم . وأضافتهم في مكانهم . وملاك الملك
بأمره أمرهم . وأراهم أن بيده دفعهم وضرهم . وملاً عين الملاعين .
وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد آبارا . وأثر في
المكر آثارا . وأرث لالشر نارا . وأثار لنصرة النصرانية ثارا .
وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به من تأثيره
وتأريثه (٥٩) . وارتادوا وارتاعوا . والتاحوا والتاعوا . وغدت
الأسنة ترجف والقلوب تجف . وكاد الباسل يجبن . والباطل
يخشى . والحق يلين . واللين يبين والسلطان قوي الجنان . روي
الايمان . صاف يقينه . واف بينه . شاف نصحه . كاف نجحه .
مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معاشه .
متأن في تفكره . متأت في تدبره . متوكل على ربه في نصرته بينه .
متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتروعه المخافات ولا تخيفه
الرائعات . ولا تززع الخطوب طود وقاره . ولا تفض النوائب خيم
نماره . ولا يلين للإشدائد . ولا يستكين للروائع الرواعد . وكم سكن
الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببركاته ونام الأنام ليقظانه ،
وأمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمه لما
درى . ولارد وجهه عما قصد . ولا صدف رأيه عما عليه اعتمد . بل
ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة .
وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذيل . ودلف في الارض
فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكثير ان جمع كفره للتبتير .
وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة من نحور
أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبا في
كتائبها . لتحتمي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها .
بخيل تأبى الضيم مثل إباطه . وفخر مثار الذقع ينوب عن لوائه .
ووجه كالمع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام
السلطان على هذه الحالة . ساميا في مطالع الجلالة . لم ينض
سلاحه . ولم يخفض جناحه . ولم يركز رماحه . ولم يردع للروع
مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزادها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلاها غلة ونخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمئة رجل مقاتلة لعكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكى . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكثير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوايبه . وقاتلتها نصف نهار . وهي لا تذعن لاقتسار . فأكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت . وقتل من الفرنج خلق عليها . وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن استقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشع بالدين أحب إلينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها . وأفترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل إلينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الواقعة أول حادثة للوهسن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الاسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد أظهرت لها في الشر غائلة . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلاس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقرّبوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصحابنا يطلبون
الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشد قراع .
وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قوارير
الذفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد .
وتدبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق . حتى بدرت قارورة انقضت
على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم في
الالتهاب . فعونناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم
وما غوى) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب . ومن حر
انفاسها برد الذفوس . وكشف شعاعها ظلم الكروب . ونزعت
بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور .
ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها .
فأحرقها الله أحراق أهلها بنزوبها . وكما أضاعت الافاق بنيرانها .
اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سواد
الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد .
فجلا حريق هذه الدبابة صداً قلوبنا المغتمة بالبطسة الفريقة .
وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احترقت
الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتا لذلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو وق
الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العدو بالذفائس
والذفوس . ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا
من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته .
فعلمنا بزحفه . وعملنا في حثفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا
لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم
لا من حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبرد . مضمر
للجرد . فضفاض السرد . قضقاض كالاسد الورد . مشتاق الى
الطرد . ملتاح من ماء الوريد الى الورد . من الترك والاكاديش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلقات الى الرقاب .
ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العرب . وكل
ثمل كأنه نزييف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة
المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا
وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره .
وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم
السوايح السوابق في بدور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى
بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق
الشاكي . وكل مصمم مصم درعه غير محقبة . وسهامه غير
مجعبة . وسيوفه غير مقروبه . وقبابه مداومة اجراء فيه غير
مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب
جذفه . وأبيضت بلمع القرائك مذهب قسطله . وأشتبهت في الذقع
الوان خيله . وامتدت الى قرار الاقاء أعناق سيله . فكانما غارت
الشمس من شمس شمس فتوارت بالحجاب . وعد الذقع في وبل
الذبل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم .
وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى
وصلوا الى القصور على اثافها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا
وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا
بقنطارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلمهم يحتمون ويحملون .
ويعلون من دمائهم وينهلون . وبخل الظهر وحمي الحر . فافترق
الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر
البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت
من أشدها واجدها كرية . غير انه في هذه النوبة عرضت نبوة .
وكادت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبي
سوابقهم . فانتشب الحرب . واستجر الطعن والضرب . وكثرت
الجراحات . وكثرت الاجتراعات . واستشهد ممن عرف من
المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل من المشركين
جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الواقعة . أن رجلا من مازندران من اهل
الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأنن وقت السلام على
السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الواقعة استشهد . فلقى الله
بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا
وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا من جانب البحر أطالبا .
وتحزبوا في ذلك الفضاء أحزابا . وركب السلطان من مجالس
عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبرة العدو
وإبادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت . وجحمت ناراقدامها وما
احجمت . وما زالت نجوم النصول تذفض . وختوم النصور تذفض .
وعيون العيون ترفض . وبيون النحول وحقوق الحقوق تقتضي وابكار
الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغائب ،
ونكباء لها من الذوايل ذوائب . وبحر تسبح فيه السوايح . وشرب
بكاس المنية منها المهج غوايق صوايح . وغبراء اسود نبالها تتواثب
عن عقارب القسي . وثعالب لهازم صعادها تتلاعب في أرقام
السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبان راياتها
تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابقها تفيض عليها جداول
القواضب . وغران سوابقها تفيض في غطامط الغياضب . وارواح
اغمارها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضارية على

الردى جريه . حتى دخل على ليل الذقع الليل . وجرى من بيمة الدم
السيل . والتفت لما التفت بالخيل الخيل . وأفرج المازق عن قتلى
جري عليها من السواني النيل . واستشهد من المسلمين بدوي
وكردي . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي .
وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولا مته
وقونسه (٥٢) . وتفرق الفريقان عن المعترك عند معسكر الدجى .
وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد أخرج من جانب
النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواضب يفرين .
وطوالع غروب في الطلى يفرين وبالردى يفرين . وانتشروا ممتدين
وامتدوا منتشرين . فلقبهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء
كالقضاء . ويوافق القضاة في المضاء . وكل معتقل للرئيسي اخف الى
الوغى من سنانه . وكل مشتمل للمشرقي خضيب الغرار ريانه . وكل
ملتم بعثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح
نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه
في سكونه مكذونة . وامتد راجلنا أمامهم . وأثبتوا اقدامهم . وطال
القتال وطارت الذبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣)
وأعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب
نوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت
به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان .
والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا أنهما لأخت ملك
الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها
زوجة صاحب صدقية فلما هلك . صادقت في الاجتياز بها أخاها هذا
الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدراما النجاة من تلك

الفاجرة نجاه الآخرة ، فاكرم السلطان وفادتهما . وأجزل
بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المركيس أنه هرب الى صور .
وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقوا عليه
من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبأ قبوله . وانقطع وصوله .
وكان سبب نفاره . وموجب استشعاره . ان هذفري كانت زوجته
ابنة المالك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل
ملكه الى ولده . وسواء في هذا الميراث . بين الذكور والاناث .
فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى . فاذا توفيت عن غير
عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجته
الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة . وبقيت هذه زوجة
هذفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهل الملك
لتكون الملكة لك زوجة . ولا بد لي من تقويم هذا الامر حتى لا أبقي فيه
عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا . وأحضر
لنكاحها قسوسا . وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حباله
الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس ان
الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلما جاء
ملك الانكتير تظلم اليه هذفري والملك العتيق فاندفع بذلك له إلى
مؤاخنة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قرر . وأخذ
معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار . وقد
سد بسواد عليه النهار . وأفاض ببياض حنيد الانوار . ومقدمه

مجاهد الدين يرزقش الشهم الشيد . والسهم السيد . والالهي
اللودعي . والكميش الكمي . والنقاب النقي . والعف التقي . وهو
ذو همة في الغزو عالية . وعزيمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم
السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية .
وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه . وسار
بمسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر مماليي النيب .
وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان
مكرما الى جنبه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه
بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني
جمادى الآخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالعدة
الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى
لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري دي الزند الوري
والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير
الاسدية . أسد العرين . الشم العرائين . الفر الميامين . وفي عصر
هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل
بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبتها . فركب
السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد .
وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بأساده في عريسه . مقبلا
بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل
والجياذ مراقبها . وخيل كانها الظلماء والقرادك كواكبها . ونقع
كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه .
وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه .
ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لانكاء نار الهياج
حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه
من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم
البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه
مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخوادم والاولياء .
وساق على تعبيته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب
البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه
نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

واحضر له اسباب تكرمته . وأذسة باندبساطه . ونظمه مع اصحابه
في سمط سباطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حباچه . وخصه
بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايليق به من كل باب . وانصرف
عنه ونزل علي ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة
رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها
الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بياسها جانية . وقد علمت
الوقائع انها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فما
نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها . وبرزت لعينه قناها
وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قسيها . ثم جاءت والقيت
بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

والفرننج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه . واسلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليها بأفاته . واعابت جـــــــــــــوانبه مهـــــــــــــــدومة .

ونواجهه مهتومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد من عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخلا بالهم عليه الخلد ، وقد حفظ الاقوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بها فيالقهم . ونحن لا نألو في الجهاد جهدا ولانترك جدا . ولا نجد من مضايقتهم بكل نوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق رأسه وحلق لحيته . واستلقى لانتظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وسكذوا وسكدوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب هيئبو ، وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمرة ، وانسداد ثغره .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف
اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائما في المقام الكريم .
وعظيما خاطيا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح .
وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريمة
زاهية بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاق .
وشارك في الجهاد وشد الأزر . وسدد الأمر وأزر وعضد . وظاهر
واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع
ملوكهم وكذودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم .
واستضرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا
منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى
بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمهرهم . واخذوا فيه نقوبا . وحكموا في
الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد
اشرف . والعدو بخندقه محتجز . ولفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن
جثوم الموت عليه في مجثمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر
بلطفه . ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه . والمجاهدون
فيه قد هانت عليهم المهج . ووضح لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل
يوم يسدون بأشلاء الهاجمين الذلم . ويجلون عنهم بما يشبون من
نيران الظلم الظلام . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد
ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي
من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الأصحاب
الى الأصحاب . ويكفي هذه الذوبة الصعبة فهو كافي الذوب
الصعاب .

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفّت بعدتها المناجده . ووافّت بعدتها المنى
جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيح . وماجت موج البحار في
غدير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . وألت
بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من
جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجه . واستظهر الاسلام
بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر
باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت
مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختام قتامها .
وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغيائه . وابعث امداد الظفر
لاهتزاز نصل نصره وانبعائه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكه
وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في
حصر الثغر ونصب الآله . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب
من الضرب . واخذ منه مواضع في الذقب . وقد اشفى على خطر
عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى
في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التواني .
ونهبوض المسلمين من الأقاخي والأداني . والوصول بكل ما يقدر
عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد
الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى
نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فلا عذارا وقات ، ولا
يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات .
وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا
المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالوا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عنده يعرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكثير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا خرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خالين من مقتضيات المرج . وكلاكما عن عسكريه مذهب رد . ولحديثه في الخلو مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لا يفهم بلساني وانا لا افهم بلسانيه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجماته . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعلة يرد برسول ويصدر رسولا . فلما لح في الطلب . وألح في الأرب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . وبخل وقد أخذ امانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشااع عندنا ان ملوكهم منعه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكثير رسوله بعد ايام . يذكر ما شااع من تأمر للفرنج عليه واحكام . وقال الأمور مفوضة الي . وانا أحكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفانني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه . وإن دامت بينهم الحرب والمهاداه . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حملة وقبوله . وأخذ من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهية بشرط المجازاة . واستدامة المكافأة للموازاه . فقال عندنا بزاة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعففت فهي طلائع روازح ، ونريد طيرا ووجاجا (٥٤) تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها للهية على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل مااليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة . واسالك غير

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هل لكم حديث . فقلنا انتم طالبونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعه اسير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واصل الى السلطان ماحمل من التحية . فشرفه بذلعيته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وما كانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثة . وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسائل تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالات الرمي بالمنجنقات وتسوية المنصوبات وتعبية الآلات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعفت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولا يقي ولا يقوى . كي يثوى . واهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة الذوب ولقلة العدد والحجر هاتك . والسهر ناهك . والعمل دائم . والخلال لازم . والقلوب قلقه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشاق متعبه . والاحوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنقات تنصب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصب . فلما اشتد الزحف . وزاد الضعف . احتاجوا الى رجال المنجنق للمقاتلة . والتناوب على المنازل . وهناك ظهر ان العدد لا يقي ولا يفي . وان القليل لا يكف ولا يكفي . وان خروج من كان في البلد لاجل دخول البدل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتداء في الاعطاء جلب في الانتهاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الآخرة يوم الثلاثاء . بما عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب من خيامهم ما تطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا . وامسى السلطان تلك الليلة ساهدا لم يذوق طعاما . ولم يستطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلقى الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخاوف . وكل من للضرب في جبينه شامة . ولطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :

في غداة صباحها في حداد

نسجتها ايدي المظهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس . وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهايته . ولم يبق الا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئا . ولم تنجحوا في الذب عنه سعيًا . فضدقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولا قوة الا بالله لانملك لانفسنا ضرا ولا نفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . وبخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغرة من تلك الثغرات الفرنجية . كأنه جنى مستشيط نجى . وهو يدافع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقه لجسمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه الذشاب

- ٦١٢٢ -

القذف . وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصمائها وتدمي . فلم تزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح . وقلة البديل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ما عاملناكم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مأمّنهم زمكّنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم ممالئكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مفتاضا ولم يابث لحظه ، وأغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه) (التوبة ١٢٣) . وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالفرض المطلوب . قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الأمير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل بآله . فسواه
مآبآله . وعمرؤا بركوسا . ورأؤا في هربهم رأيا مذكوسا وربحا في
دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربؤا عليهم
الأمر الشاسع . وجأؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقاءهم في
نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فذمى الى السلطان الخبر بهرب
الجماعة . وانهم خرجوا لله وله عن الطاعة . وانهم جذبوا عن بذل
الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاعة
بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الأمراء المعروفين .
وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل
بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرناش بن جاولي . وهو شاب أول
ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقى من الأسدية الأكابر .
ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع
السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة
بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل .
المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل
بفضل الأجل الفاضل فلم تعبد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم .
وعاديا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين . وبضعف القلب
وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي
نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على
نفسه العوبة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته .
ووقع بعد ذلك في الأسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة
ببنار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء
النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد
وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هددته

بكثرة الضرب . وكثرت ظلم السور في مواضع الذقب . وعظم
الخطب . واشتدت الحرب واشفى البلد واشرف . واشتفى العدو بما
فيه واسرف . ولما لج العدو في الزحف . واستسهل في التطرف الى
البلد طريق الحتف . ركبنا في عسكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه
بسوره وخندقه محتتم . والى مطمحه البعيد من أمره مرتتم . ولما
عابن اصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر . وانهم قد اشفوا على
الفرر . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه . وأعمى قلبه
فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثفرهم . وباءوا بوبال
غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم . وماأرهب قلوب
الباقيين من مقاتلته الا رهيبهم . والمقيمون من اصحابنا الكرام . قد
استحلوا مر الحمام . وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من
الأعداء اضعاف أعدادهم . وأنهم يبذلون في صون ثفرهم غاية
اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا
واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا ايديهم في القوم
وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب ، والله
تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب . ونحن وان كنا للقوم
مضايقين وبهم محذقين وعلى جموعهم من الجوانب
متفرقين ، فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون أنهم ان
خرجوا الينا في تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب
ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمتع ، والله قدر
لايرد ، وقضاء لا يصد ، وسر لا يشارك في علمه ، وأمر لا يغالب في
حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطائفة في
دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم
الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس . وحمي الوطيس
وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكميت بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألّق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نعيب ، ولغربان المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمه ، ولرحى الحرب الزبون جمععة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجات راعة وبارقة ، وشموس القرائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . ونشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقدود عقبانها العقبان . وصدفاح يصفحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في أجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى أحجامها . ونصب صارم الدين قايمان النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاله . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جوربيك ومعه من النورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز أنوفهم ، ولو صح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، وأصبح يوم العسكر الجمعة العاشر ، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه أسننته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولأذى مقامه بمقامه مميّط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الأفرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعةون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد ادس الفرنج به لترده في الرسائل نحوهم في سالف الأزمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من بعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك ما لا يدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط . فانفذ السلطان الملكين العادل والأفضل . ليفصلا المجمع . ويجملا اذا حزا (٥٥) المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر ، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدمه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسددوا الثغور بصدورهم . وباشروا الاسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقطع جانبا . حتى ينفذوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

ذكر ما طلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشتطروا اعادة جميع البلد . واطلاق اساراهم من الأقياد . فبذل لهم تسليم عكا بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسير . فلم يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصليبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببذور جموعها الزاخرة وسالت الى ثغر البلد سيل الآتي الى القرار . وطلعت في السور المهـدوم . طلوع الأوعال في فـرج الأوعار . وانحدر عليهم اصحابنا انحدار الصـخور المدهدة ، وفرسدهم فرس الأساد المحرجة المكروهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صد ، ومازالت الكرات تتناوب والحمالات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لا يبقون ، ولا يخلون فخرج سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار وألف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا مـركوزه ، وأعطاف أعلامهم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وما أحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار الأواء ، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وما عن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في بيار بكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصبونه ، وما كان يضبطه السلطان الى هذه الغاية لو لم يكن الله في عونته ، ونقل الذقل تلك الليلة الى منزله الأول بشـبـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة متلها على ماتم ، ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صابرا على حكم القضاء المبرم ، وحضرنا عنده وهو مفتـم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم ، فعزينا وسلينا ، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعاضها عداه ، وقلت له ان ذهبـت مـبـينة فما ذهب الدين ، ولا ضعف في نصر الله اليقين ، وما وعـكت بعـكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشـتها بعد الحادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعـد بقـعة من بقاعة بالهز لـفـاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسولاً ندبه بهاء الدين قراقوش يخبر ما قرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملة الفضيلة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسارى وصليب الصلابوت قبل خروج الشهر ، وان تأخر شيء من ذلك بقينا تحت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الأكابر وفاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون ، فتقبل السلطان بتحصيله وتعجيله بجملة وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفرنج على عكا هذه الرسالة وسيرت بها كتباً

قد عرف أمر عكا وأن العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليها بكلكلة . وحفل عندها بجذفة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحر نحوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجه . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحارا . وبرد الماء

بأهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارا . وتصل
مراكبهم كأنها الأعلام السود . والأمواج ناشرة بيض أعلامها
مائدة حبالها بأكامها . مازجة أصباحها باظلامها .

وتتنافس ملوكهم البلباغية . وططتــــــــــــوا غيتهم
الطاغية . في الورد بنفوسها ونفاؤسها . والوصول بما نفضت فيه
كنائن كنائسها . مستخرجة ضمائر خزائنها . مستفرغة ذخائر
مكامنها . موضوعة ظعائن ضفائفها . مستبضعة متاع متاعها .
مسرعة الى معادن معاطيها . وترد بقناطير أموالها . وجماهير
رجالها . ومساخير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من
برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقاتلون
أبراجها بالابراج . ويسومون جدتها بالانهاج . ويرومون علاج
كرامها بمرامة العلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افواه
خنادقها أحجارا . ويناجونها بألذسة المجانيق الطوال . ويطيرون
إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا . ويدبون
إليها للمضايقه خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعاقرونها
من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها
بكل منجنیق عظیم الخلق . كانه حامل على الطلاق . لا تلد إلا أمات
الدواهي . ولا تدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهي .
ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفنا . حتى
يعود نافرههم للامنون ألوفنا . وقد تجاوزت عدة القتلی منهم في هذه
المدة . سوى من هلك بالضائقه والشدة . خمسين ألفا قولاً لا يتسمح
فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هذه السنة .
والحالۃ فی تحقیق قمعهم وتفريق جمعهم جاریة علی الوتيرة
الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعت . وتحدثوا في
الحادث . وثاروا للثأر . وزاروا بالزار . وانبرى ملكا افرنسيس
وانكتير . وملوك آخرون دبّروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاءوا
في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحر
منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها النيول . وحملوا فيها
الخيلة والخيل . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطسة كأنها
تلة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجوم

الرجوم مزيّنة . فأحدثت بالثغر من البر والبحر . واحتاطت
بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسوار بالأسوار .
والظلماء بالانوار . ومنعت الداخل والخارج . وسدت على ناقل
الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهج . وزاحفوه بكل منجيق
كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم
عندها القيامة . وكل سلم لا ترجي معه العلامة . وكل آلة آلت إن
الفتح منها بالحتف . وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوي
الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق . وسور
وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه . وتستتر عن طوارق البلاء
بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولا يدخل إليه لضيق
مسالكه . وهو متحر متحرس . متستر متتـرس . عاص على
الهجم . عاص على العجم . لا يقتحم سده . ولا يذلم حده . ولم تزل
الحالة تتماهى والواقعة وليدها لا ينادى . والمدى يتطاول . والمدد
يتواصل . والقضية تتراعى . والرمية تتقاضى . ومقاتلة الثغر
صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون (٥٦) . فمن مستشهد
عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القرح . ومن دام بالجرح رام
عنه . ومن نازع في القوس نازع منه . ومن متعرض للموت خوف
عار عارض . ومن ناه عن السلم أمر بالحرب ناهض . ومن ندب
فيه ندوب . ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب . حتى ضج
الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هذا
وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظل المصابرة يقلص . والعدم
يتمكن من الوجود . والقيام للاثخان في زي القعود . وكاد البقاء
يودع الباقيين . والمذون تلاقى الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض
المقدمين المشهورين قد تاخر وتستر . واستشعر الذعر فتعذر
وتحذر . واستبدل الجبن من الشجاعة . واستملى العجز من
الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظن إنه لانجاح له في
العزيمة . ولا نجا له إلا في الهزيمة . وجذب أمثاله من الجبناء .
وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب
على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فأضعف
قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم .
ومابرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة
وملافة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على
الخنادق التي طمت . ورمي في خروقتها التراب ورمت . وطرقها
العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى الدور . وهجم على
السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر
بمساعيره حر الحرب . حتى تلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت
مرابيه . وكثرت ندوب نقوبة . وكثرت خطاب خطوبه . ودخل العدو
بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى الدور . وهجم على السني
بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره
حر الحرب . حتى تلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مرابيه .
وكثرت ندوب نقوبة . وكثرت خطاب خطوبه . ودخل العدو في النقب
فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد
باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة
بنفسه ولقي الوحشة بأذنه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله .
وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل الذقابون يوسعون
ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون
ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعانقت الاسياف
فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم
قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجساد الشرك ايمان
أنجاد الايمان وأصحابنا لايهولهم الهائل ولايميلهم إلى الحذار
الجدار المائل . ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردهم الرعب
الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون
بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو
نثروه . واذا نهضوا له اقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدره .
واذا بادر اليهم بدره وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور
أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثمها جثمانا . ومازالوا
يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون
ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع .
ويجيئون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بالأسنة المناصل .

- ٦١٣٢ -

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون
بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفايح . ويتماشون بمراح
الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح
من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن
الستائر الى الستور . ومن الطوارق الى الطرق والسطوح . ومن
المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من
المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائح .
ورذايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوق وضرائح . قد
فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي
القاسية . ورشفتهم الظبا الظامية . ولا ينفذ قويمهم من الكلول
ولا يفرى قريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد
أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت
من اسوارها . وأزحمت العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة
على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي
الواغل . أن القوم مستقلون والموت مستقبلون . وأنه لا طاقة له
بمقاومتهم . ولا قوام له بطاقتهم . وأنهم لا يسلمون وهم يسلمون
ولا يبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على
الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما
هانوا . وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما
استكانوا . ولا مرد لما فيه الله من المراد . ولا مدفع لحكمه في البلاد
والعباد . وأن زهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما
غاب المعين . وإن ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح
المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الليجور فلا بد أن يسفر عن
الصبح الدجى . ولا يشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم
السرى .

فصل من كتاب الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكة . وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه . فالاسلام يزد شذوذه . ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد الرد عنها مكاييد العداة في نحرها . قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مفضوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة . وإذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهماله . وأخينة إغفاله . وحاشي أن يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا . وما بقي للفرنج مع استيلائها على الموضع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل بينه بالنصر . والمردى بمكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هو زمان استنتاج المنى . فان العدو الخادر قد أن أن يصدر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من إربل
تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العدو الكافر . والطاغية الحاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من الكفر في البلاد والجزائر . وماقصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنج ممن بعكا ومنا بين .
الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا
ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخرناه وعطلناه . وكلما ركبوا
برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه . وكلما اوقدوا نارا
للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولا لكيدهم مجال ، ولم
يتسوق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين
ألف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم
بالردي . وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهم
بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم في نهج
القتال سالكون . وهم حطب نار الحرب . وطعم الطعن
والضرب . وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة . وحصلوا تحت
العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق القدرة ، ولما دخلت هذه السنة
اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد . وقلنا هؤلاء قد
بذلوا في الجهاد ما كان في وسعهم من الاجتهاد . ورأينا أن نجدد
للبدل البديل . وأن نسد ونسد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه
أكثر من عشرة آلاف رجل ، ومن كل زمر مشيخ وكمي بطل . فخرج
هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بذلك
الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبه . وحمى
جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه
كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت
ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع
لهم ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة
وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام . وبأس واقدام . وناس
واقوام . وحشد ملأت به سفنها ، وأخلت منه مدتها . ووصل ملاكا
افرنسيس وانكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما
ورجلهما . واناخا بكل كل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما
وجهلهما . ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة
هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على
موضع واحد . واهبطوا حجارات السور بكل حجر
صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والثلم . وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان نقابي
الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام
الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبون كابتون . قد
سدوا تلك الثغر بذفوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراخاتها
مفاقر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبيل السهام . وتنافعوا من
وقع بيضها بدمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم . وتشكر
ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم
وضربهم . وهم يواقعون ويواقدون . ويكافدون ويلافدون . وكل
قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت
رجله . وودع الجنة في لقاء أهل النار أهله . فخانهم بعض الأمراء
الجبنة . وأخذ الحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى
البلاء . وحسب النجاة في النجاء . وهرب في بركوس قد اعد له لذلك
اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم . واستصحب
أمثاله . واستتبع وأبعد في فراره وأبدع . وأضعف بضعف قلبه
قلوب الباقيين . وأمطى أفعالي الكفر في نهش الراقين . على أن
الأصحاب ما أنذوا بالأصحاب . ولم يقابلوا الضراب
بالأضراب . وما زالوا يواصلون بالقواطع . ولا يرتاعون
للروائع . ولا يريمون مقام المقامع . ويطالبون من الأرواح
بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى
الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن
أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعة فظيعة . كل منة لها غير
مستطبعة . ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم
تكن عكا بالممكنة للعدو ولا المذعنة . وأن زهبت المدينة فالدين لم
يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب . وان ملكت واحتلت فما اختل
الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السلك . وانما نبه الله بها
العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات
الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته
وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا
مصدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . ونوسعهم الردى في مضايقتهم
ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . ونكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من
وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما برز الا من
واراه من بطون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لا يريمون
مخيمهم . ولا يرومون ان يهجروا مجثمهم ، وما أنسوا بمرايض
المضارب . الا لذفرتهم من مضارب القواضب ، وهم مع ذلك
يرجفون تارة بالخروج الى المصاف ، وأونة بالنهوض الى بعض
الأطراف . وفي كلا القصين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم
المؤمل . فانا نعترضهم اين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا .
ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهم
عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا
على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى
لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمدون له بارزة . والعزائم له
مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس
اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي
وينتمي . ويصل بجمعه اللهم الملتهم . وبجمره المحتد . المحتدم .
وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السابك في نار الوغى سبائك
الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شك
ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد
بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعود
بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخرج حكم
عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ما صرف الله قلامي عن
عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وترحل
عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها
بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلامي وكلامي . وعرف شيم مخايل
الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمري .

- ٦١٣٧ -

وما جراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه .
وما ضيع احسانه . وهو للفقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا .
وما عرف الا بعرف . فما صرف الا عن صرف . وما سفارته الا في
نجح . وما سفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة
وامينها . ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد امدادها . وبسداه
للتغور سداده . ودواته دواء المعضلات . وبعقده حل المشكلات .
وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطعة قط هوادي القطوب . وببريه
برء الامراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي
الامجاد للانجاد . وبحركته سكون الدهماء . وببركته ركون
الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من
لا يعينه . فخذت على عكا من وقوف قلبي عنها . وكان قد الهمني
الله فانه صانه ولم يصننها . وشكرت الله على هذه الطيفة .
والعارفة الطريفة .

ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جانب
البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها
العسكر . فحضر الكؤوس السلطاني . فثار المعشر وقام المحشر
وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار
غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضممار . وشبت الوغى بكل
شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتغير الشمس من نسج
حافرها نقابها . في غلب كالقواضب . يروون القواصب . وطوالع من
الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حماة
الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق . وانهزم
الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت
عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعلا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل
على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت
تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا ثم وثبوا . واسمعوا نار
الحديد والهبتوا . ونظموا .
بالقنا . ونذروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت
سيوفهم بالاعناق والطللى . وحلت من حياة العدا الحبا . وبخل
القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثيرهم وأثار
عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ
يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن
رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة
المستأجرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صار الى صوره ورتب
الدوك نائبه وولاه الأمور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد
ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه
ورضى بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراءه رسولا
بتحف تليق به . يستخرج ضمائرهم فيما هو من اربه . ونقل خيمته
يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التل الذي كان عليه
نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلي الذي اخلاه عاطلا . ومازالت
الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى
احضر مائة الف بinar والاسارى المطلوبين وصابليب الصلابوت .
ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجل المضروب والوقت
الموقوت . ووقع الخلف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل
الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغم . فقال السلطان اسلمه اليكم
على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل
الرهن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع .
والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم .
فقلنا لهم تضمذكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن
السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان
فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا
خلاص اصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في
الحال ، بصليب الصلابوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهى الترم الاول . وجاء الرسل وابصروا
الاسارى حضورا . والمال موزونا موفورا . وظنوا ان صليب
الصلابوت قد ارسل الى دار الخلافة فليس له وجود . فسألوا
احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقروا به
شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخلاص
اسارانا مرهون . وظهرت علامات مكرهم . ولاحت امارات
غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخرج الفرنج الى
ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكثير
الى خيمته . ومعه خلق من خياله ورجاله .

ذكر غدر ملك الانكثير وقتل المسلمين المأخوذين بهكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجب ركبت الفرنجية بأسرها
وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجدفلها وحفلها .
وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية ودل كيسان . ونفذ اليك
وأخبر السلطان . وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة .
وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا
اسارى المسلمين . وفي الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلواهم
بأجمعهم . والقوهم على مصرعهم . فحمل عليهم العساكر
وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسع
فيهم خرقا . واستشهد منا كردي حميدي وبدوي . وكلاهما من
الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلما
انصرف العدو الى خيامه ، وركد الروح بخار قتامة . شوهده
المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسوا من حلل الجنان
التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم .
ووصفوا في سبيل الله موافقهم . وما اكرمهم رجالا . واحسنهم في
الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر
الوفاء . تصرف السلطان في ذلك المال . وبسط فيه يد النوال .
واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربابها . وترجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد للحاجة اليهم .
فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصليبوت الى الخزانة . لا
للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد .
والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم
الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا
ولا صادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها
وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من
الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الأجسام . فقبل السلطان .
ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبايه .
واجتمع بنايه لاجالة قدام الرأي أصحابه . وسح سحابه وصح
حسابه . وحكم فأحكم . ويرى فأيرم . واستشار وأشار . واستثار
وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا
العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك
بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كيمونه . وغرته عكا فطمع
في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه
جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته بايه . وثوراته عايه .
ونكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه .
واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب
الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى
مواجهته . واغرينا السنة الاسنة بمشافته ومشافهته . والان الان
الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى
الاسعه . وابرز من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في
طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار
لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب .
فقالوا هويسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتثيا . ويقصد
الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق
اما اجام وغياض غلقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكثبه .
وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعه

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر . وامير
من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها من
المخارج والمواقع . وكشف المواضع التي يلقي فيها العدو . ويؤمل
بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا ينقضان تلك المسالك
ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . ونتخذها لمبار المرام مبارك .
ولمدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على اماكن
ومكان . ومواطن ومواطن . ووقع الاجماع على الاجماع على
اللقاء والقراع . في مذاهب تعينت . ومسارب تبينت . وسهول
عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفرنج اذا ساروا
سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجدد في اعتراضهم
واعترضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران .
واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطة بالصهيل . والارض
مضطربة والسماء محتجة . والقباب تقوض . والعياب تنفض .
والجباب تنثل . والهضاب تنثقل والذئاب تعسل . والزغف
تفاض ، (٥٨) والحتف يخاض . والخيل تسرح . والسيول يمرج .
وذوائب الذوابل تنتشر . وانبات الذوائب تكشر . ولواء اللاواء
يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخدق . والبوارق تألق .
والدودو . والجوجو . والحديد تبوج . والعديد تموج . وقد ثارت
الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجت الضوضاء .
وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السلطان
تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فرعدت كوساته . وغردت بدوقاته .
وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت نيوله . واصططحت
خيوله . وبرقت لواامعه . واشرفت طوالعه . ومضت عزائمه .
ومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مطار مطارده . وتألقت
الخرسان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردا الضوامر . وسماؤه

نسج الدوافر . في بحار سوابح يموج على شكائهم العباب .
وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب .
مشتعل القواضب . وقب معقودة السباب . مقودة الجنائب .
معصوبة الهوادي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب
ملوثة البرود بالقضب . وترك كالأقمار في هالات التروك . وممالك
في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهايات العتاق قد خلقوا
للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العرب . هضاب على
هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقياب اليلب
مستعصمين . في مسروبة الحلق . مسدودة الحلق . تقهقر عنها
اللهازم . وتقهقر اذا قلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو
ولا يصاب . ويعيب الاقران ولا يعاب . من كل ناصر للحق على ضامر
السبق . خارق للذقع راقع للخرق . فائق رائق للفتق . معنق الى
الضرب ضارب للعنق . وفيلق همه فلق الهام . وجدف ملتهم
للجحف اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رجب الباع .
خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض
السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواجر . فزرات القساور .
وأزهرت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير .
وأشبه سهك الماني بعبيق العبير وكانت ذوبة اليزك في ذلك اليوم للملك
الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم
المحفل . فوقف لهم وقفاً أثروهم وألهبهم بنيران النصال .
وأسعرهم . وقطع طريقهم . وقصد تفريقهم . وسطا على
أوساطهم ، ونادى بايراء زناد إيراطهم فأنقطعت أواخرهم عن
أوائهم وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الأجل .
وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم
ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل ، وأوقد ناراً على
أهلها مشعلة . وترك تلك الواقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله .
ونفذ الى والده يستنجد . حتى يسرع اليه مده . ويقول ان امددت
بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا . ومتى تتفق مثل هذه الفرصة لو اري لي

7184.

مساعدا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدره لمرى در النصر على مراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل للسلطان ما كنا ركبا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبطأوا عن الاصراخ . فأنز روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عابيا بخدماته . فحمى مدده امداده .

والملك الأفضل قد بذل وسعه . وأوضح في الجد بشرعه . وقتل من
وصد-----لت اليه يده
ولقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهف على
ما فاتته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقد انهاض
بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح في
النصر . ومن جملة من كان مع الملك الأفضل من خواص الامراء
والممالك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جريدك . واتفق قولهم على
ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم
مدد . لم يبق من الاعداء أحد . ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت
الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخاف
فيها من العدو الفاره . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره .
ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين
وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان المشورة
بحضور اوليائه وامرائه . الاماجد الاجاود . والفرنج لما وصلوا الى
حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من
نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم .
ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى
الملاحه وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالدوم .
وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد
الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل ياباليلة

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بارض الا احيا ماحلا .
ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك
البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحه . ومكث بها للاستراحة .
واقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف
للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . وأتى مرارا بأسارى
خطفوا من موافقهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب
ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحه رممهم . واخبره بعض
الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم
وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهاكت بين عكا
وحيفا اربعمائة فرس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو
انكم كبستم كسبتم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية
لا استدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل
سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن
حذفه بظلافه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده
وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل
شعبان وملك انكتير قائدهم الى البوار . ووافد اهل النار الى
النار . واقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا في عراضهم
لاعتراضهم . وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من
اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم
قطعوا ساقه العدو عن الحاق بمقدمته . وفلوا عن الحدة في الحركة
حد عزمته . وقتلوا خيلا وخيالة . وفوارس ورجاله . وقدروا
وتمكذوا . وجرحوا فأخذوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا
قطعوها . ووقذوا نفوسا قلعوها . وغنموا أقمشة وأسلحة .

وحصدوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهر حيفا
وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في قلوبهم السيف . فأقاموا إلى هذه
الغاية لداواة جريحهم ومواراة طريحهم • وإراحة طليحهم •
وإثارة ماركد من ريحهم • وقد رحلنا وسبقناهم إلى طريقهم •
عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم •
فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع
شملا لتفريق شملهم ، وما يجده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة •
ولأعدائنا من عبطة • إلا ونبادر ببشراه إلى المجلس لتقوى في
نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في مواقفنا شيمته وتروض
مواحل الآمال مع أوان الديمة الربيعية بيمته ، ويغلو في سوق رواجه
من الدين ماظن أنه رخصت قيمته . وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثار
الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، وإذا تأمل عرف أن الخطب
عظيم وما لدفعه إلا العظيم ، والههم مقيم وما لرفعه إلا بأسه المقعد
المقيم وسيقتضي بين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء من أخبر برحيل الفرنج
السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى أجنحة الجرد طائرون
وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهم في جمع لهم . وقد انقسموا
ثلاثة أقسام كل قسم راجله بخيله مدفوظ . وبأعين القسمين
الآخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقدم من الليل
بركوب الخيل . فركب في كل خواض الفمرات . فياض بالعزمات ،
رواض للجامحات نهاض بالجانحات ملتئم مع اللثم بالذقع والدجى ،
ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم
بجمرة الظبا ، على نزائع يذقلن الردى على صهواتها وصواهل
يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظلام بجهاتها . وبارين
الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلاتها ، وفيهم من
رجال الحلقة المنصورة كل سابق إلى المذن على سابق ، وكل تائق

إلى المازق مازق ° وكل طائر في الغبار على سابح ° وكل غابق
بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطيه إلى
الرقاب ، وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه ، ونجثري عليه
ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي ° وتصمم وتصمي ، وطيور
السهم تقصد من الاحداق اوكارها ° والأوتار تنشد بالارنان
اوتارها ° وهم في لباس حديد سد على السهم المنافذ ° واشتك
النشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهها
غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحدودها . فحلأناهم
عنها . وأبعدها منهم . وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى
الفضاء . فيدخلوا من تمكنا منهم تحت القضاء . لكنهم ارتابوا
وارتاعوا . وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فانحرفوا الى
الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سارين .
وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزمهم ونهزمهم ونحفزهم ونحزمهم .
حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتثلثت الصفاح . وتحطمت
الرماح . واجرت الأنهار الجراح . وجرى بالارواح السماح .
وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الاراة نافذ المشية ، ونزلوا
على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا
يرجون . وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم في مسيرهم النوازل
نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطاعن
الضارب . الباسل السالب . الفضنفر الهرماس . الفارس
الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدام
اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسمع متنصت .
ولعطاس الذقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلافت .
ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لا يروعة الروح اذا حفزته عزمته .
ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصافين على صافنه . ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه الى مقاتل المقاتلين ظهائن ضفائنه . فما برز اليه الا من برزت اليه مذونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف الكفر كفها . وبكر للنصر زفها . واذف للشرك جدعه . وذى اذف للفتك صرعه . وابه للفضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلية للمتقشمر طنت فيها انيه صفاحه . واجقان للأقران نبتت فيها أهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل ما أجل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه . خانه . وما صانه . فعثر به في حالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لنقل الحديد للقيام وطعن وضرب وأتاه من الكوثر ساسيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شبيدي الشوكة حديدي الشبكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في اسفله ، وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتظر ما يكون من خبر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحتهم ، وكذلك ممالكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم في ساقاة اليك ، مستيقظا للحفظ والدرك ، فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، كبوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرينا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شدة ، واسر ثلاثة ، قبل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاخذاق به من أمامه وورائه وأقام يوم الأربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الأول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكثير

كان في اليك علم النين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائد ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتموهم واصطلحتهم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : مالذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسالوك مسالك الأسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخطل القتنام وخرط القتصاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مـرجـل غيرته في الكلمات الكلمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هذفري بن هذفري ، فلما سمع ملك الانكثير مـارـاعه ، مـاسـتـطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك
الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة
وقت الاصبح الأصحاب ، واستحضر من أسد غابة من
غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيال الرجال ، وركب في
عجم انجاب وعرب على عرب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد
على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها
أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى .
ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم .
فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا
نصله ونومه ، فلما اسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب
العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر
في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان .
وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال
النهم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفـة الكفاح ،
وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية
وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معتقل
أفعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على
أدهم ، فأحدثت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت
بذسور ضـواـمرها الأرض الى السـماء ، وخاضت
الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران
الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهت
بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . التـرك على
الأكاديش ، وأحدثت سهامها كالاهداق بالأحداق ، وبرزت بيضها
لمعانقة الأعناق ، ولمع شرار النصال في بخان العجاج ، وخرقت
بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى
اعجال الاعلاج ، فان الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا
وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعانقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب ، وقربوا من
ارسوف ، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف ، وضاق
خناقهم ، وحق بهم ارهاقهم ، ونشبت الجاليشية فيهم
بالذشاب ، وشبت نيران المرفهة في أولئك الأوشاب ، فاحتملوا في
جلودهم الجرح ، ومن اجلادهم الطرح ، ووجدوا الموت الغالي
مسترخصا ، وايقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا ، وعرفوا ان
البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق ما لقوه من
الزكايه غير محتملة ، فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحدة
زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلثها شوارع القنطاريات عن
مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت من وجوه
النصر بالصفور ، واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة
الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن
لهم الجنة ، فما صرخوا حتى صرخوا ، ولما اشرعت اليهم الرماح
اشرعوا ، ثم كرت عليهم نخب الرجـال كرة اردتهم
وردتهم ، وصددتهم عن الاسـتـنان في جـدد تلك الحملة
وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس ، وفرشت
بالعراء لهم أشلاء ، واثخذوهم طعانا ورماء . فنزلوا في ارسوف
وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبت
على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اسد
العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع . وثبت
عسكر الموصل . وكذلك قايمـاز النجمي في موضعه الأول ، وكانت
العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشبة ، فلما رأى العدو
اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبر
ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السلطان تلك الليلة على نهر
العوجاء ، واقام العدو يوم الأحد في موضعه ، منكوبا بتعب
تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بها ورطه
ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالنوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم
حتى وصلوا .

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من
عكا

وسلكوا في مواضع مالىذك عليهم فيها سبيل. ولا لقдах القراع في
مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق، وتطرقهم بالبلاء بل
المنايا في كل طريق، وهم على البحر لا يفارقونه، ومن المورد الى
المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه، فان المياه قريب بعضها من بعض
ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين، واذا لزوا لم يبعدوا بين
المنزلتين، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه، وفي
كل مرحلة مقتله، وفي كل منزلة منازلهم، وأوردناهم الردى في كل
مورد، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد. وسلبنا حماهم للحمام
في كل سبيل، وسار صبايحهم منا في كل مغدي ومقيل، وطريقهم
على البحر كلها مضايق وأجم ورمال، ومواضع لا يتسع فيها مجال
ولا يتهاى قتال، وكالما وجدنا فسحة ضايقناهم، وأرهفنا حدود
العزائم والصوارم وأرهقناهم، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر
فيها يبور. ودائرة السوء على اهله بنا تدبير، وماء اهل النار
بفيض بأسنا عليهم يغور، ولولا ان الله تعالى قد اخر مواعده في
نصر اوليائه، وقهر اعدائه، لوقع الفراغ من شغلهم، وشملت
نعمته لنا بتبديد شملهم، فمنها يوم رحيلهم عن عكا ارهقتهم
اليزكية الزكية، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنيه، وكان الولد
الافضل يومئذ متولى اليزك. فتولى اسعار لهب المعترك، ووقف لهم في
المضيق على الطريق. وباشر جمعهم بالتفريق. وقطع آخرهم عن
اولهم. وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك، وفتك
وهتك، وقتل وسفك، وطلب وأدرك، وعبر الفرنج نهر حيفا لما
دهمهم من الأمر، واحتتموا بالمنزل الوعر، ووصل عساكرنا وقد
تمنعوا بالنزول. وتجمعوا في الوعر عن السهول. ولم يبق اليهم

نهج للوصول ، وأقام الفرنج في تلك المنزلة أياما ، وقد نالت معاطسهم أرغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، وأحسوا الكموا التدبير ، واستأنفوا المسير ، ومنها يوم انفصلوا عنهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولم تزل السهام الى مقاتلتهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل رايها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فإذا لزوا بالمنازلة ، ارتزوا الى المنزلة ، ولأذا وهم أهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعابهم شاكين في منتههم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم الذشاب وأعجزهم وأزعجهم وأخرجهم بكثرة الزكايه فيهم وأرهجهم ، كابرُوا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاءوا كالسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الأطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعثوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنوها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طالبه ، وكر عليهم في حربه ذوي الحمية ، والأنف والابية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في الذوبية من الذبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمه من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل
كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع
أولئك الملاعين ، وابليس ذلك الشياطين ، والمعروف بسير
جك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة
كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية
والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع
قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا
بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكثير لمصره ، وفزع من
ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من
مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطراب ، ثم رحلوا وقصدتهم
العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلافه
وتلافي ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم
مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى باسطهم في
ميايينها ، وخالطهم في بسايتينها ورابطهم بالأسود في
عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد
تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب
وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة الزكاة وعولها ، وما صدقوا
كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا
انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا
صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل
بالرملة ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحلة ، ورحل ليلا
واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امران الخيام به
تبني ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس
التيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع
فيما عزم عليه من الأمر .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل نخائره ، من كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقوا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنباً متجنباً. وقد راعتهم ذوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعال واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فدخلها اتباعاً لمرادك ، فحينئذ لم يجد بداً من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذيوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خلال ، ولا الى ايدها شلال ، ولا الى حدها فالل ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفقتها واستحسنها واستلطفتها ، ورأيت سورها قبل فصرم سوارها . ونورها قبل نيل نواره ، فمسا رأيت احسن منها ولا احصن . ولا احكم من مكانها ولا امكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاططار والاططان . وساعت اسواؤها .
ونأت انواؤها . وناخت لاواؤها . وباخت اضواؤها . وسمع غناء
المحاول في مغانيها المعوله . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة .
وناخت تلك الدواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف .
واخافتها المخاوف . ونكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف .
ونعتها الذواعب . ونابتها الذوائب . ونزلتها الذوازال . وغالتها
الغوائل . وسفرتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها
من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوة . وصوحت
مجاني مبانيتها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها .
وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طولها واستوقفت . وأسيت
عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت .
ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكيت ذلك الربوع . وأهـبيت
لسقيها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه
لعبوسها . حين ثار ذقع بوسها . فلما خلت مساكنها من ساكنها .
وتخلف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني
شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر
ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرملة . وتفضيل جميله
باد على التفصيل والجملة . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد .
وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم
الخميس . واعاد اليه رسم التأسيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن
شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت ذوبة . وقد نال بما رتبته من
مصالح القدس الماثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد
اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان
وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئاً
من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقاه الملك العادل . وجاءت منه
الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جـدة .
وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضافرة . فانه
تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خياله متذكرا .
ليكون لحشاشة لهم وخطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به
اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكان
الملك يؤخذ ويوقد . والطنن في لفته ينفذ . ففداه فارس من اصحابه
بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به
واسره . واقلت اللعين وأخفى أثره . وقتل واسر من خياله
جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ،
وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين
اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف
بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل
على قل عال عند النطرون . وهي قلعة منيعة معجبة للظنون
والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وقل غربها وثلماها . واشاع بها
الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس
هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد
والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والاسلح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل
والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن
مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مريع . ولا شتا
ولا صاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه
الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف . وتحللت به
الصدفوف . وتمخضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه
وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر
وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . وامل
النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدا الجهاد . وانضاهما
الطراد . وفري جلودها الجلال . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تذفر من رنة الحنيه . وأنة المبرية . كأن عندها للاوتار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاربيها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ما حدث من الذفار . وما عادت الان تدخل على راجل الكفار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما الذشاب فانه قد فني . بعد ان اتخد من اخشابه جميع ما وجد واقتني . وقد عمدت اشجاره في منابتها . واعوزت اخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائس . وانفضت منه ومن كل ما ينخر الخزائن . وما تبرج الصناعات في الممالك بمصر والشام . وما يجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشون . وينصلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال . الى احوال كثيرة لا يفي بها الصناعات ولا يرفعها العمال . وحسبها ان نصولها اعدمت من حبيدها المعان . وخذت من نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده . مستهدف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . وما استمر على مساعدته . وموازرته ومعاقبته . الا صاحب الموصل وسنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ماجار . فهو يحضر تاره بنفسه وأونة بولده . ويستمر من جد الموازرة على جده . ويواظب بعده وعده . ومدته في مطاولة مدته .

ذكر ما تجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة في المواصلة

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاه . والمواتاة في المواقاه . وموالاته الاستمرار على الموالاته . والاخذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظاهرة . بالمصاهرة . وترددت

الرسول اياما . وقصد التثاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر
تزوج الملك العادل باخت ملك الانكثير . وان يعول عليها من
الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري
فيها الامر على السداد . وتكون الامراة في القدس مقيمة مع زوجها
وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج
والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولا يمكنهم من الحصون التي في
الذرا . ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا
امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد .
وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين
سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام
الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا
الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في
وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب . وما اخر
الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الفرض
وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى
ملك الانكثير لفصل امر الوصلة . وراحة الجملة . وازاحة العلة .
واعتقدنا ان هذا امر قد تم . ونشر انضم . وصالح عم وصالح
أزم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى
الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن
النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان
الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع ينقضي بانقضاض القارح
القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم
العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان
هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج
ترويح . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع النثر . وذاع
السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على
قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجهوها بالعذل والذع .
ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئتنا بافجع مالم مؤلم .
وتسلمين بضحك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما
تهسر . وان ابي ابيناه . وان اتى اتيناه . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحن لاختلف الدين
نديين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ما طلبت . وسالت
بعد ما سألت . ونزت بعد ما نزلت . وكهرت وكانت شرهت . وكانت
اكتحلت فودت انها مرهت ، فأرسلت الى الرسول واقبلت عليه
القبول . ثم تصدبت في القسم بالصليب . انها مجيبة الى التقرير
والتقريب . وانها مسارعة الى التكمين . لكن بشرط الموافقة في
الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع
بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها
وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتظام
العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير . وصغير بصغير . وبشر
اولياء الطاغوت بصليب الصليبوت فبطل التدبير . وعطل التقدير .
وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى
سارت اليهم بكره . واحداث بحسن احتيائه لكل عين وقلب قرة
ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بساط نشاطه .
وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه
بتقريبه وتمكينه . ويلييه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصل .
ولاسمو منزلته بذو المنزل . وعلاء الدين ابن اتابك الموصل عن
يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره . ومجاهد الدين
يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلته
منافس . ثم تفرق الناس باندس جامع . وعرف شائع . وعرف
ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرّب من العدو
ومواقفته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في
تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقد اركب العسكر

للقتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حالي الجملة .
خيم وبات . ونوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج
العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا
عليهم . وقربوا من خيامهم . وأخذوا عليهم من ورائهم وامامهم .
وناشدوهم بالذشاب . وكاثروهم بالأوباش والأوشاب . فركب
الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة
واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايبيهم .
فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة .
وكانت مسعاتهم الى السعادة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان
ماخلو من وقعه . ولا بد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة
المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في الموضع المستورة . فكمزوا
وامذوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا
عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم اعراب على
عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحاب . فركبت اليها من
الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت
العرب امامها . وحققت انهزامها . وما قدرت على قصد موضع
الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانيين دون العرين .
فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من
سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا
باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم
ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن
انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشدوا بردهم عن ودهم .
وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار
وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نرحت .

فاضطروا الى القتال وقتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من
كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم
اياز المهراني . وجاولي الغيدي . وصارو . وسروا في جنات النعيم بما
اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسبان معروفان واحضروا عند
السلطان واندفعت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب
الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخيل تقاد اليه .
والأسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس .
وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك
لأجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة
وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة .
ودامت المثاقفة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقه اظهرها ومصادقة
قراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف
بالصنيعة ليتفقد الأسارى الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلافى .
وكان قد وصل صاحب صيدا من صدور برسالة المراكيس . وانه يرغب
في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على
الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو
بالمالك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا
بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى المراكيس
على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر
عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكما ابرم عهدا
نقضه ونكثه . وكما قوم امرا عكسه وعلائه . وكما قال قولا رجع
عنه . وكما استودع سرا لم يصنه . وكما قلنا يفي خان ، وانا
خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحد سابع
عشر عاد السلطان الى المخيم بالنظرون . وأقام على الثبات
والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

- ٦١٦٢ -

ارسلان صاحب ملطيه مودعا وركب السلطان وسار معه مشيحا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصادق مائة الف دينار . ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار . واستبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذي القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها . وخيموا في اقطارها وسهوبها . ولم نشك في انهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام السلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منها زوايا ، ولنا في كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالى الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحدت الأوعار . فعزم على الرحيل ، وأمر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناصرني حتى وصلنا الى القدس قبل العصر . وقد نشر السلطان لواء النصر . ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامه . ونوى بها الاقامة . وشرع في تحصين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجة في قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنظرون . وأنن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم

- ٦١٦٣ -

الظنون وتزايد السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة .
تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليك
قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصبحوا الا حصنهم
المجنوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها . واسروها
وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا
ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعى كريمه .
وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه من
العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة .
وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنه
على الحسنه غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة
الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه
الخاص . وصلى الناس في القبة العيد حوالىها العراص ، ثم
انصرف السلطان وقد بر عمله . ودرامله ، ووفراجره . واسفر
فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج
بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في
الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم واموالا . وساقا خيلا وبغالاً .
وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا
بين يدي السلطان على ركب النمل جاثين . وتوالى على الفرنج
النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم
الحروب . وزادت الكروب وضائق عليهم الارض . واستولى على

- ٦١٦٤ -

عقود عزائمهم النقص ، ورأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهم
البلاء من الجوانب فمصابروا . ورحلوا الى الرملة
عائدين . وبالسّهول من الحزون عائدين ، فان الثلوج دامت على
اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل
في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس
الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضع في النصر
من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سورته واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم
خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب
الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في
الصخر . وقد سرفهم بذفقة . وجعلهم من الاحسان على ثقة .
واصحبهم بعض حبابه . ونداهم بندي سحابة . وسير مع المندوب
ملا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهداهم في كل يوم بتدفد
بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم
السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سوروثيق وأحضر
من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد
ابراجا حربية من باب العمود الى باب الحراب . وأنفق عليها من
المال ما خرج عن الحساب . بناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت
ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق
يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبته للقدس
المعمور . كان أمنا من قصد العدو المدحور . وفي عصمة الله من
المخوف المحذور . وقسم بناء السور في مواضعة على اولاده واخيه
الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه .
ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

- ٦١٦٥ -

بنفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة
والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت
اركب في غلmani واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر
واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في
التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي
السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار
ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة .
لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاسـتنجاد
بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا
بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيوش المترادفة
المترافدة . والجذود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة .
والهواضب الهاطلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف
المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح .
والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الأرواح . ومكث السلطان
على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستودشا من ابطائه . متعطشا
الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه
واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضى الى ميفارقين . واستصحب
اليها عساكر ماريين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي
اصحابها . واستحوذ على جميع مابها . وحاصر مدينة حاني
فتملكها . وكانت له مقاصد في بيار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من
ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدا به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر بيار بكر .
وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبتة ، وهبت روعته . ودبت
الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره .
وارتجت تلك الآجام من زاره . وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد
ببلائه . وهابيت الأعداء هبة أعدائه . وزلت الأقدام
لأقدامه ، وانخفضت الاعلام لأعلامه . نفى عدله من جبل جور
جبله الجور ، وأنهب بسبب نهابه اليهبا فـوران
الفتنة على الفور ، وبخل قلب قلب ، وحكم في عاداتها الغلب
القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان
وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق
بانن الشنف شنفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته
غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همتته ، وحركته
عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمه أمته ، وما أرجأ له نجح رجائه
رجاله ، وما أبطأ له عن اعانتة أبطاله ، وأجنأه ثمر الطاعة
أجنأه ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجأه ، وجـر عـسـكـرا
مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب
بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بـترا ، وصـواهل
ضمرا ، وانهض كمته وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته
وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، ونسوره وبغاثه ، وسمانه
وغثائه ، ومثانه ورثائه ، وشباعه وغراثه ، وجاء في سواد اسود
منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل
العجاج ، وتجلي بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر
وتصعد ، وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الاعلام
بالاعلام ، وأذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهوايها قد
ملأت الوهاد ، وأدنى الى الأساد الأساد ، وأغرى بالجلاد
الأجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع
المراح رماحه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران
دروعه ، وهاجت غران جمـوعه ، ومالت المراز ، وجالت
الأقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعدت
السهول ، وانقض القضاء ، وانقض القضاء ، واشتكت الأرض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألمها على شرط تنظلمها الى
السماء نقعا ، وحدثت في وجه الفلك ترابا ، وحدثت الأتراب الأتراب
طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى
الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خادره ، وانتشار
بوادره ° وانتهاض قواده ، وارتكاض صلاومه ، وانقضاض
شهب قواضيه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصطفاه
من الأنجاد الأنجـاب ، وفـض على الفضـاء سـحاب
الصحاب ، وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعـلوه على
العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل
لحق المـبطل محـق الطـلب ، وكل باسل سالب من كباش الأقران
القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المذون ، وكل شجاع
اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدم قواده عوائق الوقائع ، وكل
طائر بأجنحه السوابق ، زائر بأسلحه البوائق ، محلق بخوافي
الخوانق ، مطرق لطوارئ الطوارق ، وكل زمر مشيح بالذمار
شحيح ، وكل قاس قوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف ، وكل
صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق ، وأيد
رجاء الرجال بأيايه ، وقوى عزائم أوليائه لأضعاف
أعاليه ، ورغب بالـرغائب واملى ضيوف الآمال بفـيوض أمواه
المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم
مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم
القلوب ، ومشتعل ابيض يكشف ظلم الحروب ، وكل من يخال
الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ، وكل من ينال اعتزاز
الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصل
بها اذا فارقت اغمارها المرافق ، وكل من عنانه في يمين
الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل من ذبال سمهريه
يلتهب ، وذياب مشرفيه يضطرب ، ووجه صوارمه تبكي
وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه
ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتدمي ، وكل اشعث
الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيطمي ° أباء
حـمي ° مجرب محـرب ° مقـرب على مقـرب ° مـظهر على

مطهم ° جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حلیم تحمد في
الوغي جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صهلته ، وكل
بحر مستلثم بغير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لا يس
حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط وذلوا استدرك
الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى
هزيمه ، واوى هشيما ، وأغزم العسكر التقوي سلاحه
وخيله ، وجـر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر
بالمك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا واصحاء
كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريقاته جناحهم ثم رحل من
صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها
فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح
مقفلها . وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن
حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه
قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى
ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها
الأمداد ، واروى فيها من عزائم الزناد ، وجاءته عساكر أرزن
الروم منجدة من جده ، موجدة لما لها من مـوجدة ، تقدمها الملاكة
ماما خاتون بنت سلدق ، وكأنها في الأهبة والأبهة من ملوك
سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجنود ، ووافقته السعود ، وخافته في
غاباتها الأسود وغربت به العقول وعلفت به العقود وتوطدت له البلاد
وتوطأت وتهيبت وتهيات ، واستندته الممالك القاصية ، وأطاعته
المقاصد العاصية ، وتشذفت له مسامع الأقطار بافراط السمع
والطاعة ، وعم الأمحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله
مجاة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلات الطرق
بالوقود والجنود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينما هو في
غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد ألهاه
حديث الدنيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني
وزيادة الأمـل ، عن زيارة الأجـل ونزل المنى عن نوازل
المدون ، وسكن الأتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب
المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقرض

عنده وانقضى ، وكنتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده بإظهار شعاره قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلب الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مامنه فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الأمر على إثارة وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فياله من حسام أغمد ، وهمام الحد ، وركن وهن، وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصبح كسف، وبدر خسف، لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل امه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق في الكرماء ما ذكره ، وذكر في المكارم سيفه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لحنى النصر مشهورة ، فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وقله ، وما زال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

الثرى بحق خلقه معه فاسترهنه، وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه ، الى السماء فاعتقلته ، ووجدته في اوج الفلك في النيرات فذقلته ، وماكان انكاه وانكاه ، واصحه واصحاه ، وابهجه وابهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شقيقا ، ورقيقا رقيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصاب بعد ماأصاب.وجواد بلا حساب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسلطان الى الأندلس به مستنهما ، فعرض له مرض استأذن لأجله في العود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ماطلب ، وتوجه من القدس سادس عشر ذي الحجة ، واستقام على المحجة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قرية غياغب ، وستر التراب منه المناقب ، ووصل الخبر بوفاة الينا يوم الخميس ثامن عشرين الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصلحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغرل بن ارسلان تحت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنة ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأذف السلطان من كونه تحت حجره ، وبحكم نهيه وأمره ، فانه لم يكن له صاحب ولا غلام الا من عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه من الخيل ، ودام غائبا في نواحي دامغان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل به علة من مماليك

بهلوان الخواص ، وسلكوا معه نهج الاخلاص وأعادوه الى سرير
ملكه ، وانتسق امره في سلكه ، وقويت يده . وتأيدت قوته .
 واجتمعت كلمته . وتكلمت في الأمر والنهي جماعته . ورهبه قزل
ارسلان ولازم نعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء وممالك
بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض
وقابلوا كل ابرام من مكرهم بنقض . وقالوا له هؤلاء البهلوانية
يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهم قبل أن يبطشوا .
وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهم
بحضرته وهم غارون . وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه
سارون . فذفر منهم كل أنس . وحفظ نفسه من كل منافس . وزال
بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على ممالك
أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل أرسلان فأزعجه . وأخرجه من
دار ملكه وأخرجه . وأجاس سلطانا آخر موضعه . وكدر عليه
بالشوائب والنوائب مشرعه . وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان
شاه وأطعمه طعمه . وأرضاه بالاسم . وأجراه على الرسم .
وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما
أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همذان من قزل
ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قربه بعد .
واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشدد في النهب
لشدة النهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبث العدوان .
وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه . ولخاطر لم
يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصول إلى الامير حسن بن
قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وأزره
وضافره . وظاهره بعد أن صاهره . وزوج أخته منه . وحمى
جانبه وذب عنه . وراسل سلطاننا قزل أرسلان حتى يصالحه .
ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد
ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا . واتهم كل واحد
منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان . وعادت
الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همذان . فمضى
وراءه قزل أرسلان . فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنايه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبس في بعض القلاع •
وأبعد عينه وأثره عن الابصار والاسماع • فأتسقت له المملكة •
واستقر منه الاسكون والحركة • وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان
قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخربت • وقتل في
ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف
وزحوف • وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية • وقووا
أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى
أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمام قوته
والامكان • فلما اعتقل طغرل • واستمر أمر قزل • مضى إلى
أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في الحال • وأجرى عليهم القتل
والاغتيال • ثم عاد إلى همذان وقد قوي وروي • ونال ما هوي •
وذشر من أمره ما كان طوي • وجلس على سرير الملك وضرب النوب
الخمسة • ووجد بعدم من يوحشه الانس • ولها ولعب • وشرب
وطرب • وغفل عن القضاء المشتبه • ونام عن القدر المنتبه • واغتر
بالعيش الرفه • وحلم عن الخطب السفه • وبات في قصره • وقد غاب
في سكره • وهو بين خدمه • وحشمه • وعسسه • وحرسه • وعتقائه
وأرقائه • ومستخصية • ومستخلصية • فوجد على فراشه وهو
قتيل • ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل • فذسب قتله إلى
الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى • والله أعلم بما به
حكمه أجرى • ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون
أربابه • وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه • وجمع له ملكه
ومتعه • ومضى أخوه نصره الدين أبو بكر إلى انزبيجان وأرانیه
سائقا إليها واستولى عليها • وأما السلطان فإنه أيس منه • وسلا
من كان يواليه عنه • فتعصبت له امرأة متولي القلعة ودبرت في
خلاصه • وهونت على زوجها أمراستصعابه واعتياصه •
واستعانت بمن أعانها • وأعلت بإعلاء شأنه شأنها • ولما برز بخل
مدينة تبريز • وكانما الكير أخرج الابريز • ثم جمع ومضى على
سمت همذان • فلقى قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان •
فكسره وهزمه • وفل حده وذلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على
سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المهروفين من أصحاب السلطان صفى الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا . وفي حلبة المكارم جريا . ومن الخيانة في ولايته بريا . ومن العار عريا . ولم يزل زند مضائه وريا . وكانت له سياسة ورياسة . ونفس ونفاسه . ورأي وفراسه . وفطنة وكياسه . ومروءة وفتوة . وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمالها حتى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الآن ما باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعاش غنيا . ومات جشريا . وورث السلطان بعض ماله . وذلك ما فضل عن افضاله ، فانه فرق على ممالিকে املاكه وماله ، واخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفا ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشأن ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفًا في طيه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة ، ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه ، ولجده انتباه ، ولداواته بالشفاء شفاء ، حتى حان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكراها واشكرها . وعارفة اعرفها ولا أنكرها . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهرى العرض ، وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الألم ، فتقسم فكره من خبر السقم ، وركب ووصل في يومه حتى ادركني ، ومرضني وما تركني وداواني حتى

أبليت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبتني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه واحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها ووقفا واعطاه في بنائها الوفاء فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع المالك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ السيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقتها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق بخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعنة والنخيرة ورأيناها من أحسن المدن واحصناها واحكمها وواجبنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اوبية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة بينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الاجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

والمؤمنين المعيين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلكله . وحفل بجحفله ويرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قيامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمة ، مقام الأنبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين . ووضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشراف الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الاوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والاداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الأمر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح ، فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده والآن الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهذه لاشك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدة ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العداة ، ولعدو انتظار لنجدة بحرية وارتياب . ومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لا تفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين
سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مذيسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع
لليلة النصر صبحه ، الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه .
وصحاب اعماله وشباب احواله بنصرة آرائه ونصرة الائه
مروضه ، وقد استناب فيه اخاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه
وبهاؤه به شهيا شهيرا الى ان استشهد في شعبان سنة خمس
وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى
عليين . فأبقى السلطان ذوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان
الأمير سياروخ بالقدس مقيما . والنظر في مصالحه
مستديما . ويضم من امره ما يراه منشورا ، وكتبت له في التاريخ
المذكور باستقلاله منشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى من دانه من الكفر
وبذسه ، ونزه البيت المقدس من رجس اعدائه المشركين بأيدي
اوليائه الموحدين وطهره وقدس ، وانطق محرابه ومنبره بتلاوة
الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصمه من
الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة وذفسه ، ونسأله ان يصلي على
نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه، ومهد الشرع
واسسه . وبطل الكفر وعطله . وارغم الشرك واتعسه ، وعلى آله
 واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصفى
مورده ، وازكى مفرسه ، وبعد فانا مذفتح الله لنا بيته المقدس
وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيا من ايامنا وجه
الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا
به الحظ الاجزل الأفضل الأكرم الأنفس ، مانزال نطلب وليا لله
يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايتثاره
حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتديبره الكافي ما انخفض من منار
الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيا به من رسوم الايمان

ونجد من معاله ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد
اختبرنا الأمير حسام الدين فالفينا لاهلية هذه الولاية
جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه
بأعباء الأمانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا
ماخضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس
وأعمالها ، وعزقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام
أشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل
مناجحتها ، وسداد ثفرها ، وسداد أمرها . ورعاية أمورها
وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع
أماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من
أبناء ابني الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى
والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة
وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم .
وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل
ما يحله ويعقله . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل
يوفقه ويسعده ويعضده .

وبخلت سنة ثمان وثمانين وخمسائة والسلطان مقيم بالقدس في
دار الأقساء جوار قمامه ، وأظهر بها لتقوية البلد الإقامة ، وقد
قسم سور البلد على أولاده ، وأخيه وأجناده ، فشرعوا في إنشاء
سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصح ، مشمس
مضح ، فينقل الصخر على قاربوس سرجه ، فيستن الأكابر
والأمراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيت وهو يحمل حجرا في
حجره . لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية
الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وأنشراح صدره
لأنضمامها إلى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما
تغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملاكا في دارها
وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب
وبكر إليه ، وجمع الحجر بنفسه وأجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل
إلى موضع آخر ونقل إليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمرا حسنة واحدسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فض جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلباً لايتأتى قطعة . ولايتهى بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلب ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلود ، وصفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرج جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثنى ، وكاسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاqa يعقد ، ورواقا يمهّد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تعمّر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج

تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل ما في الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأنفه من عمله . ويحلي بالفضل مايبدو له من عطله ، وكان ذاك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال ينفقه نخر باق . وانه إن فاق كريم فيانفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله واستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لاسلم فزع . ولافيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيـره . وقهـقر عـن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسـبحان الذي
اقدـر الاسـلطان عـلى ما عـجز عـنه المـلوك . وهـداه مـن الفضـل الى نهـج
ضـلوا فـيه السـلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحـل الفـرنج يـوم الثـلاثاء ثـالث المـحرم مـن الرـملة الى عـسقلان
ونـزلوا يـوم الـاربـعـاء بظـاهـرها . وتـشاوـروا في اعـادة عـمائـرها ، وكان
سـيـف الـدين يـازكـوج وعـلم الـدين قـيـصر والـاسـديـة نـازليـن في بـعض
اعـمالها ، مـجـدين في نـقل غـلالها ، وركـب مـلك الـانـكـتير عـصر يـوم
الـخمـيس ، ومـعه حـزبه مـن جـند ابـليس ، فشـاهد بـخانا عـلى البـعد ،
وما عـرف ما عـنده مـن العـسـكر المـعد ، فسـاق مـتـوجـها الى تـلك الـجـهة
وجـد ، وتـبعه عـسـكره وامتـد . فما شـعرا صـحابنا الـا بـالكـبـسة وقـد
بـغـتت ، فما ارتـاعت قـلوبهم بـل ثـبـتت ، وذاك وقـت المـغـرب وهـم
مـجـتمـعون عـلى الـافـطار . فارغـة الـافـكار مـن شـغل الكـفار ، وكانوا
نـازليـن في مـوضـعين ، مـقيـمين في مـنـزليـن ، فلم يـر العـدوا الـاحـد
القـسمين فـقـصده بـحـزبه ، واطـلق عـنـانه لـحـزبه ، فعـرف القـسم الـاخر
هـجوم العـدو ، فـهـجـروا مـهاد الـهدو ، وركـبوا الى العـدو فدفعوه حـتى
ركـب رفـقاؤهم المـقـصـودون ، واجـتمعوا وهـم المـسـعدون ، وردوا العـدو
شـوطا . وصـبوا عـليه مـن عـذاب القـراع سـوطا ، ثم تـكاثر الفـرنج
عـليهـم ، وتواصـلوا وسـبقوا اليهم ، فاندفعوا مـن بـين ايـديهم ،
والـفرنـج تـباريهم ، وسـاقوا اذقـالهم قـدامهم ، وقـد ثـبت حـفظها عـلى
الـاقـدام اقـدامهم . وما فـقد مـن اصـحابنا مـمـن عـرف الـاربـعة : ونـجا
الباقون وخـواطـرهم لـاجـل اولئـك مـتـوزعة ، وكانت ذـوبة عـظيـمة دـفع
الله خـطـرها ، وهـون ضـررها ، وبـتـاريخ الثـلاثاء عـاشـر المـحـرم رـكب
الـسلـطان عـلى عـادته في نـقل الحـجارة ، والجـد في العـمـارة ، ومـعه
المـلوك اولادهم والـامـراء . والقـضاة والعـلماء والصـوفية والزهاد
والـاولياء . وخرج كل مـن بالـبلد . وجـاء المـدد بـعد المـدد . وهـو قـد حـمل
عـلى سـرجه . واستوى في نهجه . والناس يـنـقلون مـعه عـلى خيولهم .

- ٦١٨٠ -

في قفافهم ونبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك
الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه من الامراء .
فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك
البساط . وكنت قد مضيت فريدي . وبتقريبه اميني . فلما فرغ
وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صلى هناك الظهر وركب عائدا الى
داره . آيبا بايثاره وحسن آثاره . فائزا بسرور اسرارته وخير
اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جريدك تجرد في سرية سرية . بارية رقاب ذوي
الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم
على يبنى . وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثني عشر اسيرا .
وخيلًا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جريدك . وعسكر
القدس وجماعة من المماليك . على ظاهر عسقلان . ووافدت
بتناصرها على الكفر الخذلان . وغنمت ثلاثين اسيرا قيدت في
الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت
على يبنى وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطريق
وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت . فكبت وكسبت .
وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمالها
واذقالها . ثم اغارت على يافا فقتلت وقتكت . وسفكت دماء
وهتكت ، وعادت بالغنيمة والسبايا ، واستغنت بذقودها عن

النساي . وعجز جماعة من الاسارى عن المشى فضربت اعناقهم ،
واجب ذلك للباقيين في المسير اعناقهم ، وعادت سائلة ساليه ، غانمة
غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين .
واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان
يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتنقه وتلقاه
بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى باياله لها
احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة
الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثالث نابلس واعمالها لمصالح
البيت المقدس . وتشيد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على
ولده . وتركه في تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي السرى قوي الازر .
فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار
والاكبار . وقال ماللاكراذ في شعورهم هذا الشعار . فقطع
ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ،
وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفى
رزقه لوفاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان . بل نثبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما وبخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه الحين . وزابه جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرفيقيين ، فالقوهما من الفداثية الاسماعيلية مرتدين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكثير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، وبخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهم اسباب التأنيس ، ثم علقا بركابه ، وفدكا به . فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فياله من كافرين سفكا دم كافر . وفاجرين فدكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم مذكبا مذكسا . تحكم ملك الانكثير في صدور . وولاها الكندهري وعذوبه الامور . وبخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى أنه احق بزوجه . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها . وذلك افظع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلم : الى من يذنب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركة ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكثير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يرسلنا حتى نساعد عليه ، وننزع ما اخذه من يديه وكلاما سمع ملك الانكثير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلّاله باسفار الصبح ، فلما قتل الماركيس سكن روعه وروعه ، ونهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشرى شره ، وكان قد تعصب لمضايقة الماركيس للملك العتيق . فظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسدائه اختلالها . فلما هلك الماركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عايته . ولا يأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جنونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخاطعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقّى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها ملتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقى في ايبيهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركّت وابقيت . وبسالميره والنخائر والرجال ملّيت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسالمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان تردوا مرارا اليها . وداروا حولها وأشرفوا عليها . وأنفق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . بقضهم وقضيضهم . وسعرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم ونابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرّقوه . وحشوه وحرّقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعرقبها . والى النخائر فاضرمها والهبها .
وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عدة
يسيرة . وكانت هذه النوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم
يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتندحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء
يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغي . وذلك في يوم الخميس
رابع عشر الشهر . وقد اندسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر .
ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب .
فخرجت عليهم اسد اليزكية المكنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا
شديدا . وتركتهم بحد الحديد بيذا . وغادرت حبل قصدهم الجديد
جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم تريدا ، وقتل منهم
في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا
مفلولين مذلومين . مخذولين مهزومين . مذلولين مهضومين . ثم
رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين
وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين . فتقدم
السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهم مبارين . وفي يوم
السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية ، بجموعهم الوافرة
الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنظرون .
فأرجفت الالسنه بانهم على قصد القدس على حسب تـراجم
الظنون . وسرت اليهم الاسرايا . وتوالت عليهم البلايا . وظهر
السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ،
وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد . وذوي القوة
والاستعداد . وامرهم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب .
وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم . ويعسفونهم
ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسنهم دفعة بعد
دفعة ، ومن ذلك ان بدر الدين دلدريم كان في اليزك ليلة الجمعة
التاسع والعشرين فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا
من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على
النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا واسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم
السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم في خيامهم ، وألهبوهم
بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبست
اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحز
اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في
طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا
وكسروا واسروا .

ذكر كيسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة
لأهل القدس على الكفر وأهله ، فحضر العسكر خيامه على بلبس
مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيا لمن تأخر عن السابق
اللاحق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم
الاغترار ، والعدو لقدومهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه
الأخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع
من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكثير ركب في سبعمائة فارس
وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع
مخاقل ، ولايدري اي جانب قصد ، ولاي نائب رصد ، وجرد
السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه
الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق
البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا
بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقدم
العسكر المصري فلك الدين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل
والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرف من الفرق
والفرق ، وترك الأحمال على برك أخرى سائرة ، ورأى الأمانة
ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف
بالخويلفة ، والأمانى تغره بالواعد المخافة ، ونادى تلك الليلة انا
جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى
الصباح ، فاغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا
مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصباحهم العدو عند انشقاق الصبح

بالصدمة الشاقة والخدمة الحاقة ، وعاق ابن ذكاء بذكاء بنت
الداهية العاقة ، فجاءهم فجأة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط
الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة
الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بـأمنه
سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما
يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على
وجهه . وربما كـر بـكرهه ، وفيهم مـن ركب بغير عـدة
حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانـه ، وانهمـنـوا نـحو
الأثقال ، فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع
العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية
وعاد معظمها الى النيار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق
الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار
جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة
عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات
روعة ، وعولة ذات لوعة ، فـظنت الغـزون وارجفـت
المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم
وينهضهم ، ومن المال ما يبطرهم ويحـرضهم ومن الآن
يقابلهم ، وبأي عـسكر وعـدة نقاتلهم ، ووصل الجند
مسـلوبين ، ومذكوبين منهمـوبين ، فسـلأهم السـلطان عن
أموالهم ، بما قوى من أموالهم ، وحضهم على الحظ من الأخذ
بثأرهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملا
العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والقتال ، وحلا لهم
ما حاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل
غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار ونيار بكر متباطئة في الاتيان .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي الماضي قد سفر ، وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدي من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جبار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالسير والسرى اسرار ذوي الأسرة ، بساية على صفحات صفاحه نضرة النصرة ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افانوق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدمه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب الترحيب به صـدره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته مائلا ، وهـز عطـف الابتهاح اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل ما في يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولا نوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العرب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي يندشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماأرهجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لأفضله ، ولائذا بجنابه ، عائدا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مـروضـا ماحل بانواء الآئه ، فـاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذره ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخرى حماة والمعرة ، وتكفي المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحـويها ، ويملك حـوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واستقر ان ينزل عن اقطاعه بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد في استخلاصه ، فأبدى على الرضا بذلك وجهه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمادى الأولى . وكتب السلطان بعود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتبه ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرزقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكثير صوب عكا مظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في الذكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة مامنه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ، وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، من يجد في تملكه الامكان ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من

- ٦١٨٩ -

القصد ، ودبروه من الكيد ، أمر الملك الأفضل بمباراة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت وبخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكثير وسار وخلي وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهاز السلطان فرصة الغيبة ، وأوقد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا انتظار العساكر ، ووافي يافا ووفاهما بـ كيـل المنجنيق أحجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ مآبها وكسح ، ووجدت الأحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمّعة ، وانتفاعنا بكل مذفعة ، وامتدأ البلد الكافور بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حمايتها الأمان ليكونوا لها مسلمين. وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا فظن ان الغنيمة تصدقوا. فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر ، على

أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويساموا جميع المال والعدة والخائز
على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

وفقدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احاداً
وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا
الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ما عيذوه
من الاقتراح . وما زال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة
وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكثير في
البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة
من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل
في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولانفع بعد فوات
الفرصة للندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على
توهمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونقضت رقعة تلك البقعة .
ولقد كان ذلك فتحاً عظيماً ، وفضلاً من الله عميماً . فقد امتلأت
الايدي بغنائم تلك المدينة . ووهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد
ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنية . وقتل من
اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من
مقدمي القلعة نيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان
القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها
ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد
بغير بذل المجهود . وجري الامر على الوجه المأمود . وانما وقع
التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد
الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت
بعد الاكتاب . وافلتت وقد وقعت في الحباله . واستقلت بعد العثرة
والاستقالة . وضعف اهرنج من تلك الكرة . وانن نشاطهم بالفترة
وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان
وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه
الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالاسار الوجوه .
وكان ولده الملك الظاهر ايضاً قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر
وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح
يؤس ان يؤسى . وظن تلك النعمة يؤسى . ثم اندمل جرحه . وفازت
قداحه وحاز السني قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر
ولحقت اوائلها الا اخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه
في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهرية . هذا والملك متأخر في المخيم .
بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحل السلطان ونزل بالرملة
والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من اهله بجمع
الشم . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجتراً . والقدر قد اسعد
والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو وذهب الكدر . وتلك البرية
قد حوت البرية . وجمعت العسكرية والكمات الجارية والكمات
الجارية . والاعراب والعراب . والمحارب والحراب . والاجاود
والجياود . والاساود والاساد . والبياض والاسواد . والعدد
والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ما انهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة .
واقاويق النصر على حفولها تارة وبكئها اخرى مستدره . والحرب
سجال . وللإسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن
حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتداء .
والحادثة متصله والواقعة مستقبلة . والنعمة من الله في اجراء
اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عادته في قمع عادته مؤمله . وما
ينقضي يوم الا عن نصرة تتجدد ، ونعمة تتعهد . وجمع العدو يتبدد .
وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخد للسيف من حده بدم الشرك يتورد .
وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه
الايام . من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . ونوبة
مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقدس . ولم
يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهم .
وعادوا خائبين . ونكسوا هائبين . واستأنفوا مكيدة اخرى .

- ٦١٩٢ -

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافي يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافي . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتقلي بنات الخلل الاسد والعرين . (فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) [الصفحات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول . جاءهم الفوئ في البحر . وظهert منهم . وامارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحترف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المذشبة من كاس نجيعها للطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصائبهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم مااصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيدوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعه . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو بـبـركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بنشر نجاحها وبسر ما في اقتراحها سافرة .

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه
قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع
وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لا قبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع
الجحفل وقد حفل . فظهر انه ان لم يهان اقام واستقبل . ولا شر
استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى
مراده . والبحر قد ان أن يمنع راكبه ، ويسئم بالامواج غواربه ،
فان هانتم وطاوعتم تبعته هوائي ، وان حاربتم وعصيتم القيت
ههنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ،
وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولا تفتروا بهذه العساكر
المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحن
اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا
رغبتي . واصيبوا محبتي ، واودعوني العهد ودعوني . ووادعوني
وودعوني ، فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم في
الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ما عندهم من الرأي ، وسرد
لهم الحديث من المبادئ الى الفاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في
قوه ، وفي ترقب نصره مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين
وكرم ومروه ، وقد افنا الجهاد . والفينا به المراد ، والقطام عن
المألوف ، وما تصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل
ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ،
واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل ففهم
الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الاجل ، ومن الف الحلية
كيف يألوه العطل . ورأيي ان اخلف رأي الهدنة ورأيي ، واقدم
بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي . وما لنا بطالب البطالة .
فارغب عن استحالة هذه الحالة . وقد رزقت من هذا الشيء فأننا
الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر
على ما تذكره . والتدبير ما تراه والرأي ما تدبره . ولا يستمر الامامته
من الامر . ولا يستقر الا ما تقرره . وان التوفيق معك في كل ما تعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير اذك نظرت في حق نفسك من عادة
السعادة . واراة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحة . والاعتناء
بالوسيلة الناجحة والاذف من العطله . والعزوف العزله . واذك
تجد من نفسك القوة والاستمساك . ويقىذك يعرفك بالاماني
الادراك . فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت . والرعايا
فانها تعكست وتعالت . والاجناد فانها نصبت ووصبت . والجياد
فانها عطلت وعطبت . وقد اعوزت العلوفات . وعزت الاقوات .
وبعدت عنا العمارات . وغلت الغلات . ولاجلب الا من الديار
المصرية . مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية . وهذا الاجتماع
مظنة التفريق . ولايدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق فان المواد
منقطعة . والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمهدم قد عطب .
والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السعر .
وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة
واستنفاد المنه . وصبروا على المنية في طريق الامنيه . وابوا في
الاقبال على بينهم قبول الدنيه . والصواب ان نقبل من الله الاية
التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للاسلام فاجنح لها) (الانفال
٦١) . وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها . وتكثر في مدة
الهدنة غلاتها واثمارها . وتستجد الاجناد عدتها وتستريح زمان
السلام ومدتها . فاذا عادت أيام الحرب عدنا . وقد استظهرنا
وزينا . ووجدنا القوت والعاف . وعدمنا المشاق والكلف . ففي
ايام السلام نستعد للحرب . ونستجد ادوات الطعن والضرب .
وليس ذاك تركا للعبادة . وانما هو للاستجداء والاستجداد
والاستجاده . على ان الفرنج لايفون . وعلى عهدهم لايقفون .
فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا . وقد شقوا بما لقوا .
ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة .
وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي . واجاب الى ما يقتضي .
وكانت قد بقيت بين العسكريين منزلة واحدة . والعجاجات على
الطلائع متعاقدة . فلو رحلنا رحلناهم . وعلى الهالك احلناهم .
لكن مراد الله غلب . واجيب ملك الانكثير من الصلح الى ما طلب .
فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نسختها ، وعينت مدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح ذوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وما هو لا يزال مستمرا عليه من جهاد العود وقاتله . وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من الذفائس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . وذنوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قاربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فنكصوا على اعقابهم . ونكسوا ما ضربوه من ارائهم وارايبهم . وعلموا عقبى ما جهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ما وصلوه . ونكثوا من عقد القصد ما برموه . وشرعوا في أمر آخر توهموه . ومضوا واستأنفوا الاستعداد . واستنهبوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلاذهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحامية . ورجال الصبر على النار الحامية . ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري
شأبيب الانابيب . مستنفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على
سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجهرا .
الله لا وليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نمت خبرهم . وطار
شرهم . وخيف ضرهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى
مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه .
ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف
عزوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بفزوته اليها
عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته
وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا .
وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها
وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما
صين من الغلال والعدد والمال الدثر للنخر . وطلب أهل القلعة الامان
من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لا يمكنون من الدخول
اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة
مائة رجل من محتشميهم . وكذودهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير
والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما
أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم
للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره
من يأمره برجوعه . ووافقت في البر جحافة حافلة . وتواردت في
الاسراع إلى الصريخ ظلماتنا جافة . فاجرى الخادم على الرهائن
حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى
القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من
دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد
لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر .
واقسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب
الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر .
وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما
زالت رسالهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن
الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هزل له الاسلام

عطف الاغتيال . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لا يجابون إلا بالاباء . ولا تلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمرؤها . وأولياء الطاعة وألبائها . وأشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة المكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للإسلام الأنوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها . وبعثوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الأمان على الأمان التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا عسقلان . وغزة . والداروم . وبينى . ولد . وتل الصافية . وغير ذلك من الأعمال والأماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا بيافا . وعكا . وصور . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولأنوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . وأقروا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى الفرار . وأمورهم إلى القرار . وخلوا بيارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الأوطان والأوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلام أوضارها . وأخذت من أهل النار نارها . وقصبت الفرنج من وراء البحر بيارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزيمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الأمور . وإبرام معاهد المعاقلة . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر أمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر وراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلام متكرها . ولا يرى أن يكون كشسيسة ملوك العصر عن الفوز مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صدقه الكفر فيها خسارة وصدقة الإسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمننا تماما .
وتفريقا لجمع الكفار لشمول النصر عليهم ضامنا . فهي سلم أنكى من
الحرب فيهم . وانها تقصيههم من هذه الديار بل تنفيهم . والى متى
تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفق هذه الامداد
المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على
التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من الوفاء سوى
مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نزلوه وانفقوه .
وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد
أن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم
زاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوة . واستكثر
من نجدته ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة
الاشياء . وتفرق جمع الكفر وبأخ جمره . وأمن ذكره ومكره .
وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضع بسنى النصر
فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عاة سعادته . واشتغل باتمام
الاسور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنج كافة في زيارة
قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما
عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق .
وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي
وجنناه مع الصلح، ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى
الصبح . وكان ملك الانكثير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا
لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك
ويصاب سوله . فقليل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة
الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستتاره . ومن زار برد قلبه .
وتنفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه
الديار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصلون
إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد
الوفود . ولأنبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكثير مرضا
ألهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر
وأقلع . وعجل في مفارقتة وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهو
الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه
وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الآخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر
بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الازواد والذفقات .
والثياب والكسوات . فقبل له لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته
بحجك وعرفته بنهجك . حتى لا يظن بك أمر أنت منه برىء ويعلم أن
قصدك في المضي مضى . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافاق . ثم
هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مرور حبلها
المنتكث . وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهم الامور .
ولا يغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهم .
ومليء البغي إهابهم . فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من
العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ما وقده . فشرع في ترتيب
قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهذيب عمله ومعاملته . وكان
الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهو تركي يقتدى به في
زهادته وحسن سيرته الشيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في
الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا من الولاية
لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما موده ومصدره .
وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جريدك . وقال تهديك في
الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال
الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتول أخذنا بالحزم في تثبيتك

وتأنيك . وترويك وتأنيك . وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل
وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج إليها وتولاها . وأمر
بذقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقطعين ، وكذلك
أمر بذقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة
والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وأن سؤاله عنها باجابة
سؤلهم وسرلهم . فانه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم
رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سمطا . وزاد في الوقوف . وحكمهم
في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب
الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسة . وردها بنية على التقوى
مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلاميها وطرافها . وأمر بان
تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمار ستانا
للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامراض على
اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة
الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القاضي
بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبر
الاحوال . وأقام بعدله الاعتدال . وأفاض الفضل والافضال .
وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على
بركه للداوية . بالهمة الروية والعزيمة القوية . ونزل على نابلس
ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصالحها المتوزعة . وكثرت
الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق
الرنق الى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر
يوم السبت حتى كشف مظالمها . واضحك بالعدل والاحسان
مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمات سننها الضائرة .

وأصفي بها شرعة الشريعة . وأصفي ظلال الرعاية للرعية في
مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الأحد عند عقبة ظهر
حمار بموضع يعرف بالفريديسة . ورتعنا في مروجها الانيسية .
وأصبحنا راجلين . ونزلنا ضحوة على جبين . وهناك ودعنا
المشطوب وداع الابد . فانه انتقل بعد ايام الى رحمة الواحد
الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال .
ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة الى بيسان . وأزال حلول
السلطان عنها البؤس واشاع الاحسان . وصعد إلى قلعتها
المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت
في حضانة الحصانة . وكان جبلها لوثوقه مستودع الامانة .
والصواب بناء هذه وتخریب قلعة كوكب . ولم يزل حتى بين كيفية
بنائها ورتب . ووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهر ظهرا
وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها وصبوب .
ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك
لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر . وتلقيناه بالبشر
والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتوافر الانداء . وتواتر الانواء .
ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصعد
السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخال . ثم سار يوم الجمعة
على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضبعة يقال لها الحبش . وهي
عامرة محتوية على سكانها . كأنها العش ، وسرنا منها وخيمنا
على مرج تبين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . وأصبح السلطان
حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتليا قلة قلعتها ولاسباب
اختلالها محيطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته
مذوطة . وسداها بسداده مذوطة . ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا
على قلعة هونين . ونزلنا من الجبل . وبتنا على عين الذهب
 واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الأحد وخيمنا بمرج عيون . وجلس
السلطان على عادته معنا في تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت
العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسر . وقطعنا
في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل
وادي التيم يمنا على الضياع والقرى . وعرسنا على مرج تلافياثا

- ٦٢٠٢ -

مقابل مرج القنعة . ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة . ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلافيا فخيمننا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنة باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الأربعاء وخيمننا بناحية قب الياس وقد اصبحنا إلى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعماء . ولما جن الليل جمعنا بالخضرة السلطانية الانوار . وسرت اسماعنا منه اسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الأسفار ، ودخل السلطان يوم الخميس إلى بيروت ، وانجز بالوصول إليها وعدة الموقوفات ، ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والإيداع .

ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول بيمنند
الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر
سامة

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليهما عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واستقبل الأوصحاب بصدر رحيب وظل خصيب ، وسماحة أريب وسجاجة لبيب ، وفتحت الأهرام على غلاء الغلات بالثغر ورفع أغلاقها ، وسد بها وما قيد إطلاقها وقدرى واضاف ، وادنى القسطاف ، واصفى العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألفاف ، وفرق على الصغير والكبير التحف ، واحضر للسلطان ولكل من معه الطرף ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود وافنى ، واعطى الخيل والمماليك والجواري والملابس ، وبذل النفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابحار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جريا

- ٦٢٠٣ -

على كرم الشسيمه ، ومن الجـوخ الأفـرنجية والثياب
البندقية ، والهنايات الفضـية والأكواب الجينية ، والسروج
واللجم ، والأكسية والحـزم ، والمهـاميز والملايط
والغفافير ، والعروض والدراهم والدنانير ، ففرق من ذلك ما
جمعه • ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفع . وما انفصل عنه
الاكل مواصل بشكره ، مساجل امثاله بذكره ، مضوع كل ناد
للكرام بنشره ، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب
واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصال ، وذلك في يوم السبت
الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابرنس الأنطاكي قد
وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمل العصمه . داخلا حـكم
الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام وما ارتحل ، وانن للابرنس في
الدخول ، وشرفه في حضرته بالثول ، وقربه وأنسه ، ورفع
مجلسه ، وأظهر له البشاشة والهشاشة ، وسكن من روع روعه
الحشاشة ، وكان معه من مقدمي رسانه اربعة عشر
بارونيا ، ووهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجـزل له ولهم
العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة
بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصحابه بمبار ، واعجبـه
استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فلا جرم تلقاه بكل
احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافق مراد السلطان انه
بمراده وافقه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرته
مذكورا ، محبوبا بالمنح والمنن محبوبا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بسات بالمخيم على
البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله للمؤانسة والامتناع .
وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهزنا منه اعطاف الآلاء ، واستدنيينا
قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهل
والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه
ومسكنه ارتياحا والتمنا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر
وبتنا على مرج يبوس ، وقد شرح الله الصدر واطباب
الذفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشق من سبق سبق للتلقي
والاستقبال ، واظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء
والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين
الينا مسالكها ومنازلها ، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا
بالعراة ، وجرى المتلقون في التحففي بالتحف على
العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشق وقد اخرجت
اثقالها ، وبرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخرج كل
من المدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاءوا استبشارا وفرحا
وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد
طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الاعين ، واقرت
بفواضله الألسن ، وزاعت اسرار السرور ، ورقت حبرات
الحبور ، وطابت الأنفوس ، وغابت الأبؤس ، وانجلت المكاره
وتجلت المكارم ، وافترت المباسم وهنيت بمواسمه
المواسم ، وتهويت التهاني ، وهيت الأمانى ، وغنت المغاني ولدت
المجاني ، وسفرت المجالي ، وظفرت المعالي ، وتحلت
الأحوال ، وتملت الأموال ، وراج الرجاء ، وارجت
الأرجاء ، وفاض الجود . واستفاضت السعود . وعم العدل . وتم
الفضل . وشرقت الافاق . وأفلق الاشرار ، وكرم
الفضلاء ، وفضل الكرماء . وحل في القلعة حلول الشمس في
برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في

موجها ، وسلكت المناجسح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها
بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على
وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيتها ، واستجدت عادات
انجاز عادات الجوائز لاستجديتها ، ويسر اليسار لاسعاف
العافي ، وتمت على السن الأنام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان
في دار العدل فأعدي المستعدي ، ولبيى المستدعي ، وأجاب
واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر
خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى
طبرية ، ولقي من السلطان اللطاف الخفية ، ووصل معه الى
دمشق واقام الى ان خلاص اصحابه من الأسر ، وتوجه الى
مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في
اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله
وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسل الممالك
الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه
ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر
الربيع واقتاراه ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاب سرح سلاح
اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وانتلاق انواء
اذواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق
اشجاره ، وانفتاح كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه .
وانتظام مذثوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه
سفوره ، واجتماع لقيف اعشابه ، واستتماع حفيف
اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق
شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شمائله ، واقتبال
قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صباه ، وتورد وجنات
جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتذسم ضمير ضميراته ، وتصور
خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار أس عذاره ، واحمرار
خد جلناره ، وتشذف اقطار النادي اقراط قطار الندي ، وتفوف
حافات الوادي بالوشي الوشييع من حول الرباب حول الربا ، فإذا
طاب الذسيم وذسم الطيب ، ودعا البلبل ولبيى العندليب ، وتعطر
عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجنى اللجيني . وحلى النضير
النضاري ، وبقل العذار البنفسجي . واشتعل الخد الجلناري
الناري ، ونجم في الروض النجم السمائي المائي ، وابتسم الثغر
الاقاحي ، وتذسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري
الشجري ، وتأرج الذشر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتشى
الذش الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشهاب ،
وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت ، الصبا في
محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الأصحاب
الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الأيمان كل
مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت
القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت
الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض أهل الجدد وجد
النهوض ، وفاضت المنابع ونبعث الفيوض ، وضرب السرايق
السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن
يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمثل ، والجـ
يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي . والوني يعزل ، ويعم العدل مع
اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحدث
نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان
مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه
والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجال قد اشتعلت
رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرت على اعناق اطـواها
جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب
ناكت ، والهتوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن
حزين ، والاسماء سماء ، وللشاص نشاط ، والاسحاب
حساب ، والبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، والبرد من ثلجه
برد . والمطر في نهجه طرد ، والغيث عيـث ، والوحد ريـث ، وكانون
قد اكن الربا * وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة
مشبوبة ، وحـدود الذكـب مـذروبه ، وخـدود التـرب
مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتهز في العمر
للفرص ، مبتز بالبزاة والصقور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يدني اجل الحجل
وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهيم ينقض
انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، وأكثر الجالوس
بدمشق في دار العدل ، واغزر لنتجيه در الفصل . وحكم
وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل
اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووافد
وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقنى واجدى واسدى ، وأولى
وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم
الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل
الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وما كان احسن الى
الحق اصغاه ، وأسرع للبطل إلفاه . ولكل ذي فضل منه حظ .
ولكل ذي حفظ منه حفظ . ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق
الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سبق ، ولكل سبهم عنده
سبق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم من جوده
أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه
جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل
نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظام ري ، ولكل حاتم ورد
هني ، فما أسح مزنه ، وما أصح وزنه ، وما أسمع يده ، وما أوضح
جده ، وما أعلى جده . وما أجد علاه ، وما أجدى كفه وما أكفى
جده ، وما أكثر حيائه وأغزر حياه ، وأرج رباه . وأبلغ محياه .
وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن
مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف
شعبان .

كان له عشرة من البنين قولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لناد
امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل
بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى
ما في يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد
استحكمت قواه . واستطال هـواه ، وهو حينئذ متولي
سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس ، وصور له انه يريد ان يستولي على الملك ، وينفرد بانتهاج المسلك وانتظام السلك ، وساعده صاحب ارزنگان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأنن السلطان ان يقصد دياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فاستصحبه صاحب ارزنگان ، وأوقع عليه في الطريق التركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ، وأنه عن حسن بن غفراس سلا ، ساق اليه ، وأخنى عليه ، ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز حوزته ، وقوي بعزته ، وعز بقوته ، وقال لوالده انا بين يديك ، واشفق عليك ، وأنفذ أوامرك ، وأوفر مآثرك ، وقتل أمراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لا يشتهييه ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفري ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى ، وقد مضى حديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهم في وهن الاسلام ، واستصحب معه والده الى قيسارية واقسر اخيه نور الدين سلطان شاه وحصره ، وظهر انه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد وصف ، ووقف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بالسلطنة ، وبقي قليج ارسلان يتردد في بلاده ، وفي ضيافته أولاده ، وينتقل من بلد الى بلد ، ومن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقواه وأزره وضأفاره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله وجاء به الى قونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه من المرض الثقيل في خفة ، حتى دخل المدينة وقلعتها ، واجتازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلفهم ، واستمالهم وتآلفهم ، ثم أظهر لهم وفاة أبيه وأنه وارث ملكه ومتوليّه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه أخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة والنبيل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام ، وبؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها إليه ، وعول فيها عليه ، وما برح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد أمرهم إلى سداه ، فتردد بينهم سنة . ولم تزل مساعيه مستنجة مستحسنة . وعاد ووصل إلى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل إلى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمس مائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي متربعة صباحها لاسفارة ، ورسد الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، وأسرار المنى بالمناخ ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وأبداء السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشديد الدعائم وتقدير العظام ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجح الأنام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

- ٦٢١٠ -

الفضلاء ، وموالاة الأولياء ، ومصافاة الأصفياء ، واعداء
الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخرج عن حكم
الجلد ، وبرز الى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر
يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معه
أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة
الشرقية ، وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ، ثم عاد يوم
الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافق ذلك عود
الحاج الشامي فخرج للتلقي ، وسعاداته في الترقى ، ولما لقي
الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاتته من الحج ما تمناه ، وسألهم
عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم
من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجاورين والفقراء ورواتبها
وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضح ذلك المنهاج ، ووصل
من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقاه بالاكرام وأنزله في كنف
الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر في مجلس عادته ، ومجلى
سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من
الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحدثه ، ثم صلى به وبنا
إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا بأحسانه مغتبطين ، وبامتنانه
مرتبطين ، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ، ننتظر
خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضل
ان يجلس موضعه على الطعام ، فجاء وتصدر وترجع في
دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من تلك الحال وتفللنا بحد
ذلك الفسار ، ودخلنا اليه ليلة الأحد للعياده ، ومـرضه في
الزيادة ، وتوفي بكرة الأربعاء السابع والعشرين ، ونقله الله في
دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم
بغروب شمس فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادي ، وفاضت

الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الأفاق ، وخاب
الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الأمن وخاب الأمل ، وقنط
السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، ونكر المعروف ودفن
بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام
صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده
وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لأفـرق بين الدجى
والضحى ، ولا أجد قلبي من سقم الهم وسكره صبح
ولا صبا ، وحالت حالي وزال ادلاي ، وبطل حقي واتسع
خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واضلت ادواء الدواهي
وبقيت المعارف متذكره والمطالع مـكـفـهـرة ، والعيون
شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسه ، والوجوه عابسة
وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الأنسة
خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف
منهجا ، وظن الغنى عني ، واختلف في ضمن الأحلاف بي
ظني ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر
بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأنيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي
وفقرتي ، والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلي
دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب
ووشعتها ، وجلت الرتب ووسعتها ، وهزنت اليراعة * وأغزرت
البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة
صغيرة ، وأبقى له مآثر أثرية ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في
خزائنه سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما ، فانه كان باخراج
ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مفرما ، وكان يجود
بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزائنه بالحوالات عن
الوصول ، فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولا جبهه أحد بالرد اذا
سأله ، بل يلف له كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شيء الساعة
ومفهومه أنه يعطى وأن كان يبسطى . وإنه يصيبه بالذوال
ولا يخطى ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضل نور الدين
علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي
حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة
العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الألاء وإدناء الأولياء ، وخلع
على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود
وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ،
ونهبوا وما أبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع
اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها
واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والبأس . وثبت القواعد من حسن
السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم
باسم الزكاة . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجار
وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل
وعقد ، وبرر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر
ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من
اعوز . وبرز وبرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتائب . وفرض
المواهب . وأجرى الصدقات . وتصديق بالجرايات . وادر وادار .
واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأبنى وأبعد . وقدم امر بيت الله
المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة
آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل .
وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جريك على ولايته .
وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل
وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

ففصل ووصل . وأحسن وعدل . وقضى وحكم . وامضى وأحكم .
وأحضر نواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقي إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوق من الضياع . وأمر بتخليده .
وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب .
ومحبوبه من الرغد محبوب . ورعى في عهد الوالد . واضاف الطارف
عندي من العرف الى التالذ . هذا وأنا غائب . وبرائي رائب .
ولسواء كاتب ونائب . وما احوجني في النوال الى السؤال . وأغواني
عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلي الى تسيير القصائد
والرسائل . وما اغرب بدار فواضله حلول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حائثين . ولعقد ايمانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب .
وجهاز جيشا جائشا . وبعثا لعشار الدولة ناعشا . في كل مقدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى
دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمد أعود والعود أحمد .
وسياتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابو الحسن علي ولد السلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفذت في الرجال نخائره . ورتب الأمور اجمل ترتيب . وهذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السير السلطاني بذوره . واسفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدا وملا بالبشر المتبلج

- ٦٢١٤ -

والذشر المتأرجح الملا . وهذب وانهب . ورغب وارهب . ورتب وربت
واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد
المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ
وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بجميته سر حمايته
واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر .
وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس .
واشاع البر واعاش . واشبع الجياح وروى العطاش . واستخلص
ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض .
وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط .
وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير
اللا حظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ .
وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . وامهى الرواعف . وحقق
الحقوق . ورتق الفتوق . وضم المالك ونظم السالك . وجلس في دار
العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد
وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى
القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بفضارة العطايا .
واستفاض بطهارة السجيا . وأوي اليه اخوته . وضم جماعته .
وجهاز اخاه المالك الظافر مظفر اللين خضرا . واصحبه عسكريا
مجرا . وانهضه لانجاد عمه المالك العادل . فانار في فضاء الفضائل .
وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع .
وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة
الافضلية داخله . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة .
وصاحب حمص والرحبة المالك المجاهد اسد اللين شيركوه بن محمد
ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . واسر صدقه ونشر صداقته منيها
مشيعا . فأحلى له المالك الأفضل جنى شهيا واحله جنابا وسيها .

وعقد له حبا الحب ، وحياء بكل ما سافر عن سفور مدوبة القلب .
ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعابك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن
فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الأفضلي تابعا .
فأبناءه واجنائه . واحبه وحباه . وأسناه وأسماه . وآواه وأساه .
فتأكدت بينهم القرابة المتشعبة . وتشبكت الخدمة المنتسجة .
وتمهدت الأصرة الممتزجة . وتفتحت أبواب الألفة المرتجة . وتوافقوا
على التوافق . وتصادقوا على التصديق . وتعاضدوا على الأخذ
بالتساعد . وتعاهدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب واعمالها وحصونها ومعاقلها . وكرائم البلاد
وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين ابو الفتح غازي . وهو برجاحته
وسماحته للطود والجود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقطارها
واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحماتها . وبماء العدل
رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهزاعطاف العطاء . ورحب
لورائه . ورواه رحابه . وسحب بحيا الاحياء سبحانه . وابرت
مبراته . واثرت مآثراته . وسع وصح غيظه وغيائه . ورعى رعيته
فشبع ورويت ظماؤه وغرائه . وزخرت امواجه . وزهرت بثواقب
المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صبا صباحه .
وعزت بسيرته كتب التواريخ . وعزى قلمه وسبقه الى عطارده .
والمريخ . وسعدت وفوه . ووفدت سعوده . وأثر من امره النفاذ .
وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبرار . واقصى الأشرار . وخص الأعرزة
الخواص . وتمهد لسلطانه الأساس . واطرد لاحسانه القياس .
ووجد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشا الى جدواه المجتدي
وعاش . وفرض الفرض . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى
القروض . واستدنى من المناجع شاحطها . واستدرك من المصالح

فارطها . ومالك خلاق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع .
وخرق ورتق . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والذفاق ودمغ . وشفى
واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب
وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم
الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن
الله . وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر
ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكاييد وأوهى . ووفى للوفى . وصفا
للصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك
الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . وبخل
في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهو ناصر الدين محمد بن
الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب
وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه .
وهمت همته بالزيانة وسمت اسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه
ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى
الى حصنه بالكرك للاستراحه ، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية
المتاحة . فناهه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب .
فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتدفيس كرب الحادث
ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا
لبلايه بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان
جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما
ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى
الفرات . وجد مما خافه دلائل الفتريات . فأقام بقلعة جعبر . ولم
يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة
المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووهى برعاياه الرعاة .

واستتاب في؛ ميا فارقين، وحاني، وسميساط، وحران، والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعهم . جمعوا لجمعهم وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخذفوا وعرضوا وصدفوا . وما كفاهم ما هم فيه فهموا وما كفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهاكتهم . وذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمامات وما قدر الله لجمعهم من الاشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في النوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنصار . وضم اليه من ماريين ، ماريين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش . فبينما هو في اتم غرور . واذم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . وانهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدركه داخل الى مفتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له ونزله بشهادته الى جنته العلية ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكان ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادىء بالخروج متولى ماريين فانه مرد . وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال ماريين . حين كان اهل عليه ماريين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه . وأضافه الى نائيه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجدفل الحفل . وأضافه اخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجييين . وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مراننا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنفرهم .
ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد .
فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب .
ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتتم واهتم . وجمع
عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعبك .
واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين
خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل
لقدومه منتظر . واما المواصله فانهم ما اسرعوا بل ابطأوا ،
وما اصابوا بل اخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية
متوافيه . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجنبوا وتجنبوا وكانوا قد
وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر
حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبنوده . ومساعديه وسعوديه .
وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب .
وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب .
وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر
فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال
اليزك تتناجي وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره
المكتوم . تفليل غروب القوم وتقليلهم . وحات تأملهم وخار تأميلهم .
وجفل رألهم ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك
صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر .
واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا
ان يتبدل ما الم به من ثقل الم بخفه . وقهر عماد الدين راجعا ولن
وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماربين وتذرع . وتشفع
بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفح له عما
مضى . واجري على القاعة السلطانية معه . وكان قد ضاق به
الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان
القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى
الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلال الضو . وعلا النو .
وأتى الملك العادل الخير بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات .
في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث
القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم
الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك
العادل منتصفا رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت
اليدين البيضاء فيها للملك الظاهر على ما ذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد
الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى
نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم نخائرها . فجاءت الرسل
العمانية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسنى السلام عن
الصباح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم وما داري .
فبسط عذره . وقبض ذعره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل
وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه
وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب اليه ان
اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب
حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعته . فانه تولاهم بعد بكتمر
المعروف بالهزار بيناري . فلم يرضوا باياله لخلاط ولم يروه كفوا
لتلك الهدى . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا
الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامتد الحصر يمتد . فعاد الى
حاران والرها . واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع
امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في آخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال النين النين حالوا عن
الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن
خلق التلافي الى الائتلاف . وبددوا بالانتظام في سالك الفدر شمل
الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم .
وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا
زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي للخدم من انعام امير المؤمنين صلوات الله عليه
ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها .
واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصيبوا اذ لم يصيبوا
ببصائرهم وابصارهم . وبخلوا في دائرة السوء وخرجوا ممن
بيارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب
ماربين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحاسدين الحاشدين .
ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العادل
سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السداد .
واثقا منهم بالواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق . وهو في
خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه
معشره . ولم يصف لدفع الشوائب وردع الذوائب موريه ومصدره .
فاما عرف نكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجموع .
وحنت على قلبه الضلوع . وحننت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بذو
اخيه في الجنود . وتوافوا نجدة ساعدت السعود . وامد الاخ الملك
الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصار المتناصرة . وندب
الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضه . وسار معه عسكره الذي
بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القوم . وانهم من
حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . وانفق في
العساكر وجهزها . وذكر عدة النجدة فانجزها . واهتبل فرصة
الفريضة وانتهزها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت
السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . وماجت البحار ،
وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز
اياته في اهل الشمامات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ،
وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ،
وحطه من بقاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على
اعقابهم ناكسين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارايبهم ناقسين
واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعابة خارقة . وقدرة
لاقدار الاولياء للسعانة خالقه . وقتلهم وماقاتلوا ، وقابلهم
وماقابلوا . وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتفكرين .
وعلم صاحب ماربين انه اخطأ وما اصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ،
فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ،
وأجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه .
فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر
خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ،
فعبير الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي
وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله
حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وبيعتهما
المستحقة . وهذه بركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة
وبيمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها .
وما السعانة الا لمن شملته سعودها . وما الجد الا لن وصله جودها ،
وما الكرامة الا لمن كرمته عنده بالوفاء عهدوها ، وما العصمة الا لمن
لزمته في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طفتكين بن
ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على
جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع
الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى
اخيه . وهو غير عالم بتوقيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير
ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من
همه . والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ماالم .
وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه
المكاتبة معربة عن النبا العظيم . والخطب الجسيم . والرزء الهميم .
والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب
الساحت . والفجيعة الفاجية . والذكبة الناكية . والطارقة الطارية .

واللمة المؤلمة والبلية البارية . والواقعة الرائعة . والصدمة
الصادعة . والحدثه اللافحة . والروعة الفاحة . والغمة التي غامت
بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام .
فقد عدت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور سدادها .
والامور سدادها . والعيون قررتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها
والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه سفورها . والصدور
انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضلت
العلياء محبتها . واهتدى الضلال الى الهدى . وأقوى نادي
الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنن . وأمرت
مجاني المنى . وخفيت مناهج المناجح . وعطلت مناهل المنائح .
وعميت مذاهب المواهب . واظلمت مطالع المطالب . وارجت ابواب
الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمست
زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضطربت الدهياء وبطلت
مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهاد .
وتفجعت ممالك البلاد . وأخلفت عدات الاعداء على الاعداء .
وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجراه الله من قضائه
المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر
روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه .
فقد عظم الخطب وجل . وحل عرى الجلد حين حل . وثلث غرب
الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضلوع . وبست
حبيل اللاجئين . وشنت شمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية
حبالها رثا . وحبائوها غثا . وعقودها انكاث . وسهولها
أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومواهبها احداث .
وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغببتها
ندم . ووجودها عدم . وبقاؤها فناء . ونعيمها بلاء . وراحتها
عناء . ومالكها هلاك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حرب
وصلحها فتك . ووفائوها غدر . ووفاقها مكر . وعرفها نكر .
ووصلها هجر . وخيرها شر . ونفعها ضر . وجبرها كسر .
ومتاعها قليل . وباعها في التناول طويل . ومالعتها مقييل . ولا في
ظلمها مقييل . ولا رب فيها لأريب . ولا الباب فيها للبيب . فان

ظلها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيتها خدع . وحليها عطل . وسعيها زال . وإجداؤها إجداب . وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقدها مفسوخ . وعهدها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبار . ويسارها إعسار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شعث . وشيمنتها عيث وعيث . وقرابها تراث . ولاسكنها اساس ولاساكنها اثاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولامكرها في جد مكرها جد . والسعيد من استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الآخرة من الأزواد . ومن نظر اليها بعين القلى . وعرف أنها دار البلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الأعراض عن جدواها للفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عاذفا . ومن ملكها أنفا . وعن مالها متعاففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين . وخصه الله بتأييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى . (ونهي النفس عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) (النازعات : ٤٠ - ٤١) ووقف حياته على أحياء معالم الهدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . وأشاعه سنن العدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضل والافضال . حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الامال . واخلص له عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقته وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان لله كان الله له) . فلا جرم انزل الله له الملوك الأعزة . وهب لاعطاف الدولة التباهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقدار . فزال عن مشاريع الشريعة الاكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك . ونهج في نصره الدين نهجا أعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها بيارها وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معاقلها . وطال بحقه على

باطلها . واقصى عن المسجد الاقصى مـدنيـه . وازال عنه ايدي
غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعد
عنها اجناس الانجاس . وقهر الكفر وخذله . ونصر الايمان
واخذه . واحيا للكرم كل سنة حسنة . واستمرت محاسن ايامه
سنة بعد سنة . وتعديت بعدله الجوانح . وتذلت بيباسه الجوامح .
ودانت وبننت له الممالك القاصية . واذنعت اذنعت لحكمه الاماني
العاصية . وملك القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص
والعوام عارفته وعاطفته . ونفذت في الشرق والغرب مراسمه .
وقامت بالحمد والشكر مواسمه . ووفت بامل الداني والقاضي
والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه
امله . وولى في كل اقليم من يعمل له في العدل والاحسان عمله . ثم
توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر .
صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصر . كاسيا
من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مرتويا من
صوب الصواب . مبهيجا بنصرة النعيم . متارجا بعرف نسيم
التسليم . وما كان ابهج الايام بايامه . والاعصار بمزايينه .
والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والآفاق بسني احسانه .
وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده .
فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السماح فلا جدوى ولا جنى .
وغاض البحر فلا غنى . وهو الطود فلا ثبات . وذوى الروض فلا
نبات . وهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جدد . وغلب الكمد
فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولا قوة ولا عضد . انا لله وانا اليه
راجعون . ولأمره تابعون ولحكمه طائعون . ولا راد لارادته .
ولا صا لمشيئته . ولا صا لمصادف قضائه . ولا صارف لصرف
بلائه ولقد كادت الانوار تغرب . والانواء تعذب . والمنابع تغور .
والصنائع تبور . والاحوال تحول . والاهوال تهول . واضواء
المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق .
وازهار الروض لاتؤنق . ومعاقدا لاسلام تهى . وميامن الايام
تنتهى . اولا ان الله تدارك الارماق بالطافة . وتلافى الامال
باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على الذفوس . واجرى
الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من
استمرارها على الالئام . واستقرارها في النظام . واستدرارها
بافويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شمسها من
الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد اصولها في
منابت النمو . وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار . وانفتاح
حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة
واتحدت . وانتظمت الالفه المتبدية وتاكدت . وسكنت القلوب
الراجفة واذست . وسكنت الالسنه المرجفة وخرست . وناارت
الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجمة والافكار المنقسمة .
وزاد الرونق وزال الرنق . وانجلي الفسق . وتجلي القلق . واستقامت
الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية
والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب
ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر . وشدد
الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من
الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة .
والتابعة والمشايعه في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في
قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتم . ووصل
المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع
على عانة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من
كل شاغل باله ورفه اسراره . وراح افكاره . وما في الجماعة الا من
خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع .
فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلفت هذه الدولة بل
استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفت في حال الصدمة
الاولى وبدا الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج
بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع
مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا
على الصلح الحرب . بل طالبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا
اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم
شملت . ووصاياهم نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق
الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكاييد الحاسد
الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل
الرافة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت
قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه
وعده . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي
دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم . وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة
المعظمة وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف
سنيا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه
بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم
حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان
العزیز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب .
ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل
الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء
العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا
والتحف والخيل العرب ما استنفذ وسعه وامكانه . فما تهيأ مسير
الرسول الا في اواخر جمادى الآخرة . حتى حصل كل ما اراده من
الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله .
حتى لا يظن انه انفرد برسوله . وقصد مداراة اخوته . وفضل بفضل
نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير
المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني بانشاء الكتب
وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقديرها .

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهاال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو وقبة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللارض متقبل . وبالطاعة مائل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صانع . وهو يمت بما قدمه من الموات . واسلافه من الخدمات ونخره نخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذ عاصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ا زمن الازمات . وسلوة من الالهي واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وفاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاقا وان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واواه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه آية الآياه واللم باللم الامل . واحال الحللى الى العطل . وحالاً عن النهال والعلل . وانهب بهجة الايام . واشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشيت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على أنها ماشيت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأثيره . وأخرج أهل الذفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلثما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الأقوى الأوقى . فانه لا يحتفل بحقول

أخلاق أهل الخلاق . ولايتحلل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ
لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله
بأن الوالد السعيد . الشديد السديد . المبير للإشرك المبيد . لم يزل
أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستقيما
في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز به
المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشغل الديني الذي
يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفئة
العابية . وكم فرض سنة أعلنت سناها للمجتلين وأحلت جناها
للمجتبين الدعوة الهابية . ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس
ولاياته الأولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقواليم
أقاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطفيان في الممالك بممالك
الدار العزيزة وعبيدها عبايد، وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها
شآبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها
أنابيب وأسعرها من كمة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها
بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر
النصر وتضوع . وعقوده تروق في سالك الملك وتروع ومصر بل
الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة، والانجاد والأغوار في نظر عزمه
واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج
عزماته . وتوفره على العبودية لملك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر
حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظاهرا
على العدا . ناصرا للهدى معلما معالم العلى . محيا مواسم
التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضة مديما بأعباء الطاعة بقدر
الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر
طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلابان وقصم
اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد
الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على
يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة
ناحجة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة، وسيرته حسنة
وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة . وسيرته ظاهرة . وختم الله
له بالسعادة، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرايه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه
حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محسوط . ووزره
محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه
بحفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب
مرتبة . والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال
حالية . والأعمال راضية . والمصالح مصونة . والمناجح
مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد
متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب
مصدودة . وأصول الدولة ثابتة . وفروع الدولة نابتة . وماترك
أمره بعده غير مستقيم ولا نهجا غير قوي ، ولا خلف لمن خلفه
ما يحتاج الى تقريره وتقديره . ولا أبقي لمن بقي له ما يفتقر الى ترتيبه
وتدبيره . وما خرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية
داخل ، وبمتجرها الرابع الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية
الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستعداد
بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على
اساس وصايا . ولا مضى العوائد الا على قياس
سجايه ، ولا أبرم الا ما عقده ، ولا أحكم الا ما أكد . واقتفيت آثاره ،
واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . وأتمرت في انتمار الأوامر
الشريفة وأوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان
الله ناصره . وما يفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من
الفخار . وبعثه من الآئها الفزار . ونعشه برفعة من
العثار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولا يتسم بالملك الا من يتسامى
بأنه لها مملوك . ولا يوصل الى السعادة الابدية الا مسلك الى
رضاها مسلك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالماليك
أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار
على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على
الرعب . مغلول بقيد السلام عن الحرب . فان الله أجرى المشركين
مع كثرتهم على حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية
بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون
اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في

- ٦٢٣٠ -

غرائزهم مغروز ، والعبد أخذ بالحزم ، عائد بتأييد الله في العزم متيقظ لمخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل ما يفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهره المواقف المقدسة في أموره . مستبشر وجه وجهته منها بسفوره . ظاهر بقوة من ايدها وأياديه قوي بظهوره . مدد بماله من الموات الأكية . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبولة . والذرائع الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وان فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص ، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والدول . عول على القاضي ضياء الدين في المثل بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاه الى مناجح آماله . والسفارة فيما يسفر عن صبح المرشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالابلاغ ، وملية باشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه اليه . واعتمد في استنجاهه واستنجاهه عليه . ولا زالت ايادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جبيرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفاً في سبيل الله بالانفاق . موقوفاً عزمه في الأعداء بانداء الآجال وفي الأولياء بأجراء الارزاق . وماعقر في سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض ماله بمثله . وزاده من فضله . وحسب ما وهبه من الخيل العرب والأكابيش الجياد ، الحاضرين معه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذنزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفضالهم بالاسلم في شعبان سنة ثمان

- ٦٢٣١ -

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وحجر ° وأكديش طمر وذلك غير ما أطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال ° ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه ° وماحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده ° فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعر في الجهاد اجتهدا ، وكان لا يلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب بـه نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخالواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزل والهزل . ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان مداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالأحكام الشرعية . والأسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الأخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . نقيا تقيا . وفيا صفا . يبغي ولا يفضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولا صد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب أملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشتغلا بمهمات . فلما وصل سأل عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجؤا والحووا . وضنوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صدون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

- ٦٢٣٢ -

منقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الف دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفرى معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين . أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولا ذكرها . واره كأنه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما اذكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صافوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاء والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما بنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة الاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة الاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر أثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضممار يقول : قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار .

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبعث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظروكم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسامها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عنة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

- ٦٢٣٣ -

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعنيت بهم خالقا مني ورسمما
فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت أفكر وأردد النظر اليه وأكرر فسألني
ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلبي بقسمة
اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى
به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه
ريها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون
في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في
انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقعات
بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها
ويمضيها . ويضع علامات فيها ويرتضيها . واذا الفى توقيعا بخطي
علم فيه . ولم يقف بذشره على سر مطاويه . الفا بما الفه من
صحبتي ومناصحتي . وكفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتي .
وكان يأمرني باجابة كتب الملوكة واصحاب الاطراف عن كتبهم في
حالي سلامهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب
متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتهمة ، فاذا قلت
له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما
تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه
الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني
مرايه . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فأتي بمدانة الأغراض
ومداواة الأعراض وموازنة الجواهر والأعراض . والتمييز بين اهل
القبول واهل الأعراض . فكم اصلح قلبي بينه وبين من
عاداه . وراض الجامع من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يفضي للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى
الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان
مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد .
ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فانكر حل الحلية . وادعى
حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والمانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتي
انجع . ومدد مدادي انفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسلاح
قلمي أجذ وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الا سلامية
الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلامي من جوامع كلمي . فقال
ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا
محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا
وجه مع هذا الوجه المحال لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتب بعدها
عنده الا من دواة الشبه . وتجذبت طرق الشبه وتركت المحلاة
مخلاه . وعادت الشبهية مجتباة مجتناه . وكان محافظا على
الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفروضاتها
ومسنوناتها . فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من
ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به من
حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنبيا للآثم . وكنت للآثم
اياهم يقدمني اماما في الصلوات . ومستشارا في المشورات . وكان
يأخذ بالشرع ويعطي به . وينفق من حل المال وطيبه . ويجود
بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود . فما تتجدد جدة الا
ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجم مصفيا . ولم يزل
لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبول لمنطق
المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل
الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف ولا يتطير
ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم توكل على الله . وأقبل على
محكم امرء واعرض عن مظان الاشتباه . فكم فل سفه ذي
الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . وما زال ناصرا للتوحيد . قاهرا
جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سني السنه . مستحليا جني
الجنة . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا
يدين اهل التنزيه . ويقصي اهل التشبيه . ويديم استفادة فقه
الفقيه . واستزادة نباهة النبيه . ووجاهة الوجية . فالعاملون في
عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

- ٦٢٣٥ -

في برسعيه . والاسلام في حماية حميته . والدين في ادالة دولته .
وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومادة المودة له وافية بوفائه .
وقامت بعده طريرة طريه . ومن العار عريه ، وببر البرية من
الشائبات والشائعات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه .
فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضلها وظاهرها . وفخرت
بمفاخرها . ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتأرجت
بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها .
والسماء في زواهرها . والحمد لله مجري الأقدار ومصفي
الأكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الأبرار والاصدار ، وسلم
تسليما كثيرا آمين

- ٦٢٣٧ -

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

- (١) مطموس بالأصل .
(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
(٣) مطموس بالأصل .
(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
(٥) طمس بالأصل بثلاثة أسطر .
(٦) مطموس بالأصل .
(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لا يعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق للمرحوم المختار السوسي أن أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لحق النسخة بمض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال أضاف لي لفة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وفيما وجد أبو شامة - صاحب الروضتين - التعامل مع البرق الشامي أمرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل للكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك - انظر الروضتين : ٢ ، ٧٤ - ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

- ١ - الحيلة : قولك هي على الصلاة ، هي على الفلاح ، القاموس
- ٢ - الوحش : الرديء من كل شيء ، ورذال الناس ، القاموس .
- ٣ - كرثة الفم : اشتد عليه ، القاموس .
- ٤ - طفر : قفز ، القاموس
- ٥ - الدأماء : البحر ، القاموس .
- ٦ - النهيت : الزئير . القاموس .
- ٧ - سحابة دلوخ : كثيرة الماء ، القاموس .
- ٨ - الريح تحركت فهي ذووج ، وللريح نثيج : أي مر سريع ، القاموس .
- ٩ - بلغ : تكبر ، القاموس .
- ١٠ - بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
- ١١ - في وادي الأردن قرب عقبة أفيق .
- ١٢ - الأوام : النخان ، القاموس .
- ١٣ - السلت : القطع والاستئصال .
- ١٤ - ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
- ١٥ - البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
- ١٦ - يقق ، أبيض القاموس .
- ١٧ - طحرت العين : قذاها ، القاموس .
- ١٨ - أي تنعدم الأقوات فيها .
- ١٩ - الأمره : الأبيض ، القاموس .
- ٢٠ - أي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
- ٢١ - حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
- ٢٢ - الأطعمة التفة : ما ليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
- ٢٣ - المنذر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
- ٢٤ - السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
- ٢٥ - الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
- ٢٦ - الحلاهل : السيد الشجاع ، القاموس .
- ٢٧ - الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
- ٢٨ - العنق سير فيه تبخر والذميل السير اللين ما كان فوق العنق ، القاموس .
- ٢٩ - الأرى العسل ، القاموس .
- ٣٠ - لثق يومنا : ركبت رمحة وكثر نداء ، القاموس .
- ٣١ - الأوام : العطش ، القاموس .
- ٣٢ - أمهى السمن والشراب : أكثر ماءه ، وأمهى المدينة : أهدأها وساقاها الماء ، القاموس .
- ٣٣ - انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
- ٣٤ - اللوب : العطش ، أو استنارة الهائم حول الماء وهو عطشان لا يصل إليه ، القاموس .
- ٣٥ - أبهى الخيل : عطلها من الفوز ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

- ٦٢٣٩ -

- ٣٦ - الضفدع : السدوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .
٣٧ - رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ - السوننيق : الصدق أو الشاهين ، القاموس .
٣٩ - تنفل : أزيد ، القاموس .
٤٠ - حدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .
٤١ - خطا لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ - باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ - كنا بالأصل وهو وهم فلمله أراد قوله تعالى « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر ٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ - الكنهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ - السنني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدرع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ - أي الثغرية أو الهدوية .
٤٧ - الغرب : النشاط والتماني والحنة ، القاموس .
٤٨ - السذور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ - النأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ - الجماء : الغفير . النهاية لابن الأثير .
٥١ - التاريث : الاغراء بين القوم وإيقاد النار ، القاموس .
٥٢ - القونس : ما يوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ - التامور : علة القلب ودمه ، النهاية لابن الأثير .
٥٤ - الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ - حزا : خمن أو حذر وقدر ، القاموس .
٥٦ - ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ - المشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ - الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

المحتوى

٣ - توطئة

- ٧ - من كتاب البرق الشامي
- ٧ - سنة ثلاث وثمانين
- ١٠ - ذكر سرية الأفضل علي
- ١٣ - ذكر الدخول الى الساحل
- ١٦ - ذكر ما اعتمده الفرنج
- ١٨ - فتح طبرية
- ٢١ - ذكر مسير السلطان لهزم اللقاء
- ذكر الذشاب ووصفه
- ٢٤ - ذكر يوم حطين

☆☆☆☆

- ٣٣ - كتاب الفتح المكي
- ٤٧ - ذكر ما كان بين ملك الفرنج وبين القوم من خلاف
- ٤٨ - ذكر دخول السلطان صلاح الدين الى بيار الفرنج
- ٥١ - ذكر فتح طبرية
- ٥٦ - ذكر الصليب الأعظم
- ٥٧ - ذكر فتح حصن طبرية
- ٥٧ - ذكر ما اعتمده في الاسارى النارية والاسبنتارية
- ٥٨ - ذكر فتح عكا
- ٦١ - فتح عنة من البلاد
- ٦١ - فتح الناصرة وصفورية
- ٦٢ - فتح قيسارته
- ٦٢ - فتح نابلس
- ٦٣ - فتح الفولة
- ٦٤ - فتح تبينين
- ٦٦ - فتح صيدا
- ٦٧ - فتح بيروت
- ٧٠ - فتح جبيل
- ٧١ - هلاك القوم ودخول المراكيس الى صور
- نذ - فتح عسقلان
- ٧٥ - فتح القدس
- ٧٦ - كنيسة قمامة
- ٧٩ - وصف البيت المقدس

- ٦٢٤٢ -

- ٧٠ - ذكر يوم الفتح
- ٨٦ - ذكر حالي في العود الى الخدمة
- ٨٧ - حال الفرنج في خروجهم من القدس
- ٨٩ - ما اظهر السلطان في القدس
- ٩٢ - وصف الصخرة
- ٩٥ - مهرب داود
- ٩٨ - ما جرى بعد فتح القدس
- ١٠٠ - حصار هصور
- ١٠٥ - ما تم على الاسطول
- ١٠٨ - خروج الفرنج للقتال
- ١١٠ - ما بروه من الرأي
- ١١٢ - فتح حصن هونين
- ١١٦ - استشهاد محمود اخي جاولي
- ١١٨ - نزول السلطان على عكا
- ١١٩ - ورود رسل
- ١٢٠ - وصول اخو العماد
- ١٢٦ - رسالة الى اليمن
- ١٣٥ - سنة اربع وثمانين وخمسمائة
- ١٣٦ - حال الكرك
- ١٣٩ - عمارة عكا على يد قراقوش
- ١٤٠ - وصول رسول سلطان الروم قليج ارسلان
- ١٤٢ - رحيل السلطان هبوب دمشق
- ١٤٦ - وصول عماد الدين صاحب سنجار
- ١٥٥ - فتح جبلة
- ١٥٧ - فتح اللاذقية
- ١٦١ - فتح سهيون
- ١٦٤ - فتح بكاس والشفر
- ١٦٦ - فتح برزية
- ١٧١ - فتح دربساك
- ١٧٢ - فتح بفراس
- ١٧٣ - الهندة مع انطاكية
- ١٧٤ - عود عماد الدين ثم عود السلطان الى دمشق
- ١٧٧ - فتح الكرك
- ١٧٨ - مهاجرة هدفد
- ١٧٩ - حصار كوكب
- ١٨١ - فتح كوكب
- ١٨٤ - سنة خمس وثمانين وخمسمائة
- ١٨٥ - رسول من دار الخلافة
- ١٨٧ - رسالة الى بغداد
- ١٩١ - حصار شقيف اردون
- ١٩٤ - اقامة السلطان بمرج عيون
- ١٩٧ - استشهاد عنة من امراء العرب

- ٦٢٤٣ -

- ١٩٩ - مسير الفرنج الى عكا
- ٢٠٥ - وقعة يوم الاربعاء
- ٢٠٦ - وفاة حسام الدين طمان
- ٢٠٧ - واقعة للعرب
- ٢٠٨ - الواقعة الكبرى
- ٢١١ - نصرة بعد كسرة
- ٢١٢ - رسالة الى بعض الاطراف
- ٢١٦ - عرض المساكر
- ٢١٧ - استرجاع ما نهب من الثقل
- ٢١٨ - مشاورات حول عكا
- ٢٢١ - الرحيل الى الخضربة
- ٢٢٣ - ما جرى بعد ذلك من حوادث
- ٢٢٤ - وصول ملك الالمان
- ٢٢٥ - رسالة الى دار الخلافة
- ٢٢٧ - وصول الملك العادل
- ٢٢٩ - رسالة الى بغداد
- ٢٣١ - وصول الاسطول المنصور
- ٢٣٢ - رسائل متنوعة
- ٢٣٤ - تقوية عكا
- ٢٣٥ - حال نساء الفرنج
- ٢٣٨ - ما اهداه صاحب الموصل من سلاح وعتاد
- ٢٣٩ - ذكر صاحب سنجار
- ٢٤١ - وصول رسول سلطان العجم
- ٢٤٣ - وقعة الرمل
- ٢٤٤ - حال عكا
- ٢٤٦ - رسول من دار الخلافة
- ٢٤٨ - مقاتلة الافرنج عكا بالابراج
- ٢٥٠ - احراق الابراج الثلاثة
- ٢٥٣ - رسائل بشأن
- ٢٥٧ - تاريخ وصول الاكابر هذه السنة
- ٢٥٩ - كتاب الى صاحب الموصل .
- ٢٦٠ - وصول الاسطول من مصر
- ٢٦٠ - رسالة حول الاسطول
- ٢٦٣ - قصة ملك الالمان
- ٢٦٩ - رسالة الى بغداد عن ملك الالمان
- ٢٧٠ - كتاب استنفار
- ٧٢ - الواقعة العادلة
- ٢٧٦ - حال الفرنجة
- ٢٧٩ - وصول الكنديري
- ٢٨١ - حريق المنجيات
- ٢٨٢ - وصول بطسة من بيروت
- ٢٨٣ - وصول بطس القلة من مصر .

- ٦٢٤٤ -

- ٢٨٤ - كتاب الى سيف الاسلام
- ٢٨٥ - ذكر عيسى المروم
- ٢٨٥ - وصول ولد ملك الالماني
- ٢٨٧ - برج الذبان
- ٢٩٠ - الكباش وحريقه
- ٢٩٣ - حوادث تجددت
- ٢٩٥ - وفاة زين الدين صاحب اربل
- ٢٩٧ - نوبة رأس الماء
- ٣٠٠ - كتاب في المعنى
- ٣٠٢ - وقعة الكمين
- ٣٠٣ - كتاب بشرح الحال
- ٣٠٤ - هجوم الشتاء
- ٣٠٦ - كتاب الى صاحب الموصل
- ٣٠٧ - ما تجدد هذه السنة
- ٣١٢ - الشهباء هذه السنة
- ٣١٥ - ما تجدد من الحوادث
- ٣١٨ - جماعة وصلوا من عسكر الاسلام .
- ٣١٩ - وصول ملك الفرنسيس
- ٣٢٠ - نادرة
- ٣٢١ - وصول ملك الانكتير الى قبرص
- ٣٢٣ - قصة الرضيع
- ٣٢٥ - انتقال السلطان الى تل العياضية
- ٣٢٦ - وصول ملك الانكتير
- ٣٢٨ - غرق البطسة
- ٣٢٨ - حريق الدبابة
- ٣٢٩ - وقعات هذا الشهر
- ٣٣٣ - مفارقة المركيس القوم
- ٣٣٣ - من وصل من العساكر الاسلامية
- ٣٣٥ - ضعف عكا
- ٣٣٦ - كتاب الى صاحب الموصل
- ٣٣٨ - خروج رسل الفرنج
- ٣٣٩ - ضعف الثغر
- ٣٤١ - خروج المشطوب الى ملك الفرنسيس
- ٣٤١ - هرب جماعة من عكا
- ٣٤٢ - كتاب الى اربل
- ٣٤٣ - ماجرى من الحال
- ٣٤٥ - جماعة من العسكرية وصلوا
- ٣٤٦ - سقوط عكا
- ٣٥٢ - كتاب الى نور الدين بن قرا أرسلان
- ٣٥٢ - رسالة الى اربل
- ٣٥٦ - ماجرى عليه الحال بعد سقوط عكا
- ٣٥٨ - غدر ملك الانكتير باسرى المسلمين

- ٦٢٤٥ -

- ٣٦٠ - رحيل الفرنج هبوب عسقلان
- ٣٦٣ - كتاب الى اربل
- ٣٦٤ - وقعة هيسارية
- ٣٦٥ - مقتل اياز الطويل
- ٣٦٦ - وقعة لعز الدين بن المقدم
- ٣٦٧ - وقعة ارسوف
- ٣٧٠ - رسالة الى بغداد
- ٣٧٢ - دخول الفرنج يافا
- ٣٧٣ - خراب عسقلان
- ٣٧٥ - كتاب الى بغداد
- ٣٧١ - ما تجند لك الانكتير
- ٣٧٨ - نزول السلطان بالرملة
- ٣٧٩ - وقعة الكمين
- ٣٨٠ - اجتماع العادل بملك الانكتير
- ٣٨١ - الرحيل الى القدس
- ٣٨٢ - يوم عيد الاضحى بالقدس
- ٣٨٢ - وقعة الافرنج
- ٣٨٣ - عمارة القدس
- ٣٨٤ - وفاة تقي الدين عمر
- ٣٨٨ - وفاة حسام الدين عمر
- ٣٩٣ - رسائل حول القدس
- ٣٩٤ - رسالة شكر الى صاحب الموصل
- ٣٩٨ - حوادث مع الفرنج هذه السنة
- ٣٩٩ - ثلاث سرايا
- ٣٩٩ - سرية فارس الدين ميمون القهري
- ٤٠٠ - خروج المشطوب من الاسر
- ٤٠٠ - هلاك المركيس
- ٤٠٢ - استيلاء الفرنج على الناروم
- ٤٠٤ - كبسة الفرنج عسكر مصر
- ٤٠٦ - سبب غيبة العادل والافضل
- ٤٠٧ - رحيل ملك الانكتير هبوب عكا
- ٤٠٨ - نزول السلطان على يافا
- ٤١٠ - رسالة الى بغداد
- ٤١٢ - الهيئة العامة
- ٤١٤ - رسالة الى بغداد عن نوبة يافا والهندة
- ٤١٧ - ماجرى بعد الصلح
- ٤١٨ - ما عزم عليه السلطان
- ٤١٩ - خروج السلطان نحو دمشق
- ٤٢١ - وصول السلطان الى بيروت ودخول صاحب انطاكية عليه
- ٤٢٣ - وصول السلطان الى دمشق
- ٤٢٩ - وفاة السلطان بدمشق
- ٤٣٠ - اولاد السلطان

- ٦٢٤٦ -

- ٤٣١ - من تولى ممالك السلطان بعده
- ٤٣٢ - ذكر من تولى دمشق
- ٤٣٤ - ذكر حلب ومن تولاها
- ٤٣٥ - ذكر الملك العادل
- ٤٣٦ - الشامتون ب وفاة صلاح الدين
- ٣٤٨ - رسالة باسم الافضل الى بغداد
- ٤٤٠ - ذكر سيف الاسلام باليمن
- ٤٤٥ - رسول الافضل الى دار الخلافة
- ٤٤٩ - بعض مناقب صلاح الدين
- ٤٥٦ - الحواشي والهوامش